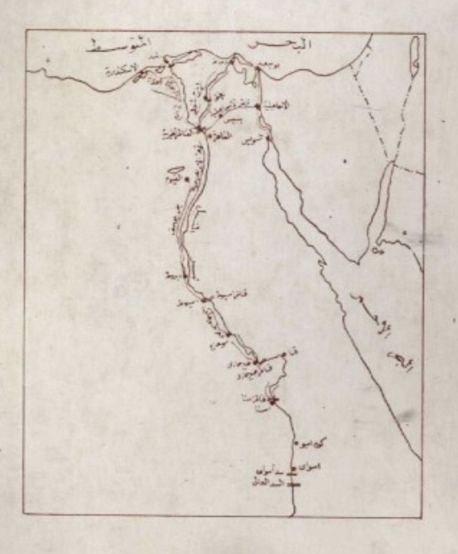
منشورات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد

شخصية مصر

تكريم

جمال حمدان



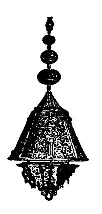
مدريد ١٩٩٥

مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد

شخصية مصر

تكريم

جمال حمدان



مدريد ١٩٩٥


sharif mahmoud

sharif mahmoud

فهرس

تــكــــريم

جمال حمدان شخصية مصرية متميزة وعبقرى مبدع . ساهم بمهارة فائقة فى اثراء المعارف المصرية وتعميق الهوية والانتماء الى مصر الحبيبة التى أثرت بشكل ملحوظ فى الأوساط الاكاديمية والعلمية والفكرية ، فى كل زمان ومكان .

هو نموذج طيب وأصيل للانسان المصرى ، بتحمسه وولعه الشديد بالمعرفة ، وحبه وعشقه لوطنه مصر ، وباسهاماته فى مجال الفكر والتاريخ والحضارة .

ومهما تعاقبت السنون ، فستظل شخصية جمال حمدان ، مائلة أمام التاريخ والاجيال ، تتذكرها بكل فخر واعتزاز ، كأعظم مثـال على قدرة الانسان المصرى على الكفاح والعطاء والتضحية .

ان لقاءنا اليوم لتكريم جمال حمدان ، انما هو اعتراف جديد باصالته ونقائه وابداعه الفكرى ، كما أنه احياء لمبادئه ولرسالته ممثلة فى حبه الخالد : مصر .

لقـد عاش جمال حمدان وحيدا عاكفا على كتـاباته وبحوثه ، اعتزل الجميع زاهدا فى محراب العلم ، دون أن تغيب عنه مجريات الأمور والأحداث ، ودون أن يفقد صلته الوثيقة بعالمه الخاص ، أو يتوقف لحظة عن الكتابة والقراءة ، عاش جمال حمدان مشاعر اليأس والقنوط ، ومات فقيرا متواضعا وحيدا وانتهت حياته نهاية حزينة ، تذكرنا بأبطال الاساطير الاغريقية الشهيرة .

وكان نتاج دراساته وأبحاثه طوال حيـاته أعمال ومؤلفات وبحوث عديدة ، لازالت فى حاجة الى مزيد من الدراسة والتقييم والتعقيب والافادة ، وان ظلت دائما محل اشادة الجميع وتقديرهم .

كان جمال حمدان ، راهب فكر حقيقى فى محراب العلم ، وعالمـا بصيرا لـه فلسفته الخاصة وعالمه الذاتى ، وطالمـا عبر عن وجهـة نظره بصراحة وجرأة ، موجها انتقاداته ضد كل المظاهر السلبية فى المجتمع على مدار تاريخه الاجتماعى والسياسى والادارى ، متوخيا فى ذلك صالح الانسان المصرى الأصيل ، ولم يكن

جمال حمدان مفكر فحسب ، وانما كان عـالما حقيقيا ، شديد الوفـاء والولاء لأفكاره ومبادئه وكتاباته ، واعيا ومقتنعا بأهمية الدور الذى تلعبه الحضارات مهما اختلفت مضامينها .

كانت الجغرافيا تخصصه الدقيق وعلمه المفضل الذى استطـاع من خلاله أن يقدم أروع انتاجه الفكرى وأبحاثه القيمة الهامة ، كانت هى المحور الرئيس الذى اعتمد عليه فى مؤلفته الشهيرة « شخصية مصر » ، ولجمال حمدان رؤية تفسيرية لفلسفة قـادرة على أن تقدم منظورة متعـددة لجوانب شخصية مصر ولتاريخها الغنى بأحداثه وللطبيعة الجغرافية وللفكر الروحى والثقافى ، بل ان جمال حمدان يتجاوز آفاق دراسته العلمية المحددة والجادة ليقدم لنا استعراضا منهجيا دقيقا للمتناقضات والفوارق بين مظاهر الضعف والقوة لدى الشعب المصرى ، وأهمية الموقع الذى تحتله من الناحية الاستراتجية والمعنوية والروحية والفكرية ، مؤكدا على أهمية هذا الموقع الغنى وتعدد أبعاده ، مما أتاح لمصر فرصة التلاحم والاتصال مع ثقافات وحضارات متعددة الجوانب .

وهو يقدم لنـا مصر كنموذج وظاهرة فريـدة وأصيلة فى جغرافيتها وتاريخها وحضارتها ، وهى كلها أبعاد ترتبط ارتباطا وثيقا بكتاباته المتميزة ، ولذلك نجد أن مؤلفته هذه تعتبر من أهم المراجع والمصادر التاريخية والثقافية لمصر المعاصرة ، وهى موسوعة تضم كثيرا من المعـارف المتنوعة التى تتجلى فى أعمـاله وفى فكره الأصيل ونظرته العميقة الفاحصة .

لقد اهتم جمال حمدان بقضايا عديدة ، وبخاصة قضايا التراث والقومية التى كان يعتبرها همه الاول ومشروعه الفكرى الاوحد ، ورسالته القومية الاولى.

وكانت مواقفه قـاطعة ، دون كراهية أو رغبة فى الانتقـام ، بل هدفها واضح ورسالتها صريحة ، مستندا الى مبادىء المساواة والعدل والحرية والانتماء .

كلمة سعادة السفير/ابراهيم على حسن
سفير جمهورية مصر العربية باسبانيا

تــقـــديم

أهتم المعهــد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد وخــلال الأعوام الأخيرة وبصفة خاصة وفى الفترة من ٩٢ – ٩٥ بتكريم الشخصيات البــارزة فى عــالم الادب والفنون والعلوم من المصريين والعرب والاسبان .

وقد شهد شهر مايو ٩٣ بالذات ، لقــاء العلماء الاسبان والعرب والمصريين المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية والاندلسية والاسبانية ، اعترافا منا بجهودهم العلمية واسهاماتهم فى الفكر والتاريخ والثقافة للعالمين العربى والاسبانى .

وفى شهر نوفمبر ٩٤ ، تم تكريم أيضا الفنانين المصريين للتعبير عن اعجابنا وتقديرنا لهم وهم من خريجى كلية سان فرناندو خلال الفترة الواقعة من ١٩٥٠ وحتى ١٩٨٠ سواء الاحياء منهم أو الذين رحلوا عن عالمنا الى لقاء ربهم الكريم .

واليوم الحادى والعشرون من مارس ٩٥ ، هى المناسبة التى نعتز بها ويشرفنا تنظيمها – تعبيرا عن تضامننا وتقديرنا – لأحد العلماء الذين عرفوا كيف يحبون وطنهم : **مصر** ، واحدى الشخصيات التى نــالت الاعجاب والاشادة ، وتستحق التكريم الذى نقدمه فى لقاء اليوم هو العالم الراحل : جمال حمدان ، النموذج الذى يجب أن تحتذيه الأجيال القــادمة لما يجب أن يكون عليه الباحث الجيد والمحب للسلام والمتمكن من علمه ومعارفه وهو انسان حضارى بمعنى الكلمة .

وانتهز هذه الفرصة لأعبر عن مدى سرورى وتقديرى لأسرة العالم الراحل الدكتور/جمال حمدان ، ويسعدنا أن ننقل لهم حبنا وتقديرنا لذكراه العطرة الخــالدة .

وقبل أن أنهى كلمتى هذه أود الاشارة بأننا قد كرمنا فى هذا العام أيضا ثلاثة من كبــار الأساتذة الأفاضل الاسبان المشتغلين بالدراسات العربية والاسلامية وأخص بالذكر فى المقــام الأول الأستــاذ الدكتور فيــدريكو كورينتى بمنــاسبة

دخوله مجمع اللغة العربية بالقاهرة هذا العام وتقديم كتاب ابن قزمان القرطبى بالمعهد المصرى فى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٩٥ .

هذا وقد أسعدنا الحظ بتكريم كل من الأستاذ الدكتور بدرو مارتينث مونتابيث والدكتورة ماريا خيسوس فيجيرا بالاسكوريال بمدريد وذلك فى ختام الحلقات الدراسية التى عقدت فى شهر أغسطس من هذا العام تحت عنوان الرواية المصرية المعاصرة : تكريما للأديب العالمى نجيب محفوظ .

الى هؤلاء الأساتذة الثلاث الأفاضل الأصدقاء والى كل المشتغلين فى هذا الحقل أتقدم اليهم بخالص الشكر لاسهاماتهم الجيدة وتعاونهم المثمر والمستمر مع المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد منذ انشائه وحتى يومنا هذا .

أقول لهم جميعا : شكرا والى اللقاء .

وأود أيضا فى هذه المناسبة السعيدة أن أعبر عن شكرنا وامتناننا للمؤسسات العلمية والثقافية الاسبانية والمصرية التى أكدت مجددة تعاونها معنا لتنظيم هذا الملتقى ، وأخص بالذكر معهد التعاون مع العالم العربى وشعوب المتوسط والدول النامية ، وادارة التعاون الدولى بوزارة الثقافة الاسبانية ، وجامعة كومبلتنسى بمدريد .

أتقدم اليهم جميعا بخالص الشكر والتقدير والعرفان ، والى السادة الاساتذة الأفاضل المشاركين والاصدقاء الأعزاء المتواجدين معنا اليوم فى تكريم ذكرى جمال حمدان .

ولقرائنا الكرام نقدم لهم هذا العدد الخاص عن جمال حمدان والذى يتضمن بعض الابحاث والدراسات المتميزة من أساتذة جامعات مصر واسبانيا المرموقيين لعلها تفيدنا لتلقى الضوء على شخصية من الشخصيات المصرية الجديرة وأعماله ودراساته المتميزة الهادفة التى نحتاج اليها فى هذه الآونة لتعميق مفاهيم الذاتية والانتماء بكل معانيه الى أرض الوطن الحبيب : مصر الغالية .

كلمة أ. د. جمال عبد الكريم
مدير المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد
والمستشار الثقافى بسفارة جمهورية مصر العربية

شخصيــــة مصـــــر
وجمـــال حمـــدان

دراسة تحليليــة وتعليـق

هذه الصفحات التى نقدمها تعبر عن رؤيتنـا وتلخيصا لبعض الكتـابات والمقالات والدراسات ، وكذلك بعض أراء النقـاد والكتاب الذين عرفوا قدر هذا الرجل ، هذه الشخصية المصرية الجادة التى لم تنل حظها من الحياة ولا حقها وقدرها الكاف من الاقلام والزملاء والنقاد لتشيد بهذا العملاق المصرى وعبقريته الفذة وصفاء وطهارة قلبه المفعم بالحب والاخلاص لمصر ، أردت أن أنقل لكم من خلال هذه السطور رؤيتنا وكتـابات المخلصين والمفكرين الذين اثـنوا على جمال حمدان وأعماله الخالدة .

« الديمقراطية كالحريـة فهى لا تمنح ولكن تنتزع لا تستجدى من الدكتاتور وانما تفرض بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه ».

جمال حمدان

— جمال حمدان هو المثقف الواعى والمفكر والعلامة الكبير الذى اثرى بأفكاره وفلسفته تيار الثقافة والعلوم . شخصية مصرية مخلصة جادة ، قدمت الجديد ، وكان له دور هام وبارز فى اطار الفكر الحضارى والتاريخى والذى تفخر الاجيال به وبانجازاته الثقافية المصرية الحديثة على مر العصور .

— هو أحد العبـاقرة المصريين الذين اعطوا الكثير لوطنهم . عاش ومات وحيدا وأفنى حياته فى حب مصر وانتمائه الشديد اليها . شخصية فريدة موسوعة حية عبقرية الفعـل والعطاء . كان جمال حمدان نموذجا فريدا بين أساتـذة الجامعات المصرية والمفكرين وبين الوطنيين المصريين . وهو باحث جاد وأصيل وطنى ومثل أعلى للانسان المصرى . راهب فى محراب العلم ، منصرف تماما الى الدرس والبحث ، زاهد معتزل ، شديد الانتماء لمصر .

وكتـابه العظيم « شخصية مصر » ليس مجرد دراسة جغرافية شاملة ، بـل أنها ملحمة وطنية وعلمية ، نابضة بالحب والوفاء والعطاء تجسد عشقه لبلده الحبيب : مصر الأم والوطن .

تعرض جمال حمدان لمحنة شديدة اضطرته الى الاستقالة عام ٦٣ وفضل حياة العزلة عن مجتمع الجامعة بعيدا عن الاضواء متجنبـا الصراعات أو الخلافات والمحسوبيات . صدر كتابه عن الشخصية المصرية أول مرة فى يوليو ٦٧ فى سلسلة كتاب الهلال فى رقم ٢٥٦ وصدرت الطبعة الثانية فى عام ٧٠ وهى أكثر من خمسمائة صفحة نشرتها مكتبة النهضة المصرية .

هذه المحنة جعلت منه عبقرى الزمان والمكان فى كـل العصور بعد اعتزاله واستقـالته من كلية الاداب وهو فى قمـة شبابه وتـألقه العلمى . حصل على الدكتوراة من جامعة ريدنج بانجلترا وهو فى الخامسة والعشرين ونال جائزة الدولة التشجيعية وهو فى الحادية والثـلاثين . ترك الجامعة وهو فى الخامسة والثلاثين أستاذا مساعدا أثر صراع مع بعض الاساتذة استخدمت فيه أسلحة غير علمية وغير لائقـة ، حرم فيها من ثمرة جهده علانية ، ثـم اعتزل ثانية المؤسسات السياسية رغم التقائه مع جوهر توجيهاتها القومية . ولذلك كله زهد جمال حمدان العالم والناس وانطوى على نفسه وعلى المجتمع حتى مات حسرة وألمـا وهو فى قمة العطاء لأنه لم يتوقف لحظة عن الانتـاج والدرس والبحث والتواصل مع العالم بالعلم والمعرفة .

لا شك أنه انسان متواضع لأبعـد الحدود ، يتسم بشغف القلب والعقـل . ضجت به الحياة فاقام سياجا بينه وبين المجتمع ولكنه منتج جيد لا يقل شأنه عن أى عالم فى الخارج والداخل قلما يتكرر .

كان جمال حمدان مثقفا حقيقيا بمعنى الكلمة ولم يكن عالما فى الجغرافيا أو مفكرا من أبرز مفكريها فحسب بـل كان انسانا حضاريا صاحب فكر وفلسفة ورأى ومنهج ، يؤمن تمـاما بتعدد الحضارات والتعـايش معها على اختـلافها وتآلفهـا .

كانت الجغرافيا المصرية هى مادته والركيزة الاساسية التى يرتكز عليها التفكير الحضارى الذى كان يسيطر على كل أبحاثه .

ومن هذا المكان وهو « مصر » الأم الفياضة ، انبثقت أفكاره الاساسية حول انسانية الحضارة والخصومات الوطنية والقومية وحوار الثقافات . وشغلته قضايا مصر بصفة خاصة ، وله رأى شخصى وجرىء وموقف واضح وصريح فى كل مجريات الأمور فى مصر .

وهو يتميز عن غيره من زملائه أنه صاحب فكر حر طليق دون قيود ولا ميول دون خوف ولا مبالاة بشجاعة وبجرأة شديدة وشهامة معهودة فيه ، وإلى جانب العلم والفكر كان صاحب رسالة قومية حضارية وانسانية لأبعد الحدود .

جعل جمال حمدان من الجغرافيا مدخلا له باعتبارها تخصصه الدقيق ومهنته الحقيقية . لم يقتنع بالتدريس فقط ، بـل كان يؤمن بالتدريس القـائم على البحث العلمى المقترن بخطاب أو رسالة — موجهة توجيها صحيحا وبهدف بناء — الى الرأى العام ومساهمتها الفكرية المباشرة .

لاشك أن جمال حمدان هو الهوية الوطنية والحضارية والانسانية بذاتها . وفى عمل جمال حمدان كانت الجغرافيا هى « الوطن » والتاريخ هو « الأمة » .

وفى رأيه الرسالة هى « الحضارة » ويقول : « ان مصر لهـا خصوصيتها فهى تستوعب التعددية فى اطار الوحدة الوطنية » . فهو متحمس لهويته وانتمائها للعالم العربى الاسلامى ثم الى الحضارة الانسانية ، وهو مؤمن ايمانا كاملا بالاستقلال القومى وأيضا بالديمقراطية . كل هذه المفاهيم والأفكار تتجلى فى أعمال جمال حمدان فى كل انسان محب للحرية والديمقراطية واحترام الذات .

لقد وضح جمال حمدان أهم خصائص الشخصية المصرية وسماتها البارزة فى مؤلفته الشهيرة « شخصية مصر » معان الصبر والدأب والجلد والمحافظة ، التى جاءت نتيجة طبيعيـة للاستقرار والاستمرارية والاعتدال والمرونـة والتلاؤم والتغيير والحيوية ، وهى فى الواقع ضرورية وحتمية لمسيرة الحياة . وهو ينادى

بالتعــاون والواقعية ويؤكد على أن مصر لــم تعرف كراهية الاجانب قط بحكم موقعها وسط الدنيا ، فهى بلد التسامح والشمولية .

وان مصر أيضا لم تعرف العنصرية أو التعصب الجنسى ولم يكن عامــل اللون حاجزا وعقبة فى تاريخها . ويعلق على ذلك بتعدد الابعــاد والجوانب فى شخصية مصر ، حيث أن مصر ، من حيث الموقع والموضع على مستوى القارات : افريقية وأسيوية ، وعلى المستوى الاقليمى : نيلية وبحر متوسطية . وان لكل بعد منها له تأثيراته فى شخصيتها . وهى على محور التاريخ والثقــافة : فرعونية بحر متوسطية عربية .

امتزجت كل هذه العناصر فى مصر كيماويــا بفضل قوة استيعاب وامتصاص نــادرة .

أما من الناحية الدينية ، فالتدين أول خصائص شخصية مصر ، والتسامح الدينى من أقدم خصائص المصرى القديم ، جعلته يتقبل الاديان ويقبل عليها على مر التــاريخ وهذا ليس بمحض الصدفة ، بل اقتنــاعا بالانسانية والحضارة وبالواقع التاريخى والاجتماعى والمصير .

وفى رأيه أيضا ان مصر هى التى اضافت الى المسيحية « الرهبنة » والى الاسلام من بعدها « التصوف » .

وهو يؤكد أن مصر لم تعرف مذابح أو محــاكم التفتيش La Inquisición فقد جب تعدد الاديان وجعل التسامح الدينى ضرورة حياة وان المدينة المصرية اليوم ما هى الا تجسيم وتجسيد واضح لتعاصر وتفاعل القديم والجديد معا .

ويحدد جمال حمدان مجمل ملامح الشخصية المصرية فى اخلاقها وسلوكها .. فى الطغيان والاستبداد .. وفى الدعة والخضوع فى القوة طلبا للنفوذ وفى النفاق طلبا للبقاء وفى العزلة طلبا للحماية .. وفى السيطرة طلبا للمجد . كــل هذا من مكونات شخصية مصر . وينبهنا جمال حمدان الى أن نهر النيل الذى نشأت على ضفافه حياة المصرى القديم هو مفتاح وسر تاريخ مصر .

ومن هذه البيئة النهرية الفيضية تبلور العقد الاجتماعى بين الحاكم الذى يملك المياه والمحكوم الذى يستفيد منها ..

« اعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى .. » وهذه الخصوصية الفيضية فى نظر جمال حمدان هى مفتاح التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة .

أما عن الريف المصرى فهو يعتبره أساس وقاعدة مصر بدوره الذى يمثــل تضاعفا للتاريخ فى أكثر من ناحية ، فالى جانب الشادوف والمحراث وغيرها من

الآلات وأدوات القرن العشرين قبل الميلاد ، نجد الجرار والخزان وغيرها من نتاج القرن العشرين بعد الميلاد .

مصر فى نظر جمال حمدان تتمتع بنظرة عالميـة رحبة الافق وقوة الاقتنـاع دون أن تفقد قوامها الذاتى ووطنيتها الراسخة وكيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وانما يتناسخ ولكى يمكن أن نضعها كقاعدة .. ان مصر كلما زادت تغيرا وتطورا ، زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا .

وشاهد التاريخ يعرف تماما أن مصر فى المـاضى البعيد كانت « تمصر » كـل جديد ، تهضمه وتمثله وتفرزه كائنـا مصريا صميما . وان الموجات الاجنبية ابتلعتها ومصرتها . الرعاة امتصتهم فى قالبها الفيضى وصاروا زراعا مستقرين، هذا عن مصر القديمة .. أما اليوم فيقولون .. « مصر عازفة عن أن تكون أى شىء الا مصر » .

ان ملكة مصر هى الحد الأوسط . هى بوضوح كلمة المفتاح فى شخصية مصر الحضارية . وفى مواجهتهـا للجميع .. وفى التفرقة بين المـاضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الاصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس .

كل الدول لهـا سلبياتها وايجابياتها ، ولكن معظم سلبيات وعيوب الشخصية المصرية انما يعود أساسا وفى الدرجة الاولى الى القهر السياسى الذى تعرضت له ببشاعة وشناعة طوال التاريخ . فهى نقطة الابتداء والانتهاء ، هى الحب المفقود والبغض الموجود بلا حدود .

روح السماحة والدماثة المقولة تلك .. هى أيضا المسئولة الاولى عن واحد من أخطر عيوب مصر .. ان صح هذا التعبير وهى ان تسمح للرجل العادى المتوسط .. « للرجل الصغير » بأكثر ممـا ينبغى .. وتفسح له مكـانا أكبر مما يستحق وفى الوقت نفسه .. وكـأنما لتضيف الاهانة الى الحرج .. فانهـا على العكس تضيق بالرجل الممتاز .. اذ لا مكان له فى توسطها ووسطيتها .. وأفضل مكان له خارجها. فشرط النجاح أن يكون اتباعيا لا ابتداعيا . ومواليا لا معارضا .

لذلك لم يكن جمال حمدان راضيا على مجريات الامور فى مجتمعه وبيئته الثقافية التى كـان يعتبرها غير حقيقية وليست كمـا يجب أن تكون ، غير أنـه يرى أن الديمقراطية كالحرية فهى لا تمنح ولكن تنتزع ، لا تستجدى من الديكتاتور وانما تفرض عليه بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه .

مصر لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها . وان شخصية مصر تمتد الى التفاعل بين بعدين أساسين فى كيانها وهما الموضع والموقع .

يشير جمال حمدان بقوله : « اذا كانت مصر فرعونية الجد فهى عربيــة الاب غير أن كل من الاب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد » والواقع أن مصير العرب مصرى حضاريا .

كما أن مصير مصر عربى سياسيا .. ومصر لا مستقبل عالمى لها خارج العرب . ومصر اليــوم بالذات محكومة عليهــا بالعروبة والزعامة ، ولكن أيضا بتحرير فلسطين .

ان صفحة مصر الجغرافية تتــألف من عنصرين طبيعين أساسين همــا النهر والصحراء . ولكن البحر بالتأكيد عنصر ثالث وبذلك تكتمل صورة مصر الجغرافية.

وعن الخريطة المسيحية لمصر أو جغرافية الاقباط فى مصر يرى جمال حمدان ان الاقباط والفلاحين يكونون جسما واحدا لأن وحدة الاصل بين المسلمين والاقباط ليست علمية وانما هى تحصيل حاصل ومجرد بديهية انثروبولوجية .. ببساطة لان تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينهــا الدينى ، لان الطابع الجنسى العــام للمصريين قد وحد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون ، وهما ينتميان الى الوحدة الوطنية السياسية بكل أبعادها .

وبعبارة أخرى – دون الخوض فى تفاصيل كثيرة .. يقول حمدان : « ان معظم المسلمين أو الكثير منهم اليوم انما هم القبط المصريين أسلموا بالأمس ، بمثل ما ان أقباط اليوم هم بقية قبط الامس الذين استمروا على عقيدتهم » ومن هنا نتفهم ان المصريين اما قبط مسلمون واما قبط مسيحيون ، حيث كلمة قبط انما هى تحريف لكلمة « ايجيبت » Egypt أى « مصر » ، ولقــد تكون هذه طريقة خاصة جــداً للتعبير عن وحدة الاصل من الطائفتين ، ولكن الجوهر منها سليم عمليا .. وهى تلك الوحدة بعينها .

ويقسم جمال حمدان تاريخ مصر الحضارى الى مراحــل : الفرعونية والــذى يعتبرها مرحلة صناعة وتصدير الحضارة ، وبانتهائها ينكمش دور مصر وتدخل مرحلة الاكتفــاء الذاتى التى تسود العهدين الهلينى والرومانى ، ومــع العصر العربى الاسلامى تدخل مصر مرحلة لعلها وسط بين الاكتفــاء الذاتى والتصدير الحضارى .

الريف عنده نسيج شخصية مصر قاعدتــه الزراعية ونقوشه القرى والعزب والكفور . فالقرية والريف هى التحدى الحقيقى فى مصر وتتطور جذريا الا اذا تم هز الريف المصرى بجسمه الثقيــل . ولن يتغير وجه مصر تحت الجلد ما لم تتغير القرية المصرية حتى النخاع ، والا اذا تم رفعها الى مستوى المدينة . وبغير القرية الحديثة لن تكون الدولة العصرية ولن تصبح مصر دولة متقدمة لا نامية.. الا يوم أن تهدم آخر قرية باللبن .. لان هناك شعور عام .. بل هى حقيقة واقعة

حد صارم ، ان ثمرات الحضارة الحديثة وتسهيلاتها تحجب عن أبناء الاقاليم والريف .. لتكـرس حتى التخمة فى العاصمة أو العاصمتين ، وتكـاد المقولة القديمة : « أهل الكفور أهل القبور » . تنطبق على ريفنا كله كفور وغير كفور .. فى أكثر من معنى .

ويعلق جمال حمدان عن الازمة فى مصر على انها لم تظهر فجأة ولم تكن وليدة السنوات الأخيرة وحدها وان كانت قد بلغت ذروتها اثناءها وربما بسببها أصبحت أزمة قديمة الازل ، أزمة مقيمة ومتأصلة ، بل وتصاعدية ضاربة الجذور وستظل معنا الى عقود .. انها أزمة تاريخية كما هى اقتصادية ويخطىء من ظنها بسيطة، انما هى أزمة مركبة ، وهى فى التحليل الاخير أزمة تاريخية حضارية سكانية اجتماعية سياسية عسكرية . هذا بالاضافة الى انخفاض مستوى التكنولوجيا والتطور الفنى والعلمى العام . ورغم هذا كله فان أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل ، السبيل اليه لا يخرج عن معـادلة بسيطة ولكنها قاطعـة قاسية . هذه المعادلة تتلخص فى تعظيم الايجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن . ويقول ان سنة ٢٠٠٠ سوف تنتقل مصر الى الغرب عموما ، بعد أن ظلت معلقـة بين الشرق والغرب . أى أنها ستنتقـل جغرافيا لتعبر البحر المتوسط وتصبح نهائيا شمالية بعد تردد طويل .

جمال حمدان هو مدافع قـوى فى الحق عن شخصية مصر وشخصية المصرى ودفاعه يسبقه نقده . وهو يختار قضاياه لأنه محام بارع ، يتحول الى مهاجم فى أحيان أخرى متبادلا أدوار الدفاع والاتهام والقاضى فى نفس الوقت ، تبعا للقضية فى حيـاد وموضوعية ، وبالاخص فيمـا يتعلق بثقـافة مصر وشخصية المصرى واتهامه بالتحيز لأنه يهاجم سلبياتها بضراوة.. قد تشاركه فيها أيضا ، داعيا الى تعبيرها بعقل المحب وقلبه وفلسفته مسلم بوجودها لأنه يعرض الافضل .

وقد تطرق من خلال مؤلفته الشهيرة « شخصية مصر » الى قضايا عديدة وهامة مثل قضية العزلة ، مصر أصل الحضارة ، السبق والتخلف ، الحكومة والمجتمع والنظرية الاقطـاعية فى تفسير التاريخ المصرى ، نظريات خاطئة فى التـاريخ المصرى ، نظرية غير المحارب ، ونظرية جناية الموقـع ، ونظرية الامن المصرى والتشكيك فى المستقبل ، القنـاة وقضية السد العـالى فى الميزان وكذلك ما بين الوطنية المصرية والقومية العربية ، كلها قضايا استخدم فيها العقلية النقدية فى كافة وجودها .

لاحظ جمال حمدان ان موقع مصر يمثل نقطة القوة ونقطة الضعف فى آن واحد ، كما يمثل أكبر رصيد وخسارة فى الوقت نفسه ، ولا تفسير لهـذا سوى الحتمية الجغرافية التى حتمت الاستعمار وتبريراته اللااخلاقية .

لقد جعل الموقع من مصر .. مفتــاحا جغرافيا لكل أبواب المعمورة القديمة .. أبواب الشرق والغرب ، الهند وروما وأبواب البر والبحر ، فارس واليونان .

ان فكر جمال حمدان فلسفى ، فهو يجمع بين الجغرافيا والتاريخ والسياسة والاجتماع ، ومن هنــا يتبين أهمية البعد التاريخى فى دراسة الواقــع السياسى والاستراتيجى . فالتاريخ هو معمل الجغرافيا والمخزن الاستراتيجى لها . والتاريخ عندما يكرر نفسه يصبح الجغرافيــا . والجغرافيا هى الجذر الجبرى للتــاريخ والتاريخ هو جغرافيا متحركة والجغرافيا تاريخ متوقف . الجغرافيا أشبه بقوس الطيف ، على عجلته تعددت ألوانه فاذا دار وتحرك استمال لونا جديدا واحدا هو التاريخ ، لذلك يدرس جمال حمدان الجغرافيا بمنهج التــاريخ والتاريخ بمنهج الجغرافيا .

لم يكن جمال حمدان فقط أسير المراجع والمصادر التى تجاوزت المائة وعشرة كتابا ، بل استطاع تمثلها وقيست تجاربها ونقلها الى مستوى الوطن ، جامعا بذلك هموم العلم وهموم الوطن . وهو ميزان يصعب ايجاد معادلة دقيقة له .

صدر لجمال حمدان أكثر من اثنى عشر كتابا فى جغرافية المدن والعالم العربى والجغرافيا الاقتصادية ودراسة الشعوب والفكر السياسى ، ولكن الكتاب الذى غلبت شهرته هى موسوعته الضخمة « شخصية مصر » وهى دراسة فى عبقرية المكان ، كتبه فى صورته الاولى وعلى عجالة أثر هزيمة ١٩٦٧ ليؤدى دوراً سياسيا تربويا يؤكد على الاستمرار لا الانكسار ..

ثم عكف عليها بعد ذلك عشرين عامــا كاملة فأنجزها فى أربعة مجلدات تزيــد صفحاتها على الثلاثة الاف وخمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وتزيد مصادره ومراجعه عن الالف بأربع لغات .

وصدر المجلد الاول وأعيد طبعه للمرة الثانية ومن ذلك الوقت أصبح الكتاب مرجعا لا غنى عنه ليس لمعرفة مصر أرضا وشعبا فقط وانما عن معرفة الشخصية الاقليمية وبخاصة ما يتعلق بسكان مصر وجغرافيتها ودراسات أيضا عن العالم العربى وعن اليهود وعن استراتيجية الاستعمار والتحرير وأخيرا عن شخصية مصر بجانب موضوعات أخرى ذات أهمية وخصوصية من عام ١٩٥٣ حتى ١٩٨٤.

وكان من أهم ما كتب عن اليهود . دراسة موجزة ولكنهــا جادة وموضوعية ومدعمة بالاسانيد العلمية والمصادر والمراجع . هذه الدراسة لا تزيد عن ست وتسعين صفحة بعنوان « اليهود انثروبولوجيا » العدد ١٦٩ من المكتبة الثقافية والصادر فى ١٦ من فبراير عام ١٩٧٦ .

فى هذه الدراسة اثبت جمال حمدان أن يهود العالم اليوم الذين يهاجرون من مختلف أنحاء العــالم وبخاصة الاتحاد السوفيتى ليسوا من نسل يهود الشتات

(الرومانى عام ١٣٥ م) وبالتالى ليسوا من نسل يهود التوراة ، وأنه فى ذلك العام ، انتهت الى الابد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا ، أى أنه الخروج الاخير . ولم يفلت من المذابح والمطاردات سوى أربعين ألفا تفرقوا فى أنحاء الامبراطورية الرومـــانية حتى الـــراين وذلك عن طريق التجارة التقليـــدية (الرون/الراين/ فرانكفورت) .

ولم ينف جمال حمدان هذه الحقيقة على علاتها ، بل اثبت أن يهود الشتات عملوا فى مواطنهم الجديدة على التبشير بالعقيدة اليهودية وقـــدم الادلة على ذلك . وبعد ذلك تعرض لاحصاء اعداد اليهود وتوزيعهم مكانيا وأسباب تزايدهم وحروبهم وهجراتهم . وانتهى ايضا من استعراض تاريخهم عبر الزمان والمكان . انتقل الى الجانب الانثروبولوجى أصلا وجنسا . فقد حاول العلماء الانثروبولوجيون تكوين صورة عرقيـــة ليهود التوراة فى فلسطين ثم تتبـــع هذه الصورة من يهود المهجر والشتات لمعرفة مدى الاتفـــاق بين الصورتين . يجمع علماء الانثروبولوجيا على أن يهود عصر التوراة عبارة عن مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفتها المعروفة من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة والطول الى توسط الرأس ، ويؤكد ذلك الجماجم التى عثر عليها فى فلسطين التى تعود الى عهد سليمان .

فاذا قارنا يهود اليوم بيهود الامس لوجدنا اختلافا كبـــيرا . هذه الصفات الجسمية التى ذكرهـــا جمال حمدان فى كتـــابه انما تدل على انعدام أى وحدة بين يهود العالم ، بل تدل على اختلاط الجنس حتى أصبح اليهود (كالموزايكو) فالوحدة الجنسية المزعومة لهم هى محض خرافة ولم تعد هذه القضية موضع جدل مستندا الى بعض الكتاب الاوروبين من أن « اليهود لا يمكن أن يصنفوا كـــافة ولا حتى كوحدة انثروبولوجية ، بل كمجموعة اجتماعية دينية تتفاوت تفـــاوتا عظيما فى الصفات الجسمية » .

ومن أخطر الموضوعات التى تعرض اليهـــا جمـــال حمدان فى مؤلفته الشهيرة « شخصية مصر » موضوع الصلة بين الاسلام والسياسة الدوليـــة الخارجية ، فقد تناوله من أكثر من زاوية ، فهو كعالم متخصص فى الجغرافيا السياسية أوضح مواقف الغرب الاستعمارى ودوره فى التشكيل الجغرافى للدول الاسلامية أو ذات الاقليات الاسلامية ..

أما فى الفصل الاخير من كتاب جمال حمدان « العالم الاسلامى السياسى » أكد على أن التاريخ حافل بالحركات والمناورات السياسية التى تقنعت بالدين ، وتخفت تحت رايته وبنوده .

ان مصر المعاصرة لن تتغير جذريا ولن تتطور الى دولة عصرية وشعب حر الا حين تدفن الفرعونية السياسية مع آخر بقايا الحضارة الفرعونية « الميتة » هكذا

تحدث جمال حمدان بفكر واضح صريح وبشجاعة علمية معهودة فيـه ان يموت بطريقة مأساوية ومحزنة .

سيبقى زمان جمال حمدان ما بقى مصرى يحب مصر ، ما بقى كتـابه الخالد « شخصية مصر » قادرا على تعليم الابناء ليعرفون كيف يصقلون مصريتهم ، وكيف ينقون عنها الصدأ ، وكيف يحبون وطنهم .. أكثر وأكثر .. وأكثر .

هذا ما أراده جمال حمدان وما رأينـاه فى كـل أعماله الخالدة وفى رسالته الكريمة الى الأمة المصرية وشعبها .

جزاه الله خيرا وأفادنا من علمه نفعا لنا وللاجيال القادمة .

أ. د. جمال عبد الكريم

مؤرخ الجغرافيين وجغرافى المؤرخين :

تاريخ مصر الحضارى فى ضوء رؤية جمال حمدان

يقول جمال حمدان : « ان مصر تستمد وحدتها الطبيعية من الخارج ــ من الموقع ــ ومن الداخل من الموضع ، فهى من الخارج واحة صحراوية أو بالأحرى شبه واحة ، أو هى جزيرة ــ فى الحقيقة شبه جزيرة فى محيط الصحراء ، حيث تبدو كالكاس الطويلة ، أو الزهرة ، ساقها الصعيد وزهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم . وآخرون يقولون هى كالنخلة ، صعيد باسق ، والدلتا كالمظلة المفتوحة ، بينما الفويم عرجونها (١) .

والواقع أن أى رقعة من مصر لا تبتعد عن النيل أو فروعه أكثر من كيلومترات قليلة ، بل فى الجنوب يتحول الصعيد برمته الى شارع هائل يطل على النيل مباشرة، ويتحول النهر الى طريق متحرك ، ولعله ليس من مجرد الصدفة البحتة أن الرومان الذين عرفوا ببنـاء الطرق اينما ذهبوا ، لم يدخلوا شيئـا منه فى مصر فقد ألغى طريق النيل المتحرك حاجتهم الى بناء طريق رومانى فى مصر (٢) .

والحقيقة الكبرى فى كيان مصر أنها بيئة نهرية فيضية لا تعتمد على المطر الطبيعى فى حياتها ، وانما على ماء النهر ، قوامها زراعة الرى ، وهذا يتطلب مجهود بشرى ضخم جماعى لتوصيل الميـاه الى الحقول ، أى لابد من شبكة كثيفة من الترع والرياحات لضبط النهر ، وبذلك لا تكون الطبيعة وحدهـا سيدة الفـلاح ، وانما يصبح الحكم والحاكم وسيطا بين الانسان والبيئة ، وهمزة الوصل بين الفلاح والنهر ، أى أن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة ، وانما من خلال الحاكم أى أن

---

(١) جمـال حمدان : شخصية مصر ــ دراسة فى عبقرية المكان ، كتـاب الهلال ، العدد ١٩٦ ربيع الاول ١٣٨٧ يوليو ١٩٦٧ ، ص ٣٩ ــ ٤٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٢

الماء والفلاح والحكومة ثالوث يشكل أطراف المعادلة . ولهذا فقد كانت الديانة والاساطير فى مصر القديمة تعطى مكانا بارزا لكل من النيل (حابى) والشمس (رع) والفرعون سليل أوزوريس – رمز النيل والزراعة – التى تحول الى الملك – الرب ، بصفته ضابط النهر ، فادوات الانتاج فى العالم الفيضى الراعى هى فى التحليل الأخير : الأرض والماء ، فاذا كان الماء دم الحياة فان الارض جسدها ، واذا كانت الارض خامة الزراعة فالماء وقودها . ولما كان الماء فى يد الفرعون – سواء المصرى أو الرومانى – فقد أصبحت الارض فى يده أيضا . ومن خلال هذه المعادلة تشكل التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة من أوتوقراطية طاغية تعتمد على أعمدة ثلاثة : لاندوقراطية اقطاعية عارمة (ملاك الارض) ، وثيوقراطية اقطاعية متورمة (المعابد ورجال الكهنوت) ، الى جانب بيروقراطية متضخمة ، والكل يقوم على قاعدة عريضة من بروليتارية من الفلاحين المسحوقين . ولذلك فقد كان الفرعون ، ثم من بعده البطليموس – ثم من بعده الأمبراطور الرومانى – أعظم محتكر شهده التاريخ .

ولقد كان الفرعون يملك مصر ، ومصر تملك الفرعون ، فقد ذابت القاعدة البروليتارية فى الفرعون – الرب ، فسارت وراءه كالمسحورة المنومة . ولقد أعطى القرآن الكريم صوة دقيقة للفرعون من الداخل ومن الخارج . ففى قوله تعالى : « ونادى فرعون فى قومه ، قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » (٣) ، ثم يقول تعالى فى نفس السورة : « فاستخلف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين .. » (٤) ، فقد كان الفرعون الذى يمثل النيل والحياة . يرسم لشعبه – من خلال تحكمه فى ماء النيل – حياته ، اذ يقول القرآن الكريم على لسان فرعون : « قال فرعون ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد » (٥) . والفرعون فى القرآن الكريم دءوب على المعرفة والاطلاع من أجل خدمة أمته ، فهو لا يقودهم بقوته ونفوذه فحسب ، بل بالعلم ، اذ يقول القرآن الكريم على لسان فرعون أيضا : « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا اعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا » (٦) . ولهذا كله كان منصب الفرعون حلم كل مغامر فى العالم القديم . فبتدهور قوة فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين تدهورت الامبراطورية المصرية فى الخارج وتفسخ المجتمع من الداخل ، وتكيس فى ذاته وأصبح أشبه بالبخل الذى فقد ملكته ، فانكفأ على ذاته .

---

(٣) سورة الزخرف ٥٠
(٤) الزخرف ٥٤
(٥) سورة غافر ٢٩
(٦) سورة غافر ٣٦ – ٣٧

ولقد حاول كثيرون من الاجانب الذين غزوا أرض مصر من الداخل أو الخارج أن يحلوا محل الفرعون ، فقد حاول شيشنق الليبى أن يكون فرعونا ، كما حاول كل من بغنمى وطهرقة أن يجلسوا على عرش الفرعون ويحلوا محله ، كما غزا سخاريب الأشورى مصر وحاول الجلوس على عرشها، ثم جاء الاسكندر المقدونى مدعيا أنه ابن آمون رع والوريث الشرعى للفراعنة وقاتل حتى اعترف له فرعونا ، ومن بعد الاسكندر عمل البطالمة على أن يكونوا فراعنة ولكن مقدونيين ، وبذلوا كل ما فى طاقتهم لكى يحصلوا على هذا الاعتراف من الكهنة ومن الشعب ، وبالفعل نجحوا فى شراء ذمم كبار الدين بالهبات والعطايا ، الى أنه من المشكوك فيه أنهم حصلوا على مبايعة الشعب . ولقد اسقط اكتافيوس عرش البطالمة ودخل مصر عام ٣٠ ق . م. معلنا نفسه فرعونا على المصريين وامبراطورا على الرومان فى وقت واحد ، غير أنه كان أكثر دراية بتاريخ مصر ، ومعرفة بنقاط الضعف فيها ، فأجرى جراحة اجتماعية للقضاء على أى حركة قومية تنادى بطرد الرومان ، وذلك لأن مصر أصبحت شونة الغلال التى يعتمد عليها الرومان فى طعامهم . وكانت ضربته الاولى بتأميم كافة أراضى مصر ليصبح المالك الوحيد لها بما فى ذلك أراضى واقطاعيات المعابد وكان هدفه القضاء على الطبقة الثيوقراطية الاقطاعية المتورمة ، وفى نفس الوقت حرص على ضرب طبقة اللاندقراطيين الاقطاعية بتفتيت الاقطاعيات الكبرى لخلق طبقة وسطى لا تطمح ولا تطمع فى السيطرة والنفوذ ، وترتبط مصالحها بمصالح الرومان ، غير أن عقلية الرومان التى تتشابه مع عقلية البيرقراطية المصرية الضاربة فى الأعماق ، جعلته يبقى على هذه الطبقة التى شهدت جيوش موظفيها أعظم أيامها ، بل وأصبحت أعمدة الحكم فى مصر تقوم على ادارة رومانية متوارية فى كبرياء ولا تعلن عن نفسها الا من خلال جنود الجيش الرومانى الذين انتشروا فى كل مكان يجمعون الأموال ، ويثرون على حساب الفلاحين المعدمين ، يساعدهم جيوش البيروقراطين ، الذين ظلوا حتى بعد الفتح العربى لمصر ، فعندما هجا أبو الطيب المتنبى أبو المسك كافور الأخشيدى الخصى الاسود والوزير الاول لحكم خلفاء محمد بن طفح الاخشيد (٩٤٦ م - ٩٦٥ م) تأسى على غياب ملوك مصر العظماء ، وفساد الدخلاء والبروقراطين قائلا :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمس وما تغنى العناقيد

فقد كان على حق ، اذ أنه منذ غياب الفراعنة الأقوياء ، باءت كل محاولات الادعياء بالفشل الذريع .

لقد وضع الرومان هندسة اجتماعية جديدة ، لسد الفراغات ومعالجة مناطق الخلل بعد تخلصها من الثيوقراطية الاقطاعية بتأميم أراضى المعابد ، ثم من الاقطاعية التى ضمت أراضيها الى أراضى التاج أو أرض الدولة ، وبذلك تغير مثلث المعادلة الى شكل جديد : الفرعون الاوتوقراطى ، وطبقة الاعيان المتوسطة

بحيث تكون مميزة عن طبقة البروليتاريا الفلاحية وانى أن تناطع الامبراطور فى السلطة أو الملكيــة الزراعية ، وتحالفت هذه الطبقــة مع البيروقراطية فازدادت تضخمــا وانتفاخا ، والكــل يقوم على قاعدة عريضة من بروليتــارية الفلاحين المسحوقين . وظل المجتمع ـ كما كان أيام الفراعنة ـ أقلية تملك ولا تعمل وأغلبية تعمل ولا تملك . وتحولت الدولة الى دولة الضبط والربط ، تحمى مصالحها وتجعل من الفلاحين عبيدا للأرض . وهناك ينطبق المثل الفرنسى القائل :

Plus ca change, Plus c'est la mème chase

وترجمته : كلما تغير الشىء ، كلما بقى الحال على ما هو عليه (٧)

وبالرغم من أن مصر لم تعرف نظام الاقطاع على النمط الذى عرفته أوروبا فى العصور الوسطى الا فى العصر البيــزنطى (٣٢٣ م – ٦٤٢ م) ، الا أن الرومــان وصفوا نظاما اجتماعيا صارما وجامدا تضعف فيه الحركة الاجتماعية كثــيرا خاصة فى الريف والاقاليم . ولعــل السبب فى ذلك هو أن نظــام الملاك الغــائبين absent Lendlordism كان القاعدة العامة لنظــام الملكية فى مصر . اذ لم يكن أغلب ملاك الاراضى يقيمون فى قراهم فى الريف ، انما فضلوا الاقامة فى عواصم الاقاليم بل أن بعضهم كان يقيم فى الاسكندرية عاصمة الحكم حتى الفتح العربى لمصر ، وقد شجعت سياسة الرومان ذلك حتى لا تعطى الفرصة لكى يقيم الملاك فى الريف ليكونوا مراكز قوى أو طغيان محلى قد ينافس الطغيان المركزى، لان سياسة الرومان لم تكن تسمح أن ينافسها أحــد فى سيطرتها على مصر ، لكنهــا فى نفس الوقت كان فى حاجة الى وجود طبقة الاعيان لتتعاون وتتحالف معها ، ولتحكم من خلالها ، غير أن تكليف الحكم الرومانى لهذه الطبقة بجمع الضرائب من الفلاحين سواء زرعت أم لم تزرع وتعويض النقص فى الضرائب المقررة من جيوبهم ، جعل هذه الطبقة تتلاشى تدريجيا بمرور الزمن حتى أصبحت جزءا من البروليتــاريا الساخطة . كما أن تكرار حدوث الأوبئة التى كانت تعصف بالسكان وظاهرة الموت المبكر ساعدت فى تحلل هذه الطبقة ، وفتتت ملكيتها عن طريق الميراث مما خلق عنصرا من المرونــة الاجتماعية والتحرك الطبقى . وكمــا يقول جمــال حمدان : « فكثيرا ما كان النيل الطائش طبيعيا نيلا نبيلا اجتماعيا ، فقــد كانت المجاعات والأوبئة التى ترتبت على جموحه أو جنوحه كثيرا ما يستتبعها اعادة توزيع الثروة القومية ، تحول بعض الفقراء الى أغنياء ، واستمرت هذه الظاهرة حتى العصور الاسلامية ، اذ يؤكد عبد اللطيف البغدادى كيف أن موت الناس بالجملة يترك

---

(٧) جمال حمدان ، المرجع نفسه ص ١٥٣

الثروات والعقارات مهجورة خاوية تبحث عن أى مالك أو شاغر أو واضع يد جديد » (٨) .

وعدا الوباء والمجاعة ، فان شيئا لم يستطع أن يقتلع الفلاح تلك الطينة البشرية الموغلة الجذور فى الطينة البذلية الا فرط الطغيان والظلم اذ يتردد فى الوثائق البردية من مصر الرومانية ظاهرة هروب الفلاح وبلاغات الاهل عن « خرج ولم يعد » . ويقابل ذلك نداءات من الاباطرة والولاة الى الهاربين بالعودة الى قراهم مقابل العفو عنهم واسقاط متأخرات الضرائب المتراكمة عليهم . ومن ثم تؤكد هذه الوثائق قول جمال حمدان فى أن ظاهرة الهروب anachoresis كانت ظاهرة اجتماعية متكررة فى تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، ولما كانت مصر بلدا صغير المساحة ، صارم الحدود كالزقاق المغلق ، وسهلا متواضعا ليس فيه معاقل للالتجاء أو دروب للهروب مما تعرفه البيئات الجبلية أو الصحراوية ، فلم يكن فى مقدور الفلاح الهارب الساخط أو الثائر المتمرد أن يبتعد كثيرا عن يد السلطة وقبضها الا اذا آثر النفى الذاتى فى أحراش ومستنقعات وسرارى الشمال لينضم الى عصابات قطاع الطرق التى تمادى خطرها كلما زادت الأزمة الاقتصادية ، وعصف الفقر بالفلاح وعض الجوع جسده ، وسرى سوس البيروقراطية فى جهاز الحكم الرومانى المتحجر أو كان الفلاح يندس فى غوغاء المدن يعرض خدماته الجسدية وهى ظاهرة لا تزال قائمة حتى عصرنا هذا فى المدن . وكثيرا من الهاربين كانوا يتسللون عن طريق درب الأربعين الى النوبة ــ نهاية العالم ــ والتى كانت الملاذ الطبيعى للفلاح منذ عصور بطش الفراعنة فقد روى هيرودوت أن جماعة من الهاربين الجنود لجأت الى النوبة ورفضت العودة الى مصر ، فلما أرسل الفرعون ينذرهم بأنه قبض على نسائهم وأولادهم كرهائن حتى يعودوا ، كشفوا عن عوراتهم قائلين اينما ذهبوا ففى استطاعتهم اتخاذ زوجات وانجاب أبناء (٩) . كما أصبحت النوبة والسودان الملاذ الطبيعى للفلاح المصرى عندما تحول الى المسيحية ، وواجه طغيان واضطهاد الوثنية الرومانية ، ومرة ثالثة عندما انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنيسة الروسية فى خلاف مذهبى ، ولقى الفلاح القبطى اضطهادا دينيا لم يكن فى حقيقته سوى صورة متخصصة من قاعدة الطغيان التقليدى ، ولم يكن هناك من ملجأ أمامه بديل للنوبة سوى كهوف الجبال فى صحارى الصعيد النائية أو فى فلاة وادى النطرون الشاسعة حيث لم تزل تقوم الأديرة والصوامع المعزولة كذكرى لهذا التاريخ الأسود الذى وضع الاسلام لـه نهاية حاسمة عام ٦٤٢ م.

---

(٨) حمدان : نفس المرجع ص ٥٥ . برنار : القاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة

(٩) Herodotus, II, 30 XXX

كذلك انظر : سيد أحمد الناصرى : دور مصر التاريخى بين شبه الجزيرة العربية وافريقيا فى عصر ما قبل الاسلام ، دار النهضة العربية ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٩٠ ص ١٠

رافعا شعار « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . وعندما ضرب خليفة المسلمين الثالث عمر بن الخطاب واليه على مصر عمرو بن العاص بدرته وهو يصيح غاضبا « منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! » انما كان ينهى فصلا من الاضطهاد الاجتماعى تحت ستار العقيدة والدين . وجدير بالذكر أن الوثائق البردية من عصور الرومان لا تذكر شيئا بالمرة عن ذكر أى حالات للهجرة للفلاحين المقهورين خارج حدود مصر بعكس الحال فى عصور المماليك وأيام محمد على الكبير ، ويعطى جمال حمدان تفسيرا لهذه الظاهرة ، بأن عزلة الوادى الجغرافية داخل شرنقة شاسعة من أشد الصحراوات جفافا وضراوة جعل من مشروع الهروب بالهجرة شرقا أو غربا مشروعا غير علمى ، ولم يجد الفلاح أمامه من بد الا قبول أمر الأمرين وهو الرضوخ لقوة الطغيان المحلى ، أى أن العزلة الجغرافية حدت من امكانيات الهجرة الخارجية مما مكن للطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح من الناحيتين ، كما أن النمط السكنى فى القرى المصرية التى فرضتها طبيعة البيئة الفيضية فرضا فى المجتمع والتكدس فى أكوام وعناقيد أشبه بمجتمع « تل النمل » ذلك المجتمع الذى يلغى الفردية ، ويفرض التنميط الجمعى والتعايش السلمى وغريزة التطبع مما يساعد على تركيز رقابة وسلطة الحاكم مما يجعل الفلاح يؤثر السلامة فى الخضوع والخنوع ، وحوله الى وحدة ميكانيكية مسحوقة مما له مغزاه من أن نصوص الاخلاق والحكم والمواعظ فى الأدب المصرى سواء فى عصور الفراعنة أو البطالمة أو الرومان ، تلح دائما على أن « لسانك حصانك ان صنته صانك » وأن السكوت من ذهب وأن الصمت فضيلة من الفضائل وفرض دينى يجب على الفلاح الفقير أن يلتزم به ، هى كلمة ترجمت بالهدوء ، والسلبية ، السكون ، الخضوع المذلة والانكسار » . ولم تعرف مصر روح المقاومة التى تصل الى مرحلة الحرب الأهلية والتى تنبع من روح الفردية المتميزة المتمركز حول ذات الوطنية التى تولد روح الرفض والتمرد ، والتى يشجع عليها اتساع المساحة وتنوع التضاريس كما هو الحال بالنسبة للفلاح الاسبانى الذى قاوم الرومان فى حرب عصابات وثورات رقيق متتابعة قضى عليها الرومان بشق الأنفس وبعد قرنين تقريبا من وصولهم الى اسبانيا . ولولا عمليات التهجير أو « الترانفسير » التى قام بها الرومان ضد أقاليم اسبانيا ، والتى اقتلعت الفلاح الايبيرى من جذوره فى اقليمه وقريته ما قضى الرومان على روح الوطنية والمقاومة الاسبانية ، وفرضوا سياسة «الروضة» الكاملة لشبه جزيرة أيبيريا حتى أصبحت قطعة من ايطاليا لغة وعنصرا ودينا وثقافة ، حيث أقاموا المدن الرومانية العامرة فى أجزائها المترامية ، أما فى مصر فلم يستطيعوا تطبيق نفس السياسة نظرا لضيق مساحتها ومعرفتهم بطبيعة شعبها ، فعزلوها عزلا كاملا كما تعزل البقرة الحلوب فى مزود مغلق تشرب وتأكل من أرض ومياه النيل ، وضرعها يحلب فى روما . غير ان اسبانيا ــ مثل مصر ــ كلتاها كانتا تستغلان لخير ورفاهية

الشعب الرومانى .ونتيجة لذلك انكفأ الفلاح المصرى على ذاته فى وداعة ، وكان لذلك ثمنه الباهظ من انعدام روح المبادرة ، وزمام المباداة ، فضلا عن فقدانه لروح المغامرة ، كل ذلك حول الفلاح الى جهاز استقبال للأوامر وخضوع (١٠) لادارة الحكام . لكن الغالبية الصامتة التى كانت ساخطة ابتعت سلاحا آخر وهو سلاح المقاومة السلبية فى وجه المجاعات وفى وجه طوفان الضرائب والالزامات وأعمال السخرة . ولقد اندلعت بالفعل بعض أحداث الشعب ، تولت الحاميات الرومانية الموزعة على طول البلاد وعرضها قمعها فى حينها ووادها فى مهدها ففى عام ١٥٢ م. اندلعت حركة تمرد استمرت ما يقرب من عام ولم يكتب عنها المؤرخون الرومان الا القليل . اذ هدد الفلاحون بقطع القمح عن الرومان ودفع الوالى الرومانى لمصر حياته ثمنا لهذه الحركة (١١) . وفى عام ١٧٢ – ١٧٣ م. قام الفلاحون فى الدلتا بثورة الأحراش أو البوقوليا بقيادة كاهن مصرى اسمه ايسيدوروس (عطية انريس) ، قضى عليها الرومان بسلاح الوقيعة بين الثوار المصريين أنفسهم .

ومن أوجه المقاومة السلبية الملاحم الشعبية التى كان يغنيها الفلاحون فى جلساتهم الخاصة والتى تتغنى ببطولات وهمية أو تنتظر عودة المخلص أو البطل الغائب الذى سوف يعود ليقيم العدل وينشر السلم ويطرد المعتدى الدخيل . ومن ثم انتشر بين مجتمع الفلاحين المصريين أدب الرؤيا والتبوءات التى تتنبأ بالكوارث التى سوف تنزل بالطغاة الظالمين حتى تقضى عليهم بعدها يتحرك المصريون من الذل المهانة والاضطهاد عندما يعود الفرعون المخلص الذى سوف يملأ الدنيا عدلا ونورا . ولعل أطول شذرة بردية تمثل هذا النوع من المقاومة هى بنوءة صانع « الفخار » تلميحا الى الرب المصرى خنوم خالق الانسان من الطين وبنوره الفخرانى التى هى نوع من أدب الخلاص الوطنى أو القومى تنبع أصلا من مؤلف قديم يرجع الى العصور الفرعونية لكنه ظل ينسخ ويوزع بعد ترجمه الى الاغريقية التى أصبحت لغة المصريين أنصاف المثقفين فى العصور الرومانية وهذه ترجمة لبعض ما جاء فيها : « أما بالنسبة للكفار فسوف يتسيدهم ملك من الشام وسوف تنزع منهم ثروتهم وتذل عشيرتهم ، وسوف يسود بلادهم الفوضى .. وسوف تعصف أوبئة كثيرة بالاماكن العالية . وسوف تهجر مدينة ذوى الأحزمة الحديدية، وسوف يتحرر الرقيق .. وسوف يفقد أسيادهم حياتهم .. (١٢) » .

---

(١٠) المرجع نفسه ، ص ٥٧ – ٥٨

(١١) Naphtali Lewis: Life in Egypt under Roman Rule, Clarendon Press Oxford (Paperback edition, 1985), p. 205.

(١٢) P. Oxy., no. 2333.

أما فيما عدا ذلك ، فقد ظل الفلاح خانعا خاضعا ، فالنظام والقانون أصبحا ـ كما يقول جمال حمدان ـ جنبا واستطانة ووشاية أو سلبية ، وروح التعاون التى كانت تربط السكان تحولت الى المحسوبية والمحاباة (١٣) . أو انقلبت الى منازعات وجرائم عرضنا لنماذج لها من أوراق البردى فى مؤلفاتنا . ويقول حمدان معلقا على هذا التغير النفسى للفلاح المصرى : « أما المزاج الانطلاقى (Extravert) الذى غذته بيئة القرية المكدسة وروح القطيع وتل النمل ، فقد تدهور الى تزلف ورياء ونفاق واستعداء السلطة ، وأحيانا الى روح السخرية المريرة والتى عبر عنها أبو الطيب المتنبى فى عصر كافور الأخشيدى بالبيت المعروف .

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

هذه الصفات التى لازمت المصريين حتى بعد ذهاب الرومان ومجىء العرب عبر عنها المقريزى بقوله : « ان من ابرز صفات المصريين : الدعة والجبن ، وسرعة الخوف والنميمة والسعى لدى السلطان (١٤) » . ويقول المقريزى فى مكان آخر : « ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه (١٥) » . فهم يفعلون ما يؤمرون ، ومن ثم فقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم « خير أجناد الأرض » ، كما تمنى نابليون بونابرت لو كانت كل جيوشه كالمصريين لملك العالم (١٦) .

ولو طبقنا نظرية ارنولد توينبى فى التحدى والاستجابة Challenge and response فيما يختص بجانب الأوبئة والمجاعات التى كانت تحصد ما بين حين وآخر جموع الفلاحين حصدا ، فقد كانت استجابة الفلاح لهذا التحدى هو كثرة الانجاب ، سواء عن طريق المسجل أو الرسمى أو عن طريق الزواج العرفى التعاقدى الفردى ، وللتغلب على صعوبة الالتزامات المالية وتكاليف الزواج مارس الفلاحون زواج الاشقاء بالشقيقات كعادة مصرية متوارثة من أيام الفراعنة ، وقد عادت بشدة فى العصر الرومانى بسبب الظروف التى أملتها الحالة الاقتصادية والمالية ، وضيق ذات اليد ، والحرص على بقاء المساحات المحدودة من الارض داخل الاسرة الكبيرة التى عاش فيها الأجداد والاحفاد والعمات والخالات كالنمل فى بيوت ضيقة ، حتى أننا نستغرب ونحن ننقب ونكشف عن هذه البيوت كيف أمكن لهذا العدد الكبير من البشر العيش فى مثل هذه البيوت الضيقة . ونتفق آراء جمال

---

(١٣) حمدان ، ص ٥٨

(١٤) انظر : سيد أحمد على الناصرى : الناس والحياة فى مصر زمن الرومان ٣٠ ق. م. ٦٤٢ م مطبعة جامعة القاهرة ١٩٩٥ (جمعية) .

(١٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، الجزء الاول ، القاهرة ص ٧١ – ٨١

(١٦) جمال حمدان : ص ٥٩

حمدان مع ما جاء فى الوثائق البردية حول كثرة الأنجاب والعناية بالاطفال ، حتى أن المستوطنين الاغريق الذين كـانوا يتخلصون من الاطفال بالقـائهم فى العراء هجروا هذه العادة فى مصر وقلدوا المصريين فى كثرة العيال . وفى الواقع ــ كما يقول حمدان ــ «ان شيئان لم يبرز خصوبة التربة سوى خصوبة المرأة» ولم يكن ذلك فقط فى عصر الرومان بل استمر حتى العصور الوسطى الاسلامية اذ يكتب المقريزى فى القرن الرابع عشر قائـلا « ورجالهم يتخذون نساء عديـدة ، وكذلك نساؤهم يتخذون عدة رجال . وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ، ونساؤهم سريعات الحمـل (١٧) » . ويعلق حمدان على ذلك بقولـه : « الافراط البيولوجى أدى الى شدة انخفاض قيمة الفلاح أمام السلطة وزاد من حدة طغيانها واستبدادها » . وبالرغم من ذلك فقد كان الحكام يرحبون بهذا الافراط البيولوجى والديموغرافى لأنه يزيـد من قبضتهم وتسلطهم ، ويستشهد جمال حمدان بقول اميل لودفيج : « هذه الكثافة التى حتى منذ آلاف السنين كانت تتناسب مع مجموع السكان ، كان لا يمكن الا أن تخلق قوما اما اجتماعيين للغاية أو غير أجتماعيين على الاطلاق ، وقد قرر النيل الاحتمال الاول » (١٨) .

يركز جمال حمدان على أهمية النيل فى مولد الحضارة فى مصر ، فينقل عن سلفه عـالم الجغرافيا الأغريقى استرابون Strabon قوله « لـو أنك ناقشت القضاء والقدر ، فسوف تجد أمثلة كثـيرة فى شئون البشر والطبيعة ، أشياء كثيرة قـد تفترض أنها قد يمكن أن تؤدى اداء أفضل بهذه الطريقة أو تلك ، مثلا لو أن مصر تكون لها كفـايتها الذاتية من المطر دون أن تروى من أرض اثيوبيا (١٩) » . فقد كانت حياة مصر تعتمد على تلك الامطار الغزيرة التى تسقط على هضبة اثيوبيا ، فيندفع منها النيل الابيض المحمل بالغرين ، ثم يلتقى بالنيل الازرق القادم فى تؤدة من بحيرة فكتوريا عند موضع يسميه السودانيون الآن بالمقرن جنوب الخرطوم ، ثم يسيران معا فى رحلة قدرها ألف كيلومتر تقريبـا لكى يصل النيـل الى أرض الكنانة ، فيروى أرضها ويبعث الحياة فيها . ان زراعة الرى هى التى فجرت فيها التـاريخ والحضارة دون سواها لأول مرة ، وهى التى وحدتها مبكرا ومنحتهـا النظام والقوة التى أوجدت بهمـا أول امبراطورية فى التاريخ ، وذلك لآن البيئـة الفيضية هى التى حتمت قيام حكم قوى وفعال ، وتنظيم سياسى مركزى مؤثر ، فالماء عصب الحياة ، وأهم أدوات الزراعة والانتـاج . ولهذا كان لابد للدولة أن

---

(١٧) المقريزى : الخطط ، الجزء الاول ص ٧٧ ، قارن جمال حمدان ص ٥٩

(١٨) Emil Ludwig: The Nile-Life History of a River, London, 1936, vol. II, p. 21. (جمال حمدان ، ص ٦٠)

(١٩) Strabo, IV, 12 حمدان ، ص ٦٣

تملكه باسم الناس ، وتقوم بتوزيعه عليهم حسب حاجة كل منهم وحسب مساحة ما يملك من أرض ، ويذكر على لسان الفرعون قوله : اعطنى أرضك وجهدك أعطيك مياهى ، ويقول حمدان « من يستولى على المـــاء يستولى على السلطة » . كذلك فان النيل كان فى حاجة الى مواجهة أخطار ثورته وذبذباته الجامحة (٢٠) ، فعندما يأتى الفيضان كـــانت مصر تحول الى بحيرة موسميـــة كبرى تنقطهـــا القرى وحلات الأكرام (٢١) . كذلك كانت مهمة السلطة توزيـــع مياهه ، ولا تزال مصر البلـــد الوحيد فى العالم الذى به وزارة حتى الآن تسمى وزارة الرى . كما أن التصدى لجموح النيل وروته باقامة الجسور والسدود أوجدت فى مصر – دون سواها – نظـــام الخدمة المدنيـــة الالزامية والتى سمـــاها الرومان أيضـــا حراسة النهر Potamophylaxia والتى تحولت على يـــد الرومان ثـــم العثمانيين الى سخرة تجلت فى أكمل معانيها فى عصر محمد على الكبير أو الفرعون الحديث لمصر الحديثة وآخر هذه السخرة حفر قناة السويس فى عصر حفيده اسماعيل . فمصر مزرعة كبرى ، مراقبة الماء وتوزيعه فيها أمر حيوى ، وتحديد مساحات الزراعة يحتاج الى ادارة وتخطيط مركزى ، ولذلك لم ينتشر فى مصر زمن الرومان نظام الاقطاعيات الكبرى كما كان الحال فى شمال افريقيا واسبانيا ، لأن مصر فى مجملها كانت فى نظرهم اقطاعية واحدة يملكها الفرعون الرومانى ، ويجزيها الى ابعاديات روسيا ousiciae

ولقد أملى الوضع الجغرافى الصارم على مصر نظام المركزية المطلقة ، وخضع الجميع طواعية لسلطة مركزية مطلقة أدت الى ظهور الوحدة السياسية المبكرة فى مصر قبل غيرها من دول العالم القديم ، صحيح أن النيل قد علم المصريين أساس الحضارة ، الا أنـــه جعل دور الحكومة طاغيـــا ، وأرسى قواعد البيروقراطية المركزية وجعلهـــا عنصرا أصيلا فى مركب الحضارة المصرية ، بل ثقـــلا عنيدا فى موكبها (٢٢) . فأوجد روح التكاسل والتواكل والسلبية ، وخنق ملكات المبادأة ؛ والبيروقراطية العاتية فى مصر قديمة قدم الحضارة ذاتها . ويكفى أن نرى رسوما على جدران المقابر لفلاحين يذريان القمح بينما جلس عدة كتبة ينتظرون محاسبة الرجلين .كما أننا نشاهد أيضا صور كبار الموظفين على النقوش والآثار القديمة ، وأن نعرف أخبارهم المتواترة فى البرديات والسجلات العديدة ، حتى ندرك خطورة الدور الذى لعبتـــه الهيئة البيروقراطية ، ففى فن النحت نجده ممثلا فى تمـــاثيل

---

(٢٠) حمدان ، ص ٦٣ – ٦٤
(٢١) حمدان ، ص ٢٢٢
(٢٢) نفس المرجع ، ص ٧٧

الكاتب الجالس القرفصاء منذ الأسرة الخامسة ، وكذلك تمثال « كعبر » الذى عثر عليه مارييت باشا فى سقارة وأطلق عليه العمال اسم شيخ البلد ، لأنه يتوكز على عصاه ، التى بالطبع لا يهشى بها على غنمه انما له فيها مآرب أخرى ، الى كاتب القرية الشهير فى عصور البطالمة والرومان Komogrammateus كلها — كما يرى حمدان — نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية وتاريخها الثقيل فى مصر (٢٣) ، ولقد دعم النظام الرومانى الصارم — كما سبق أن ذكرنا — هذه البيروقراطية التى انتشرت فى البلاد كالسوس تنخر فى عظامها حتى انهار السقف على من فيه ، وأدى الى سقوط حكم الرومان ذاته .

غير أن هذا الجهاز الادارى الذى تبلور مع ظهور الدولة المتحدة فى مصر حوالى عام ٣٢٠٠ ق. م. أصبح هو عصب الحياة فيها عليه يقوم رخاء مصر وازدهار اقتصادها واستقرار العمران فيها ، اما اذا ما فسد هذا الجهاز أو عطب فان الاختناقات الاقتصادية تظهر وقد تصل الى حد المجاعات . كما أن عودة الرخاء والنظام كانت مرتبطة بالاصلاح الجذرى فيه . فوظيفة الدولة فى المجتمع المائى ومجتمع زراعة الرى أضخم بكثير من وظيفة دولة المطر العادية . ويتجه لذلك تبلورت مع مرور الزمن نواة صلبة من التكنوقراطية (٢٤) ، تتمثل فى حلقات كثيرة من البيروقراطية ، بدءا بالجهاز المالى الذى يحاسب الفلاحين على ثمن الماء وتمتد الى الجهاز البوليسى الضرورى لضبط الأمن ومراقبة حقوق توزيع الماء ، وتنتهى أخيرا الى جهاز ادارى آخر لخدمة تلك الأجهزة وهو جهاز الضبط والربط ، ابتداء من المساح الذى يمسح الارض بعد انحسار الفيضان ، الى القياس الذى يقيس المساحات المزروعة بالقصبة والقيراط ، الى العمدة وكاتب القرية (الصراف فى العصر الحديث) والمحصلة جيش حقيقى من الموظفين يمثل القوة الساحقة ، يقابله البروليتاريا المنسحقة التى كان نصيبها الكبت والاستبداد مما جعل للاقبال على التعلم والتعليم بهدف الالتحاق بوظيفة فى الدولة بريقا وقداسة تجعله جنة التصعيد الاجتماعى ويدعم رأى حمدان عشرات من وثائق البردى التى كتبها تلاميذ تركوا اسرهم وتوجهوا للتعلم فى العاصمة الاسكندرية يطلبون من أهليهم فى الريف وعواصم الاقاليم المد المادى والعون ، أو خطابات من أولياء الأمور الى أبنائهم الذين يتعلمون بعيدا عنهم تحمل اللهفة والقلق لمعرفة مدى تقدمهم أو أحلام التلاميذ فى الانتهاء من الدراسة والحصول على وظيفة . وبذلك خلق الجهاز البيروقراطى طبقة وسطى من بورجوازية سكان المدن التى تمثل شريحة أساسية ومتشعبة فى المجتمع المتغير .

---

(٢٣) حمدان ، ص ٧٨
(٢٤) حمدان ، ص ٧٩

ومن ثم فان الحديث عن سكان عواصم الاقاليم أو العاصمة الموحدة المركزية ضرورى لتشريح المجتمع المصرى فى عصور الرومان وهو أمر يؤكـد عليه جمال حمدان ، وسواء كانت العاصمة فى منف أو طينة أو طيبة أو تانيس (صان الحجر) أو سائيس (صا الحجر) أو الاسكندرية ، ثم فى وقت لاحق الفسطاط والقاهرة ، فقد كانت العاصمة دائما تسود الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية . ولن نبالغ لو أننا قلنا أن تاريخ مصر فى عصر الرومان ليس سوى تاريخ الاسكندرية يكاد يبين فى ذلك العصر ، صحيح أن بعض مدن الاقاليم كالفيوم والبهنسا واشمونين قد لعبت دورا محدود لكنها لعبته بصفتها مناطق انتـاج زراعى أو صنـاعى أو بحرى ، أما الاقاليم النائية المتوارية فى خجل فلم يكن لها فى الحقيقة تاريخ يذكر فهناك احساس طاغ بايجابية العاصمة ، وسلبية الاقاليم ، بـل كانت العاصمة الاسكندرية هى النموذج الأمثل والاكمل الذى تحتذى به عواصم الاقاليم وتسير على غراره ، ولذلك كان سقوط الاسكندرية فى أيد الرومان يعنى سقوط مصر كلها فى أيديهم ، ومعنى ذلك أن بقية عواصم الاقاليم metropoleis على امتدادها كانت أعجز وأفقر من أن تنظم كوحدات مستقلة فعالة للدفاع عن الوطن فى حالة سقوط العاصمة الا فى حالة واحدة شاذة وهو قيـام طيبة فى الجنوب بمقـاومة الهكوس . وبالتالى تضخم سكان العاصمة كمنطقة هجرة لكثير من الفلاحين وأهل الريف الباحثين عن جنة العاصمة ، ففى وقت ما أيام الرومان تعدت الاسكندرية المليون من مجموع السكـان الذى لا يتجـاوز عشرة ملايين نسمـة ، وامتلأت بالعاطلين لدرجة جعلت الامبراطور كاراكالا يصدر فرمانه الشهير بطرد الريفيين من الاسكندرية واعادتهم الى قراهم (٢٥) .

كان هرم الطبقات الاجتماعية الذى أوجده الرومان يقوم أساسا على الفصل بين طبقة أغنيـاء العاصمة وأعيان مدن الاقـاليم من ناحية وبين البروليتـاريا العريضة الفقيرة من سكـان الريف . ان ضخامة وعظمة العـاصمة المركزية فى الاسكندرية من ناحية . بالاضافة الى وجود عواصم للاقاليم أقـل منها وتدور فى فلكها وتقلدها من ناحية ، وفقر وتحجر الريف الذى حرم حتى من الحد الأدنى من الخدمات وصفه حمدان بأنه « رأس كاسح وجسم كسيح » (٢٦) . فالريف يكـد ويكدح ليستمتع أهل المدينة من ملاك الاراضى الغائبين absent Landlordism بالرغم من أن المدينة لـم تقم أصلا الا لخدمـة الريف ، ولذلك اعتـبر الرومان الاسكندرية شىء ، والوادى شىء آخر ، فوصفت بأنها متاخمة لمصر وليست مصرية

---

(٢٥) J. G. Winter: Life and Letters in the Paqyri, University of Michigan Press, An Arbor, 1933, p. 21.

(٢٦) حمدان ، ص ٨٦

Ad Aegypium ويعلق حمدان على مثل هذه الخاصية بقوله « حتى قيل أن هناك مصرين : مصر العاصمة اقطاعية لاندوقراطية (رأسمالية) وبيروقراطية مستغلة، ومصر الريف (chora) بروليتاريا زراعية مأزومة ومستغلة : ألاولى فقاعة حضارية براقة ، والثانية قوقعة حضارية راكدة (٢٧) » .

يعتقد حمدان أن ظهور مقدونيا على مسرح السيادة فى العالم منذ الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد يعد انقلابا حاسما لصالح قوة البحر ، فبفتوحات الاسكندر المقدونى للشرق الأدنى انكسرت قوة البر التى كانت تمثلها فارس والتى بدورها كانت قد اكتسحت على يد ملكها فورش فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كلا من بابل وليديا ثم الشام قاصدة مصر التى لم تنلها الا على يد قمبيز عام ٥٢٥ ق . م. ومن مصر الى ليبيا ، وكانت هذه أول مرة فى التاريخ تسيطر فيها فارس على مصر لمدة تزيد على قرنين ، بينما لم تسيطر مصر على فارس من قبل أو من بعد ، بالرغم من أن فارس – وخصمها اليونان – رضعتا الحضارة من ثديين ثدى عراقى وثدى مصرى . ودامت السيطرة المقدونية الاغريقية على بلاد الرافدين ممثلة فى دولة السليوقيين والتى اسقطها الرومان عام ٦٤ ق. م. لتدمج فى جسد الامبراطورية الرومانية حتى استعادتها فارس مرة أخرى فى القرن الثالث الميلادى، ويصف حمدان فترة الألف عام الممتدة من موت الاسكندر وقيام حكم البطالمة وحتى دخول العرب مصر فى القرن السابع « بالاستعمار البحرى الألفى » الذى أبرز أهمية موقع مصر الا أن رجحت كفة البر على البحر فى الميزان بعد مجىء العرب . وبمجيئهم هاجرت نواة السلطة السياسية من موطنها الأصلى وتنقلت بحرية بين أقاليم الدولة العربية الاسلامية المختلفة مؤلفة فيما بينها شركة مساهمة أو كومونولث خضعت فيها الأقطار الاسلامية لبعضها البعض بالتناوب وبلا عقد أو صراعات (٢٨) .

ثم يتطرق جمال حمدان فى العلاقة بين موقع مصر من ناحية ، وموضعها من ناحية أخرى ، ويوجز شرحه بالخروج برؤية وهو أنه بينما كان موقع مصر يزداد أهمية وقيمة على مر العصور ، كانت قوة موضعها تتقلص وتتضاءل نسبيا فى العالم ، وان ظلت تزداد وتتضخم فى ذاتها » ، لكنه يعود فيستدرك مؤكداً أن هذين الاتجاهين (يقصد أهمية الموقع وقوة الموضع) لم يكونا بالضرورة مصطردين ولا خلصا من انتكاسات لكنهما يصدقان جيدا على المدى التاريخى الطويل وفى النتيجة فان مصر فى الوقت الذى كان موقعها يزداد خطورة وبالتالى

---

(٢٧) حمدان ، ص ٨٨
(٢٨) حمدان ، ص ١٠٧ – ١٠٨

اخطارا فقد كانت فى حجمها الداخلى وطاقتهـا الذاتية تزداد انكماشا وبالتـالى ضعفا فى عالم متمدد متضخم بأطراد (٢٩) .

وبالنسبة لوزن مصر السكـانى فى الامبراطورية الرومـانية يتحدث حمدان مقارنا عدد سكانها بمجمل تعداد هذه الامبراطورية . فهو يرى أن البعض يقدرون عدد سكان الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى الميلادى بأنه كان يقارب المئتى مليون نسمة فى حين لم تكن طاقـة التشبع السكانى فى مصر تقل عن أثنـا عشرة مليون نسمة . لكن تقديرات سكان مصر طبقا لعلماء التاريخ الديموجرافى فى تلك الفترة قدروها بحوالى عشرة ملايين نسمـة (٣٠) . أى أن سكـان مصر كانوا يمثلون ١ / ٢٠ من وزن العالم المسكون على الاقل ، لكن النسبة هوت بعد ذلك الى ١ / ٥٠ ثم الى ١ / ١٠٠ (٣١) ، وفى ذلك دلالة واضحة ، وقصة مألوفة . أن مصر نمت فعلا فى ذاتها حجما وقوة ، ولكن العالم من حولها نما أيضا وتضخم بسرعة وبمعدل أسرع وأعظم . ويلمح حمدان أن زيادة عدد سكان مصر يثير قلق أعدائها. ان مصر اليوم أقوى وأضخم مما كانت عليه أيام الرومان حوالى سبع مرات ، لكنها كانت فى الماضى قوة سكانية كبرى رغم وقوعها فى الأسر الرومانى ، وهذا أعطاها موضعا يناسب موقعها . الذى « هو بمثـابة القلب من الجسم أو العاصمة من الدولة ، انها حجر الزاوية وأرض الكنـانة ومجمع القـارات ، ومغرق البحار ، وملتقى الشرق بالغرب (٣٢) » . غير أن جغرافيتها المميزة جعلتها عالما كامـلا متكاملا قائما بذاته ، يحافظ على ذاته ، مما جعل البعض يضغط على عزلتها كملمح أساسى فى شخصيتها وتاريخها ، ويصف حمدان هذه العزلة بأنها عزلة حماية أو دفاع عن الوجود وليست عزلة رهبنة مما جعلها تحتفظ بكيان وشخصية متميزة وقوية ، فقد عزل الرومان مصر عن باقى ولاياتهم حتى أن وصفها الفريد بالنسبة للأمبراطورية الرومانية أثـار جدلا ساخنا بين المؤرخين هل هى ولاية بالفعل أم ضيعة خاصة للامبراطور الرومانى ؟ كما أن الرومان عزفوا عن «رومنتها» مثلما فعلوا بباقى الولايات ، فكـل ما كان يعنيهم هو اللبن الـذى كانوا يحلبونه من ضرعها ، ومن ثم جاء الرومان وذهبوا وبقيت مصر هى مصر . وقد ساعدها على ذلك أنها بحكم موضعها واحة صحراوية مما أعطاها لونا من العزلة الجغرافية فشرنقة الصحراء تغلفها لمئات الأميال شرقا وغربا وجنوبا . لكن فى نفس الوقت لم تكن معزولة تماما عما حولها ، فكثبان سيناء الساحلية شرقا ربطتها بالخارج

---

(٢٩) حمدان ، ص ١٢١ – ١٢٢

(٣٠) T. Walek Czernecki: Population de l'Egypte Ancienne, Congres International de Population, Paris, 1937, vol. II, p. 5.

(٣١) حمدان ، ص ١٢٢

(٣٢) نفس المرجع ، ص ١٢٧

العربى » بينما مرمريكا مربوط غربا (مراقبة عند العرب) ونيل النوبة جنوبا ، ومستنقعات الشمال والبرارى شمالا جعلت منها شبه جزيرة فى الصحراء . وكان من الطبيعى أن تنمى هذه العزلة الجغرافية الطبيعية الشعور بالذات عند المصريين .

لقد كان طبيعيا فى تلك المرحلة من التاريخ حيث كانت وسائل المواصلات والاتصالات بين مصر والعالم الخارجى لا تزال بدائية ، فالأنباء بين روما والاسكندرية كانت تستغرق أحيانا بضعة شهور ، ففى عصر تساقط الاباطرة من العرش تظل مصر لا تدرى من مات ومن تولى الا بعد شهور ، هذه العزلة الجغرافية والشعور بالذات ركز عليه جمال حمدان فى رسمه لشخصية مصر ، فذكر أن اسم خيمى Khemi يعنى معا أرض مصر السوداء (٣٣) وعالم الكواكب والارض ، فقد كانت مصر معبد العالم وقدس اقداسه(٣٤) ، بل كان المصريون يعتبرون أنفسهم السادة والآخرون أغيار أجانب . ويؤكد حمدان أن هذه العزلة والشعور بالتفرد والانفصال فى مصر القديمة لم تتحول قط الى عنصرية أو كراهية للأجانب ، بل كان مجرد دخول الاجانب واستقرارهم بين المصرين وتشربهم بحضارتهم وطباعهم يحولهم الى مصريين ويفسر د. جمال حمدان هذه الظاهرة — ظاهرة التسامح مع الأجانب بقوله « ان الوعى بالذات فى مصر (القديمة) كان اقليميا أكثر منه عنصريا ، وجغرافيا قبل أن يكون عرقيا ، لكنها لم تنعزل أبدا عن تيارات التاريخ وحركة الحضارة ، فقد كانت منبعا للحضارات ومصبا لها فى آن واحد ، دائمة الأخذ والعطاء ، وفى ذلك يكمن سر حيويتها وشبابها المتجدد» (٣٥) .

ولقد أسهب جمال حمدان وكأنه يعزف كلماته على الاوتار — فى سرد قصة مولد الزراعة ودور النيل الرائد الخلاق ، فيذكر أن حضارة مصر الزراعية الراقية ولدت مع بداية عصر الأسرات حوالى ٣٢٠٠ ق. م. ويقول أن الجرثومة الأولى فى هذا التاريخ ظهرت قبل ذلك فى نهايات العصر الحجرى القديم ، حين لحق المناخ تغير جوهرى غير معه البيئة الطبيعية ، فقد كانت صحارى مصر الجافة الآن تعيش آنذاك عصرا مطيرا ، وكانت مغطاة بالسافانا التى تعيش فيها الحيوانات . ولهذا عاش المصرى صيادا . ومنذ ٧٠٠٠ سنة ق. م. بدأ عصر الجفاف يسود بالتدريج حتى حل الجفاف محل المطر ، فانسحب الانسان والحيوان ليتجمعا فى أودية . وكان النيل وروافده أهم تلك الأودية . ومع اجتماع الانسان والحيوان الذى ثم

---

(٣٣) جمال حمدان ، ص ١٣٠

(٣٤) سيد أحمد على الناصرى (مقال) : مصر وعالم البحر المتوسط ، اعداد وتقديم د. رءوف عباس ، دار الفكر لدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٦ — ١٧

(٣٥) حمدان ، ص ١٣٠

استئناس بعضها ـ والماء والارض الفيضية ولدت الثورة الزراعية والتى معها بدأت ملامح العصر الحديث (٣٦) ثم تفجرت الحضارة الفرعونية مع مولد عصر الاسرات بمركبها المعروف لضبط النهر بعد صرفه ، وعرفت مصر زراعة الحبوب والألياف ، والاستقرار فى القرى والمدن ، كما عرفت التجارة والنقل وصناعات النسيج حيث ابتكرت مصر المغزل والفأس والمحراث ، وعرفت جدل السلال والحبال من ليف وسعف النخيل ، كما ابتكرت عجلة الفخرانى . ألم تصور الميثولوجيا المصرية الرب خنوم وهو يصنع الفخار ومعها يصنع الانسان من طين لازب ؟ .
ورويدا رويدا تطورت فنون الـرى والعمارة والهندسة والتخزين والمـلاحة ، ووضعت للبشرية أول تقويم لضبط مواعيد الفيضان ، فقسمت العـام الى ثلاثـة فصول زراعية هى فصل الفيضان والأنبات والحصاد ، أى أن كل فصل زراعى شمل أربعة شهور وقسمت الشهر الى ثلاثة عشور ، أى ثلاثين يومـا ، ومن ثم أصبح العام الزراعى ٣٦٠ يوما ثم أضيفت خمس أيام كأعياد للآلهة فى نهاية مسرى وهى أعياد أوزوريس وايزيس وست ونفتيس وحورس أى أن العام ٣٦٥ يوما ، غير أن مشكلة ¼ اليوم بقيت قائمة تحدث فرقـا بين التقويم الزراعى والتقويم الحسابى ، حتى وضع علماء الاسكندرية وجغرافيوها لذلك حلا فى عصر بطليموس الثالث ٢٤٦ – ٢٢١ ق . م. باضافة يوم للسنة كل أربعة سنوات فانضبط التقويم.
وأصبح أدق تقويم فى العالم الذى كان أغلب حضاراته تعتمد على التقويم القمرى ، وقد تعلم الرومان من المصريين فغيروا تقويمهم فى عصر يوليوس قيصر من تقويم قمرى الى التقويم المصرى ، وتطور التقويم الرومانى فى العصور الوسطى على يد البـابا جريجوريوس بابـا الفاتيكان وأصبح منـذ ذلك الحين يعرف بالتقويم الجريجورى الذى نطلق عليـه اسم التقويم الأفرنكى ، وحتى يومنـا هذا لا يزال الفلاحون فى الريف يتعاملون فى الزراعة وتعشير مـاشيتهم وتطليع نخيلهم مـع شهور السنة المصرية فى شكلها القبطى . ومن حزم البوص والبردى عرف الانسان فكره العمود الحجرى أصل العمارة فى العـالم ، وظلت العمـارة المصرية تصور الأعمدة فى شكل حزم البردى حتى زوال الحضارة المصرية . ومع مولـد العمارة عرفوا الفلك والحساب والطب وعلم الكيميـاء الذى اشتق اسمه من اسم مصر خيمى Khemi ، وحافظ العرب على اسم مصر وأورثـوا هذه التسمية للاوربيين عندما وضعوا قواعد علم الكيمياء . وقد تـم هذا التطور الضخم فى تلك المرحلة ـ كما يقول جمال حمدان ـ بحماية الغلاف الصحراوى المحيط بالوادى فمصر هى أصل الزراعة والحضارة فى آن واحد ، خاصة مصر العليا ولهذا أطلقت عليها

---

(٣٦) V. G. Childe: Man Makes Himself-What Happened in History (Pelican edition), 1948 (passim) = جمال حمدان

اسم حضارة الجنس الأسمر ، كما أطلق عليها اسم حضارة الشمس والحجر Heliolithe ويؤكد جمال حمدان أن الحضارة المصرية هى من خلق البيئة النيلية أكثر من صنع الجنس الأسمر . فتفرد النيل دون كل أنهار العالم القديم بنظام فيضى معين ، هو الذى جعل مصر رائدة للمدينة ، فالنيل يقدم كل عام درسا عمليا فى أولويات الزراعة ، ومن ثم فهو أستاذ الفلاح ، والفلاح تلميذ مقلد للطبيعة وخير تلميذ هو ذلك المصرى العبقرى الذى لاحظ الفيضان وابتكر فكرة ضبط النهر فأصبح فرعونا والاها . فالنيل اذن هو الذى علم المصريين الزراعة والرى وتقاطرت بعد ذلك كل انجازات الحضارة ، ومنها انتشرت الى كل ركن من أركان الشرق القديم (٣٧) . بل يرى علماء النبات أن مصر هى الموطن الأصلى للشعير الذى نموه فيها بريا ، ويؤكد أن مصر من البلاد الرائدة السباقة الى تأصيل الثورة الزراعية واقامة أسس الحضارة فى العصور القديمة ، التى فاجأت بها العالم مكتملة أو شبه مكتملة مع بداية عصر الاسرات فالسبق الحضارى اذن سمة أصيلة من سمات شخصية مصر التاريخية (٣٨) .

لقد كان هيرودوت جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا عندما قال مصر هبة النيل وكان شفيق غربال مؤرخا قبل أن يكون جغرافيا عندما قال ان مصر هبة المصريين، وكان جمال حمدان منصفا للخصمين عندما قال ان مصر جغرافيا هبة النيل وسكانيا هبة المصرين . فهو يدافع عن هيرودوت ويكاد يصحح عبارته عندما قال ان مصر هبة النيل الأزرق لأن ٦٦٪ من مياه مصر تستمد فى المتوسط من هذا الرافد وحده . والحقيقة الاولى فى الوجود المصرى هى أن مصر هى النيل والنيل هو مصر، فبدونه لا كيان لها ليس فقط من حيث مائه ، وانما أيضا من حيث تربته ، فالغرين الخصب المتجدد هو هدية غير مقصودة من رعاة الحبشة حيث يساعدون برعيهم على تعرية التربة . ان النيل لا جدال هو « أبو مصر » منه استمدت جسمها ودمها ، أو طميها وماءها ، لقد صدر المنبع الحياة الى المصب وصدر المصب الحضارة الى المنبع ، هذا صدر خاما ، وذاك اعاده مصنوعا (٣٩) . والتربة المصرية تربة متجددة على مر السنين ، وكل السنين .

غير أن النيل النبيل فى عطائه شرس فى ثورته ، فمنذ وقت مبكر وأخطار الفيضان الجامح أو الضعيف المتخاذل ، تظهر فى سجلات مصر الفرعونية ، ومعها قصص المجاعات . وحتى أوائل الفتح العربى لمصر كان منسوب ستة عشر دراعا لارتفاع الفيضان عند المقياس هو الحد بين الكفاية والحاجة حتى سميت ملائكة الموت ،

---

(٣٧) حمدان ، ص ١٣٤ – ١٣٥
(٣٨) حمدان ، ص ١٣٧
(٣٩) حمدان ، ص ١٥٨

فاذا ما ارتفع الى ثمانية عشر ذراعا كان فيضانا سلطانيا ، وعم الرخاء ، فاذا ما تعدى علامة العشرين كان الاستبحار أى غرق الارض والزرع ، وقد يصل الى اللجة الكبرى ، أى الطوفان الكاسح ، وهذا يعنى غالبا الطاعون أو الوباء حيث يتحول الوادى الى مستنقع ملارى كبير . فاذا ما هبط عن الحد الفاصل الستة عشر ذراعا فهى « الشدة » التى قد تصل الى المجاعة ، واذا كان الفيضان المغرق هو الطاعون فان المجاعة كانت تعنى الموتان الذى قد يصل الى حد ينتشر معه وباء الطاعون ، حيث يتناقص عدد السكان بدرجة مخيفة ، كذلك كان الرخاء المعتاد فيما يبدو من مضاعفات من آثار المجاعات . ولهذا قالت العرب : « ان مصر اسرع الأرض خرابا » (٤٠) ، ويقول المقدسى : « ان هذا الاقليم اذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ، واذا أجدب فنعوذ بالله من قحطه » (٤١) . لقد كانت هناك دورة عمرانية حضارية تتكرر حسب ايقاع الفيضان وضبطه ، وحين يفشل الفيضان أو ضبط النهر فانه اذن الانكماش العمرانى وغزو الملح والرمل ، أو البحر والصحراء للمعمور ، فتتقلص الواحات ، وتنقرض الموانىء خاصة على البحر الاحمر ، وهذا دليل على أن ضبط النهر ايقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية (٤٢) . وشىء آخر أضيفه على استحياء الى ما ذكره عالمنا الجليل وهو أن الفيضان يطهر مصر كل عام الفئران والحشرات الضارة فيغرقها ، فينقذ المحصول من عامل مدمر له .

ان دراما التاريخ الحضارى المصرى برمتها وعلى طولها يمكن أن تختزل أساسا فى صيغة صراع ملحمى بين المصرى والنيل ، تبدأ بالعنصر الطبيعى سيد الموقف ، بل ربما يعبد ، وتنتهى أخيرا باليد العليا للعنصر البشرى التى أوحدت أصول هندسية ومعمارية ، وضوابط ومنظمات وسدود هى اداة الانسان لترويض النهر ، فقد صار الفلاح المصرى مهندسا جغرافيا أعاد خلق الطبيعة الى حد ما ، وجعل من شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى ، لقد كان استغلال النيل استغلالا وصليا موسميا بحتا يتبع دوره الفيضان ، ويترك الارض الزراعية دورا نصف العام (٤٣) . ولا أبلغ من مقولة عمرو الشهيرة عن : لؤلؤة بيضاء (أى مصر وقت التحاريق) ، فاذا هى عنبرة سوداء (مصر وقت الفيضان) فاذا هى زمردة خضراء (الزراعة الشتوية) فاذا هى ديباجة قشاء (وقت الحصاد) (٤٤) .

---

(٤٠) المقريزى : الخطط ، الجزء الاول ، ص ٤٠ . جمال حمدان : ص ١٦٠ - ١٦٢

(٤١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، طبعة ليدن ١٩٠٦ ، الجزء الاول ص ١٩٨ (حمدان ص ١٦٢)

(٤٢) حمدان ، ص ١٦٤

(٤٣) حمدان ، ص ١٦٥ - ١٧٣

(٤٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، طبعة بولاق ١٩٢٩ ، الجزء الثانى ، ص ٣٣ (حمدان ، ص ١٦٥) .

ان علاقة المصرى بالنيل علاقة اخصاب متبادلة من التأثير والتأثر ، من الطاعة والتطويع ، عنصران متلاقحان فى مركب واحد . فالنيل بلا شك رأس مال طبيعى وسياسى دفين، ومورد أصيل من موارد الثروة القومية، بل هو الرأسمال الحقيقى للأمة المصرية ، وقبل بناء السد العالى « أكبر بنك مائى فى العالم ، كانت مصر مزرعة شتوية تعتمد على مائية الصيف ، فقد كان النيل الاحمر وقت فيضانه والذى وصف بأنه دم أوزوريس الذى يولد الخير ، هو الذى يعطينا مصر الخضراء ، بينما كان النيل الاخضر الخامد بعد الفيضان يترك مصر أرضا سوداء جرداء نصف العام (٤٥) .

ويؤكد جمال حمدان وهو يستشهد باراء أنبياء الجغرافيا التاريخية بأن الحضارة المصرية أسبق من حضارة الرافدين ، وأن الزراعة عرفت فى مصر ومن مصر انتقلت الى بلاد الرافدين ، اذ كان هناك اتصال دائم بين وادى النيل ووادى الرافدين منذ أقدم العصور ، ويؤكد أن النيل هو مفجر الحضارة فى الشرق الادنى ومن واديه انتقلت الى كل ركن من أركان الشرق القديم ، مؤكدا أن توقيت الفيضان وعلاقته بمواعيد الزراعة الشتوية أنسب فى مصر منه فى العراق ، ولهذا يعطى المؤرخون – الجغرافيون الاحتمال الاقوى لمصر كمهد وموطن أول للزراعة ويقول حمدان « فهى شىء مصرى خالص رخاص ، ومرتبط بظروف وادى النيل المناخية الفريدة . فقد كانت مصر من البلاد الرائدة السباقة الى تأصيل الثورة الزراعية ؛ واقامة أسس حضارة العصور القديمة التى فاجأت بها العالم مكتملة أو شبه مكتملة مع بداية عصر الاسرات أى منذ ٣٢٠٠ ق . م . فى حين أن كل ما حولنا كانوا بدوا كانت مصر كريمة معهم . والقرآن الكريم الذى هو مصدر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يشهد فى سورة يوسف الذى جاء الينا لاجئا جائعا عريانا . ليجد الخير والرخاء سيع فيتنبأ كنبى بدورة انخفاض الفيضان فينصح بتخزين الفائض من القمح لسنوات الشدة . لكنه لم يعلم المصريين الزراعة كما يدعى المغرضون الذين صنعوا أفلاما ملونة وجميلة أنفق عليها الكثير لتخدع الشعب ونشوه ما كتبه عالم الشعب وراهب العلم جمال حمدان بأن لاجئا جاء فى عصر الهكسوس هو الذى علم المصريين الزراعة . وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد شوهوا صورة الاسلام بتشويه قصة رواها القرآن الكريم ، وطعن شعب فى كرامته بالترويج لسموم العدو بأنه مستقبل للحضارة من البدو وليس مبدعا لها . يقول الله تعالى فى سورة يوسف « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا

---

(٤٥) حمدان ، ص ١٩٠

الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين » (٤٦) .

ويؤكد حمدان أن ليس الشرق وحده يدين لمصر بفضل الحضارة ، بل الغرب أيضا وان يكن بطريق غير مباشر يدين بأصول حضارته الى ما قدمناه ، ويؤكد أن المراحل الحضارية التى مرت بها مصر ترتبط ارتباطا وثيقا بمراحل تطور المواصلات ، باعتبارها من دوافع الاحتكاك ومذيبات العزلة فمرحلة صناعة الحضارة تتفق مع التاريخ النهرى عندما كانت مصر مشتلا ممتازا لتأصيل حضارة مبكرة مادتها الخام هى فيض الثروة الفيضية ، وصوبتها الزجاجية التى تحمى طفولتها هى الغلاف الصحراوى ، ثم اتصلت عن طريق البحار بالبلدان البحرية وتفاعلت مع جيرانها كالفينيقيين شمالا بشرق ، وأهل كريت واليونان غربا وتسللت حضارتها جنوبا حتى بلاد بونت (الصومال) (٤٧) . ومن كريت واليونان تعلم الرومان ، والرومان علموا باقى أنحاء أوربا . ومن ثم يؤكد أن الحضارة الأوروبية القادمة الينا فى العصر الحديث ما هى الا بضاعتنا ردت الينا، سواء عن طريق ما استعارته اليونان من مصر القديمة ، أو ما استعارته أوروبا الوسيطة من عرب الاسلام حضاريا . ويقول : « ان صيغة ارنولد توينبى فى التحدى والاستجابة (٤٨) تقدم مفتاحا وتفسيرا مقنعا للسبق المصرى . ففى أزمة عصر الجفاف فى أواخر عصور ما قبل التاريخ كان التحدى الاول وكانت استجابة المصرى هى اكتشاف الزراعة ، وكان الفضل فى هذا السبق يرجع الى النيل أبى الزراعة الحقيقى ومعلم الفلاح الاول الذى حوله الى مهندس رى أعاد تشكيل وخلق البيئة الطبيعية — بيئة الرخاء والوفرة الطبيعية حيث تأخذ الطبيعة جانب الانسان وبيده، ولا شك أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وامكانيات العمل . ولقد وفر النيل والشمس خامات الحياة ، ولكن كان لابد من صنعها من معركة ضد الموت ، ضد الفيضانات وضد الرمل والملح . ولهذا كان الجهد البشرى شرطا للتقدم وكان التقدم مكافأة للجهد البشرى ، وتلك الدقة خصيصة أقاليم الوفرة : فالبيئة السهلة اذن هى حضانة الحضارة ومشتل التاريخ ، والله سبحانه وتعالى وهب مصر النيل والنيل وهب مصر حضارتها التى سبقت بها العالم وفاضت به عليه (٤٩) .

---

(٤٦) سورة يوسف ، ٨٧
(٤٧) حمدان ، ص ١٣٩
(٤٨) Arnold Toynbee: A Study of History, Oxford University Press, 1915, pp. 302-315 = (حمدان ، ص ١٤٩)
(٤٩) جمال حمدان ، ص ١٥٠ — ١٥٣

لقد تمتعت مصر بنظرة عالمية رحبة الأفق ، دون أن تفقد قوامها الذاتى ، ويبين حمدان كيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وانما يتناسخ ، وأنها كلما زادت تغيرا وتطورا كلما زادت شخصيتها تأكيدا واستمرارا فحتى فى الماضى البعيد كانت تمصر كل جديد : تهضمه وتمثله وتفرزه كائنا مصريا صميما . فالموجات الأجنبية ابتلعتهـا ومصرتها ، حتى الدين مصرته ، حين أخـذت المسيحية من فلسطين وأخرجت منها نسختها القبطية . كان طريق المصرى هو أن يتقبل التحديات والتجديدات ويضمها الى فكره القديم البالى . وأن القديم والجديد ليرقدان معا كلوحة سيريالية : الشباب والشيخوخة على وجه واحد . فالمصرى لا يكون مصريا الا اذا تمسك بالقديم الى جوار الجديد فيوائم بينهما أو يصل أحدهما بالآخر على الأقـل (٥٠) .

وينتهى اهتمامنا بحمدان كمؤرخين متخصصين فى تـاريخ مصر حتى الفتح العربى بفتح العرب لمصر . والذى يصفه بأنه لقاء الأقارب والأهل ، أو لقاء أبناء الأخت بأخوالهم ألم يكن اسماعيل جد العرب . هو ابن هاجر المصرية وابراهيم العراقى ؟ ، كما أنه ثبت أن هنـاك عشرة آلاف كلمة فى اللغة المصرية ذات أصل سامى . ولقد ثبت فعـلا أن العرب كانوا يعرفون مصر قبـل الاسلام ولهم فيها جاليات فى قوص وفى الفيوم ، وأن عربيا اسمه زايد ايل شغل منصبا عاليا فى مصر وتمصر حتى أنه حنط كالمصريين وعثر على تابوته وعلى نقوشه بالخط المسند ، كما أنـه ثبت أن عمرو بن العاص كـان يتردد على الاسكندرية وله فيها صداقـات ومعارف ، كما ثبت أيضا أن الاقباط المصريين كانوا على اتصال بالعرب المسلمين وساعدوهم ، بل ارشدوهم الى الطرق والمدقـات لتخليصهم من ظلم الروم الذين كانوا مسيحيين مثلهم لكن لقاء الدم كان أقوى من لقاء الدين . فدخول العرب مصر لم يكن غزوا ولا فتحا وانما تحرير الأخوال ورد دين لهم .

ثم يتحدث جمال حمدان عن دور العرب فى الحضارة المصرية فيذكر أن دورهم كان تلقيح ملكة النحل ، أو الشرارة الاولى التى الهبت الوقود الحضارى الخامل فى مصر دون أن تجيئنا بجسم الوقود نفسه ، ثم ذابت النار فى الوقود ، كما انصهر الوقود فى النار . فتعلم العرب من مصر نظم الادارة وفنون الرى والزراعة وكل ما صنعته البيئة الفيضية بمصر ، بل علمتهم مصر فنون البحر وبناء السفن فى ترسانات ، وبفضل خبرة المصريين وجنودها البحريين تحول حداة الابل الى ربابنة البحر واوقعوا أكبر هزيمة بحرية بأكبر وأعرق دولة بحرية وهى دولة الروم فى معركة ذات الصوارى عام ٣٤ هجرية (٦٥٥ ميلادية) . والتى كانت فاتحة السيادة

---

(٥٠) حمدان ، ص ١٥٤ وص ١٥٦

البحرية للعرب على سواحـل البحر المتوسط . ومن جانبهم طعم العرب اقتصاد أخـوالهم الزراعى بعنـاصر جديدة وخطيرة حين ادخلـوا قصب السكر والأرز والموالح ، وأدخلوا الابل ، وانضم الحمل الى قائمة ماشية الفلاح التى تعتمد عليها فى الزراعة الفلاحية . وفى مجـالات أخرى نجد أثرهم واضحا حين أدخلوا جلـد الرق كمادة للكتابة الى جانب قراطيس مصر وكواعبها (أى ورق البردى) (٥١) وهو نتائج بيئة الرعاة بينما كان ورق البردى انبثـاقا طبيعيا فى البيئة الفيضية ، ثم ادخلوا اليها صناعة الورق وأصبحت القاهرة من أكبر مراكز انتاجه لوفرة مواد صناعته فيها .. وفى قانون العقوبات أحل العرب قطع يد السارق محل جدع الأنف عند المصريين الذين كـانوا يحرصون على أهمية اليـد فى المجتمع الزراعى . كما قضى العرب على عادة تحنيط الموتى وصنع التماثيل . كل هذا جعل عالمنا الجليل يؤكد أن مصر ـ نافورة الحضارة القديمة ـ لم تتحول أبـدا الى مجرد بـالوعة للحضارة العربية الاسلامية ولكن الى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها ، بمعنى آخر جـاء الدور المعـاصر . دور المعمـل الحضارى . انهـا بلـد لكـل العصور (٥٢) .

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

---

(٥١) سيد أحمد على الناصرى (مقال) : الوراقون والنساخون ودورهم فى الحضارة العربية ، السنة الرابعة عشرة ، الدارة (الرياض) رمضان ١٤٠٩ هـ (ابريل ١٩٨٩) ص ١٧٩ ـ ١٩٣
(٥٢) جمال حمدان ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥

جمال حمدان وانتاجه العلمى

تلقى جمال حمدان تعليمه الجامعى فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب جامعة القاهرة الذى تخرج فيه عام ١٩٤٨ . وكان من أساتذته العظام جيل الرواد فى المدرسة الجغرافية العربية مثل الاستاذ مصطفى عامر مؤسس المدرسة الجغرافية المصرية والعربية . والدكتور محمد عوض محمد والدكتور عباس عمار والدكتور سليمان حزين والدكتور محمد متولى والدكتور ابراهيم رزقانه ، وكان لكل واحد من أولئك الاساتذة أثره فى شخصية جمال حمدان وفى دفعه الى التخصص ، ولذلك نجد أن بعض كتاباته الاولى كانت مهداة لبعض أولئك الاساتذة ، فقد أهدى كتابه الذى أصدره عن « دراسات فى الحضرية المصرية » فى عام ١٩٥٩ باللغة الانجليزية الى الاستاذ مصطفى عامر وأهدى كتابه « جغرافية المدن » الى أستاذه عباس عمار

وكان لاشتغال بعض هؤلاء الاساتذة بالعمل العام وتوليهم لمناصب وزارية أثره فى تطلعات جمال حمدان واهتماماته ، كما أن شخصيات أولئك الاساتذة كانت فى معظمها تتصف بالاعتداد والثقة ، وربما يكون ذلك أحد آثار التخصص فى الجغرافيا ، حيث أن الجغرافى يشعر بثبات أقدامه على الأرض ، وبأن منهج العلم الذى يتخصص فيه ومعطياته ونتائجه أمور على درجة كبيرة جدا من اليقين سواء فى ذلك الشق الطبيعى أو البشرى ، وكأن كل شىء محسوب ومحسوم ، لا يخضع للظن ويكاد أن يصل الى اليقين ، لذلك كان حمدان وأساتذة من قبله ، وغيرهم من الجغرافيين على قدر كبير من الثقة والاعتداد والترفع أحيانا ، كيف لا والعالم كله مختبرهم ومعملهم الذى يعملون فيه : يشاهدون ويربطون ويحللون ويخرجون من ذلك بالنتائج التى تحلل الماضى والحاضر وتستشرف المستقبل .

وفور تخرج جمال حمدان فى قسم الجغرافيا ابتعث الى جامعة Reading فى بريطانيا للحصول على الدكتوراة ، وعاد بها فى عام ١٩٥٣ بعد أن قدم رسالة عنوانها : population of the Nile Mid-Delta, past and present
Ph. D. Thesis, Reading University, 1953

وكان كل من مصطفى عامر ومحمد عوض محمد وعز الدين فريد من الجغرافيين الذين درسوا بعض الدراسات السكانية فى بحوثهم وكتاباتهم ، كما أن منهج مصطفى عامر فى الجغرافيا التاريخية قد أثر بلا شك فى أن تكون دراسة سكان الدلتا الوسطى عند حمدان ليست وقفا على الحاضر ولكنها تضرب أيضا فى جذور الماضى .

وحين عاد جمال حمدان مؤهلا بالدكتوراه فى عام ١٩٥٣ كان عليه أن ينتظر حتى عام ١٩٥٤ ليعين مدرسا بكلية الآداب ، وذلك نظرا لظروف ترتبط بعدم وجود درجات ليعين على أحدها فور عودته ، ولم يكن ذلك وقفا عليه ، فقد كان ثمة كثير من زملائه الذين مروا بنفس التجربة فى أقسام كلية الآداب المختلفة .

ويمكن أن تقسم مراحل الانتاج العلمى لجمال حمدان الى ثلاث فترات غير متساوية فى أطوالها ، ولكن كل فترة منها تمتاز بصفات معينة فيما يتعلق بانتاجه وقد تقسم هذه الفترات الى أكثر من مرحلة ، وقد بلغت جملة ما أنتجه جمال حمدان خلال مراحل حياته المختلفة عددا كبيرا من الاعمال ما بين مقالات وكتب تختلف فى أحجامها ووزنها ، واذا اعتبرنا الأعمال المنتهية فقط ، أى بدون حساب المقالات التى جمعت بعد ذلك لتظهر فى كتاب أو مؤلف يجمعها ، فان عدد المقالات المنفردة تصل الى ٢٦ مقالا منها سبع باللغة الانجليزية و ١٩ باللغة العربية ، أما كتبه فعددها ٢٢ كتابا منها ٢١ باللغة العربية وواحد باللغة الانجليزية ، وقد اعتبر كل جزء فى كتابه الموسع « شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان » كتابا بذاته ، كما اعتبرت الاصدارات السابقة من الكتاب فى صورته الموجزة والوسيطة كتبا بذاتها أيضا ، ولا يدخل فى هذا الانتاج مقالاته الصحفية .

مراحل الانتاج العلمى لجمال حمدان :

يمكن كما سبق أن نقسم الفترات أو المراحل التى مر بها انتاج جمال حمدان ، الى المراحل الثلاث التالية :

١ - المرحلة الأكاديمية ١٩٥٣ - ١٩٦٣
٢ - مرحلة الانتشار ١٩٦٤ - ١٩٨٤
٣ - فترة الصمت ١٩٨٥ - ١٩٩٣

أما تفاصيل ذلك ومبرراته وحيثياته فهى كما يلى :

أولا : المرحلة الأكاديمية :

وهى تنقسم الى قسمين يمتد أولهما من ١٩٥٣ - ١٩٥٨ ، ففى خلال هذه الفترة كان حمدان قد عاد من بعثته وأصبح مسئولا عن تدريس عدد من المواد الدراسية ، وكان لابد له من أن يعكف على اعداد المادة العلمية لكل مقرر من المقررات أو

المناهج الدراسية ، وفى ذلك الوقت كانت المؤلفات الجغرافية العربية الحديثة التى تخدم تلك المفردات محدودة للغاية ، لذلك فان جيـل القائمين على التدريس فى تلك الفترة من أواسط القرن العشرين كانوا فى معظم الأحوال يعدون مذكرات ويلجأون اما الى أسلوب المحاضرة التى يأخذ الطالب فيها نقاطا ويحال الى عدد من المصادر أو أنها كانت عبـارة عن املاء لمذكرات الاساتذة ، وكـان حمدان يفضل أسلوب المحاضرة وقد أعد بعض المذكرات التى كانت نواة لبعض مؤلفاته فى مرحلة تالية ، ولم يظهر لحمدان خلال تلك الفترة التى تمتد بطول أربعة الأعوام التالية لعودته من البعثة سوى مقال وحيد فى منهج الجغرافيا ، وهو مقال : هذه الجغرافية الذى ظهر فى العدد الأول من مجلة مرآة العلوم الاجتماعية لعام ١٩٥٧ .

أما القسم الثانى من هذه المرحلة الاكاديمية فيمتد من الأعوام ١٩٥٩ وحتى ١٩٦٣ ، ويقترن انتاج حمدان خلال هذه الفترة باستعداده للتقدم للترقية الى درجة أستـاذ مساعد ، والذى حدث هو أن الترقية لهذه الدرجـة كانت قبل عام ١٩٥٨ تشترط مرور ١٣ عامـا على الحصول على الليسانس وخمسة أعـوام على شغـل وظيفة مدرس ، وأدى تعديل القانون فى عام ١٩٥٨ الى اختصار المدة التى تحتسب للترقية الى ١١ عاما فقط من الحصول على الليسانس ، ووجد حمدان نفسه فى عام ١٩٥٨ وقد شغل كثيرا بمذكراته ولم يتهيأ بعد للنشر الذى أصبح ملحا وضروريا وهذا يفسر أن عام ١٩٥٩ كان من أكثر أعوام تلك المرحلة وفرة فى انتـاجه الذى نشر ، فقد ظهرت له فى ذلك العام أربع مقالات احداها باللغة الانجليزية ، وثلاثة كتب أحدها باللغة الانجليزية ، كما أن كتابا آخر ظهر أكثر من نصفه فى عام ١٩٥٩ يقدم ضمن انتاجه للترقية وهو كتاب جغرافية المدن ، الذى لم يكتمـل فى صورته النهائية مع فهرسه ومصادره الا فى أواخر عام ١٩٦٠ ، الذى ظهر فيه لـه أيضا مقال باللغة الانجليزية .

أمـا الفترة من ١٩٦١ – ١٩٦٣ فقد أخرج فيها ست مقـالات أربـع منهـا بالانجليزية ومنها مقالان فى ١٩٦١ ومقال فى ١٩٦٢ وثلاث مقالات فى ١٩٦٣ ، وأما الكتب فلم يصدر منها شىء فى عامى ١٩٦١ و ١٩٦٢ ثم ظهر كتابان بالعربية فى عام ١٩٦٣ .

ولابد هنا من القول بأن المؤلفات التى ظهرت كلها خلال تلك المرحلة كانت تخدم أغراضا أكاديمية وتدخل فى خدمة المواد التى يقوم بتدريسها جمال حمدان وبخاصة جغرافية المدن والبيئات وجغرافية العالم العربى . وبعبارة أخرى ، فقد كان كـل انتاج حمدان حتى عام ١٩٦٣ موجها لجمهور الجغرافيين من الأساتذة والطلاب . واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن جمال حمدان تقدم باستقالته فى عام ١٩٦١ وأن هذه الاستقالة لم تقبل الا فى عام ١٩٦٣ ، فمعنى ذلك أن هذه المرحلة هى التى شملت الحياة الوظيفية لجمال حمدان كعضو بهيئة التدريس الجامعية ، بل لعـل بعض

الأعمال الاكاديمية التى نشرت بعد عام ١٩٦٣ كانت نواة أفكارها ، ان لم تكن مادتها جميعا قد تمت جمعا وكتابة خلال سنوات عمله الأكاديمى وان لم تنشر الا فى مرحلة تالية .

ثانيا : مرحلة الانتشار :

وتمتد هذه المرحلة بطول يصل الى عقدين كاملين (١٩٦٤ — ١٩٨٤) غير أنه يمكن تقسيم هذه المرحلة الى عدد من الوحدات الزمنية التى تتصف كل وحدة منها بصفة مميزة ، ففى الفترة ١٩٦٤ — ١٩٦٧ تميز انتاج حمدان بالغزارة والاقبال على النشر ، سواء فى صورة مقالات أو كتب ، وهذه الفترة هى التى تعتبر بداية اعتزاله للحياة الوظيفية وتفرغه للانتاج ، ولذلك شهدت فى بدايتها نشر بعض الأعمال الاكاديمية التى لم تنشر خلال الفترة الوظيفية ، ففى عام ١٩٦٤ نشر آخر مقالاته باللغة الانجليزية عن عواصم افريقيا الجديدة باحدى الدوريات الجغرافية العالمية (Economic Geography) ، كما نشر أيضا آخر مقال له فى فلسفة الجغرافيا والفكر الجغرافى وهو الذى نشره بمجلة مرآة العلوم الاجتماعية تحت عنوان « نحو مدرسة عربية فى الجغرافيا » .

وباستثناء العملين السابقين ، فان جمال حمدان بدأ فى انتاجه يخاطب الجمهور العام من المثقفين ، ولم يعد يخاطب الجغرافيين وحدهم ، وان لم يعن ذلك انصرافه عن الجغرافيا ، التى ظلت محور انتاجه حتى النهاية ، وبدأ ينشر انتاجه فى بعض المجلات السيارة والعامة وان تكن ذات مستوى راق بين مختلف الاصدارات التى كانت توجد فى ذلك الوقت ، وقد اختص مجلات : المجلة ، الكاتب ، الفكر المعاصر والطليعة بهذه المقالات ، وبدأ أيضا فى عام ١٩٦٤ ينشر لأول مرة الصورة الاولى لكتابه الأشهر شخصية مصر ، حيث بدأ نشرها فى مجلة المجلة ، وكانت هذه المقالات هى التى جمعت لتظهر بعد ذلك الصورة الموجزة من هذا العمل ، أو قل بذرته الأولى ونواته ، والتى ظهرت فى يونيه ١٩٦٧ فى سلسلة كتاب الهلال . وكان عام ١٩٦٦ هو أكثر أعوامه وفرة فى نشر المقالات ، حيث نشر ست مقالات (عدا المقالات التى ضمتها كتب فيما بعد) ثم نشر مقالين فى عام ١٩٦٧ ، وتوقف بعد ذلك كله عن نشر المقالات فيما عدا مقال وحيد نشره فى عام ١٩٦٩ كمقدمة لكتاب نشرته سلسلة كتاب الهلال عن مدينة القاهرة من تأليف ديزموند ستيورات وترجمه صديقه الكاتب المبدع يحيى حقى ، وكان مقال حمدان عن القاهرة الكبرى ، دراسة فى جغرافية المدن ، ويمكن اعتبار هذا المقال الختامى لانتاجه فى شكل مقالات ، واحدا من المقالات الاكاديمية ، برغم أن الكتاب نفسه للمثقف العام .

أما اصداراته من الكتب فى الفترة ١٩٦٤ — ١٩٦٧ فقد شملت كتبا ثلاثة ، أحدها هو النسخة الوجيزة من كتاب شخصية مصر ، وان كان قد ظهر قبله كتاب

بترول العرب (١٩٦٤) ثم كتاب صغير يحمل عنوان : اليهود أنثروبولوجيا وقد صدر له فى نفس الشهر مقال فى الموضوع ذاته نشر بمجلة الفكر المعاصر وقد اهداه للمفكر الفرنسى «جان بول سارتر» الذى كان يزور القاهرة عندئذ ، وعنوان المقال « ليس اليهود من بنى اسرائيل ، دراسة علمية لأسطورة الأصل اليهودى » . وكانت هذه الفترة مشحونة بالثورة فى ظل زعامة عبد الناصر ، وبرغم أن الانفصال كان قد حدث فى ١٩٦١ الا أن عبد الناصر لم ينس أبدا حلم الوحدة وأبقى على اسم « الجمهورية العربية المتحدة » ، كما أن اسرائيل كانت دائما العدو الأساسى والمباشر ضد القومية العربية وكل ما يدعو له عبد الناصر ، ولهذا فان جمال حمدان برغم اعتزاله للوظيفة ، الا أنه لم يعزل نفسه عن تيار الحياة السياسية الجياش والمتدفق ، ولم يكن غريبا أن يكون من بين انتاجه فى هذه الفترة مقال عن «جغرافية الثورة» فى المجلة (ابريل ١٩٦٤) وثلاث مقالات عن سورية فى مجلة مرآة العلوم الاجتماعية (من ١٩٦٤ — ١٩٦٦) ومقالات عن الأردن الذى كان يصنف فى معسكر الرجعية كدولة ، حتى أن جمال حمدان شكك فى مقاليه عن الأردن فى كيان الدولة ذاته (مجلة الكاتب ، العددان ٧٠ و ٧١ — ١٩٦٧) . ومن هذه المقالات السياسية أيضا مقال عن «حول وحدة الرافدين والنيل» (فى الفكر المعاصر ١٩٦٦ عدد ١٢) ومقال حول هذا الحلف الاسلامى «المجلة — يوليه ١٩٦٦» ومقال «الوحدة العربية بين مقوماتها ومعوقاتها» (الكاتب — فبراير ١٩٦٦) ويحتاج الفكر السياسى لجمال حمدان لوقفة تحلل بدقة لانتاجه فى هذه الفترة مما سنعرض لبعض نماذجه فى جزء آخر .

وحلت هزيمة العرب عامة ومصر خاصة فى ١٩٦٧ لتبدأ فترة أخرى متميزة فى انتاج جمال حمدان يمكن أن نطلق عليها فترة الانكماش ، وتمتد بين ١٩٦٨ — ٧٥ وكما سبق فان انتاج حمدان أصبح مقصورا على اصداراته من الكتب دون المقالات — عدا مقاله عن القاهرة الكبرى الذى سبقت الاشارة اليه — وهذه الفترة تمثل بدايتها هزيمة يونيو ١٩٦٧ ثم حدث فى آخرها كل من حرب اكتوبر/ رمضان وعبور سيناء وتحرير القسم الغربى منها ، وتنتهى فى ١٩٧٥ حين عادت الملاحة الى قناة السويس مرة أخرى — ومعنى ذلك أن هذه الفترة ترتبط قوميا ومصريا بكل من الهزيمة والنصر ، باليأس والأمل ، وفيها حدثت موجة كبيرة من عمليات المراجعة ونقد الذات على المستوى القومى فكريا وسياسيا ، وقد انعكس ذلك على انتاج جمال حمدان فقد أخرج فى عام ١٩٦٨ كتابه عن « استراتيجية الاستعمار والتحرير » والذى كان معظمه قد نشر قبل ذلك على شكل مقالات ، وفى عام ١٩٧٠ أصدر فى عام رحيل عبد الناصر ، الطبعة الوسيطة من كتابه «شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان» بعد أن أضاف عددا من الفصول وأعاد صياغة بقية الفصول التى كان قد سبق له نشرها فى الطبعة الموجزة ، واذا كانت الهزيمة العسكرية فى عام ١٩٦٧ قد أدت الى نكسة خطيرة لفكرة القومية العربية نتيجة لما

أصاب المثقفين من احباط ناتج عن المبالغة فى تقدير القوة العربية والواقع المؤلم والمهين معا للهزيمة السريعة الخاطفة ، فان التوجه الى العالم الاسلامى قد أصبح أكثر الحاحا من فكرة القومية العربية ، وان لم يلغ الفكرة أو الدعوة اليها ، ولهذا أصدر جمال حمدان فى ١٩٧١ كتابه عن «العالم الاسلامى المعاصر» . كما عاد فى ١٩٧٢ الى دراسة الأمل ممثلا فى كتابه عن «الجمهورية العربية الليبية ، دراسة فى الجغرافيا السياسية» والذى صدر فى عام ١٩٧٣ ، حيث كانت رؤيته أن ما حدث فى ليبيا يمكن أن يشكل أملا جديدا لبعث فكرة القومية العربية ، فها هى احدى الدول العربية ذات المساحة الكبيرة والموارد البترولية الضخمة تتحول الى معسكر التقدم العربى ، وفى ١٩٧٣ حدثت حرب أكتوبر مما دفع بحمدان الى أن يكتب على عجل كتابه عن « ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية » كما نشر فى العام نفسه كتابا يدخل فى الواقع فى دائرة الجغرافيا الأكاديمية وهو عن « بين أوربا واسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية » ومعظم مادة هذا الكتاب كانت قد نشرت فى مقالات من قبل ، ولكن صدوره فى هذا الوقت يجعلنا نتساءل : ترى هل كان جمال حمدان يعيد التفكير فى أن يخاطب الجغرافيين مرة أخرى الى جانب اتجاهه الى مخاطبة المثقفين عامة ؟ . على أى حال فان هذا الاتجاه لم يستمر ، وانتهت هذه المرحلة بكتابه الصغير «قناة السويس نبض مصر» الذى صدر فى عام ١٩٧٥ متواكبا مع عودة الملاحة الى قناة السويس .

أما السنوات ١٩٧٦ – ١٩٧٩ فانها تمثل فترة الكمون والتوفر ومراجعة النفس والتأهب لعمل ضخم ، فلم يظهر أى عمل لجمال حمدان خلال تلك السنوات الاربع. ولا يعنى ذلك أنه لم يكن يعمل ، فما لبثت هذه السنوات أن تلتها أربع أخرى ظهرت فيها « الخلاصة والعصاة » ممثلة فى اصدار الطبعة المفصلة أو الموسعة من كتاب شخصية مصر ، الى جانب كتاب آخر يمكن اعتباره ضمنا فى اطار كتابه عن شخصية مصر ، وقد تكررت كثير من المعالجات بينه وبين كتاب شخصية مصر ، وأما هذا الكتاب الآخر فهو الذى أصدره فى عام ١٩٨٣ بعنوان « من خريطة الزراعة المصرية » . أما النسخة الموسعة من شخصية مصر بأجزائها الاربعة فقد صدر الجزء الاول منها فى عام ١٩٨٠ والثانى فى سبتمبر ١٩٨١ والثالث فى يناير ١٩٨٣ والرابع والأخير فى يوليه ١٩٨٤ .

ثالثا : مرحلة الصمت :

وهى التى تمتد بين يوليه ١٩٨٤ وابريل ١٩٩٣ حين انتقل حمدان الى الرفيق الأعلى ، وهذه المرحلة لم ينشر فيها حمدان شيئا ، وبرغم ما كتب بعد رحيله عن كتابات كان يعد لها عن العالم الاسلامى والفكر الجغرافى والصهيونية ، فان ما عثر عليه من أوراق لا يؤكد ذلك ومعظم ما كتب فى تلك الأوراق يتصل بالخواطر

الشخصية وكأنه حديث الى النفس أكثر من كونه كتابا أو كتبا منظمة ، ومع ذلك فلعل الكتاب لم يغلق بعد ، وربما تكتشف أصول ما بين أوراقه .

مجالات البحث الجغرافي عند حمدان :

علم الجغرافيا كما يعرفه المتخصصون علم تركيبي يأخذ من كثير من العلوم الأصولية سواء في مجال العلوم الطبيعية أو مجال العلوم الاجتماعية ، ثم يعيد صياغة ذلك كله بعد أن يدخل عليه منهجه في الربط والتحليل والتعليل ، واذا كان الجغرافيون قد تعارفوا على أن يقسموا مادتهم الى شقين طبيعي وبشري ، فان ثمة من يرى أن الجغرافيا يمكن أن تقسم الىجغرافيا معاصرة وأخرى تاريخية ، فاذا درست الظاهرة الجغرافية كما هي الآن كانت الدراسة في الجغرافيا المعاصرة ، أما اذا أدخل البعد التاريخي على الظاهرة ، سواء بدراستها في تاريخ مضى أو تتبع ذلك الظاهرة عبر العصور مختلفة ، فان هذا يدخل في الجغرافيا التاريخية ، وفي كثير جدا من الأحيان يصعب الاستغناء عن منهج الجغرافيا التاريخية حتى من خلال معالجة قضايا وظاهرات معاصرة ، وذلك لأن أى تفسير متعمق لابد أن يضرب في جذور الماضي ، ولهذا فان كثير جدا من الدراسات الجغرافية تعتمد على أسلوب الدراسة في الجغرافيا التاريخية قبل معالجة الجغرافيا المعاصرة .

ومن التقسيمات الأخرى للجغرافيا أن نقسمها الى جغرافيا أصولية وجغرافيا اقليمية ، فالجغرافيا الأصولية تدرس الظاهرة لذاتها أو في العالم كله ، فدراسة مظاهر السطح أو المناخ أو السكان في العالم كله مثلا تدخل في مجال الجغرافيا الأصولية ، أما اذا درست عناصر الجغرافيا الأصولية في منطقة متميزة ولها صفات عامة مشتركة يعرفها الجغرافيون باسم الاقليم ، فان ذلك يدخل في مجال الجغرافيا الاقليمية .

وبناء على ما سبق يمكن أن يصنف الانتاج العلمي لجمال حمدان في مجالات أربعة هي الجغرافيا الأصولية والجغرافيا الاقليمية والجغرافيا التاريخية بالاضافة الى الفكر المنهجي أو فلسفة الجغرافيا ، على أن هذا التصنيف ليس جامعا مانعا ، فثمة كثير من التداخل في العمل الواحد مما يجعله يدخل في أكثر من فرع أو قسم من الاقسام الجغرافية ، وبالنسبة للجغرافية التاريخية على نحو خاص فهي تظهر في معظم الاعمال ، دون أمكانية وصف تلك الاعمال بأنها تدخل في الجغرافيا التاريخية ، فقد تكون داخلة في الجغرافيا الاقتصادية أو جغرافية السكان أو المدن ولكنها تأخذ أيضا بالبعد التاريخي الذي يعطي تلك الدراسات عمقا أكبر ، وبصفة عامة يمكن اذن تصنيف ما أنتجه جمال حمدان من فكر جغرافي كما يلي :

١ – الدراسات الأصولية :

وهى تضم الدراسات الاصولية فى فروع الجغرافيا المختلفة التى كتب فيها جمال حمدان وهذه الفروع هى جغرافية السكان وجغرافية المدن والبيئات والجغرافية السياسية والاقتصادية ، ويمكن اضافة الجغرافية التطبيقية والتخطيط الاقليمى ضمن هذا الاطار ، وان كان ثمة بعض الآراء بأن تكون الجغرافيا التطبيقية فرعا مستقلا بينما يرى آخرون أن ذلك قد يدخل فى الجغرافيا الاقليمية على نحو ما .

ويتضح من كتابات حمدان فى الجغرافيا الأصولية أن أكبر اسهام له كان فى الجغرافيا السياسية ، فمن بين دراساته التى نشرها بالعربية يدخل فى الجغرافيا الأصولية أحد عشر مقالا منها ثلاث مقالات فقط تقع خارج اطار الجغرافيا السياسية وتدخل فى جغرافية السكان أو أسماء الأماكن ، وهذه المقالات الثلاث من نتاج المرحلة التى أطلقنا عليها من قبل المرحلة الاكاديمية ، أما المقالات الثمانى الأخرى فهى تدخل فى الجغرافيا السياسية على مستويين أولهما مستوى التخطيط الادارى والاقليمى ويضم مقالين عن التخطيط الادارى فى ضوء نظام الحكم المحلى وعن التخطيط الاقليمى بين موارد المياه والسكان ، وهذه المقالات كتبت أيضا فى المرحلة الاكاديمية لانتاج جمال حمدان ، أما بقية المقالات فهى تدخل فى الجغرافيا السياسية اما على المستوى القومى أو العالمى ، ومنها مقال عن جغرافية الثورة (١٩٦٤) ومقال عنوانه «ليس اليهود من بنى اسرائيل» وان كان من الممكن اعتباره داخلا ضمن الأنثروبولوجيا الا أن السمة السياسية واضحة فيه تماما ، ثم مقالان عن الأردن ومقال عن الحلف الاسلامى وآخر عن جغرافية الاسلام ، وهو وان كان يتناول ظاهرة سكانية عن توزيع المسلمين فى العالم ، الا أن لهذه الظاهرة بعدها **السياسى** .

وأما عن الكتب التى تدخل فى الجغرافيا الأصولية فعددها ستة كتب يقع منها كتابان خارج دائرة الجغرافيا السياسية وهما : أنماط من البيئات (١٩٥٩) وجغرافية المدن (١٩٦٠) وأما الأربعة الاخرى فتدخل فى الجغرافيا السياسية وهى : اليهود أنثروبولوجيا (١٩٦٧) والاستعمار والتحرير فى العالم العربى (١٩٦٥) واستراتيجية الاستعمار والتحرير (١٩٦٨) و ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية (١٩٧٤) وكما نرى فان كل كتبه فى الجغرافيا السياسية ظهرت فى المرحلة الثانية من مراحل انتاجه وهى مرحلة الانتشار .

على أن جمال حمدان فى كتاباته التى تدخل فى الجغرافيا السياسية لم يكن يتبع منهج الجغرافيا السياسية بالمعنى الدقيق بقدر ما كان يتبع منهج الجيوبولتيكا ويصدق ذلك على نحو خاص عندما يرتبط الأمر بدراسة لها صلة بمصر أو العالم

العربى عامة وفلسطين خاصة ، وهو لا ينكر ذلك ، بل يعترف به ، ولعله من الانصاف أن نقول بأن كثيرين من يكتبون فى الجغرافيا السياسية لا يمكن لهم أن يكونوا محايدين عندما يرتبط الأمر بأوطانهم وكان حمدان يرى فى ذلك أمرا مشروعا وموقفا مبدئيا يعلنه دون مواربة ومن ذلك معالجته للقضية الفلسطينية أو للصراع العربى الاسرائيلى ، ففى عام ١٩٦٥ كتب فى كتابه «الاستعمار والتحرير فى العالم العربى» بعد أن استعرض فى المقدمة أن الجغرافيا السياسية تكتب للمثقف العام والمواطن المتفتح بمثل ما تقدم للعالم المتخصص ، أنه سيرسم فى الكتاب صورة الاستعمار القديم والحديث فى العالم العربى ، وكيف أنه الى زوال ، وبعد أن زال الاستعمار القديم فاننا الآن نطارد « آخر أشباحه ، بل وتناسخ أرواحه . فما العميل الغادر اسرائيل الا محاولة لتحل روح الاستعمار الطريد فى جسم هذا الاستعمار الصهيونى الشريد . ولكن لنا من الآن أن نبشر هذا وذاك بالنسخ لا بالتناسخ » (ص ٥) . ولكنه كان أكثر وضوحا وصراحة فى كتابه « اليهود أنثروبولوجيا » (فبراير ١٩٦٧) حين تحدث فى مجال مناقشته لحلول المشكلة الفلسطينية ، فقال « وكل حل لا يزيل اسرائيل من الوجود لا محل له من البحث العلمى » (ص ٥) ثم ليضيف فى موضع آخر من الكتاب نفسه « ونحن من جانبنا – على صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا – لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية ، لا لسبب الا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر – كما يتفق ولحسن الحظ – القضية السياسية وتدعمها ولا تتعارض معها فى الجوهر والصميم . ان الحق والحقيقة – كما سنرى – فى جانبنا على حد سواء » (ص ٢٧) .

واذا كانت المقتطعات السابقة قد وردت قبل حرب ١٩٦٧ ، فانه قد عاد ليؤكد ذلك بعد ١٩٦٧ بل بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ثم عودة الملاحة الى القناة فى ١٩٧٥ . فى عام ١٩٧٤ كتب فى اكتوبر فى الاستراتيجية العالمية فى صفحات الختام التى يذكر فيها أن الصراع الذى استمر منذ مؤتمر بازل قد شارف على ثلاثة أرباع القرن وأن اسرائيل قد شارفت ربع القرن عمرا ، ثم يقول « لكن الذى نود أن نصر عليه هنا هو أن الصراع سيكون أقصر مما يقدر البعض ، أقصر على أية حال من الحروب الصليبية التى تطاولت على مدى قرنين متكاملين . ذلك أن ايقاع العصر قد اختلف تماما وتسارع جدا ، وحروب اليوم أقصر للغاية من حروب الماضى لأن الأسلحة أفتك وأمضى بلا حدود ، كما أن العالم لن يصبر طويلا على حرب ممدودة ممطوطة لا تبدو لها نهاية . واذا ارتفع العرب حقا الى مستوى التحدى بنجاح على غرار اكتوبر ، فقد لا تأتى على اسرائيل – نقول هذا بهدوء مرة أخرى – سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو زد عليها عقدين أو ثلاثة ربما » (ص ٣٧٩) . ثم عاد وفى عام ١٩٧٥ ليقول فى كتابه : « قناة السويس نبض مصر » ما نصه « لما كانت فلسطين وليس سيناء هى خط الدفاع الاول عن القناة ، فان دفع الخطر الاسرائيلى أو رفعه

عن سيناء لم يعد يكفى ، وبعبارة أكثر مباشرة ، فلا أمان لقناتنا ولا ضمان بالتالى لموقعنا الجغرافى الا بذهاب العدو ، غير أن هذه قضية أخرى متروكة للمدى البعيد» (ص ٤٩) . وفى نفس الكتاب يقول فى آخر صفحة فيه « مصدر كل خطر وشر على مصر والمنطقة يكمن فى بؤرة العدوان الاسرائيلية » . بل أن حمدان أصدر فى كتاب أصدره مبكرا فى بداية «مرحلة الانتشار» (١٩٦٤) وهو : بترول العرب ، دراسة فى الجغرافيا البشرية يشير الى استخدام البترول كسلاح فى المعركة ضد اسرائيل حيث يقول « ولئن كان من الصعب أن نتصور استخدام سلاح البترول السياسى عند خلق اسرائيل ، فمن المحقق أن حركة فدائية بترولية — حتى وأن بدت انتحارية — تقوم بها الدول العربية يمكن أن تفرض « تحييد » القوى الغربية التى تسند اسرائيل كاطار لابد منه للمعركة الفاصلة . ولكن من الواضح حتى الآن أن البترول لم يكرس الاعداد « لحرب صليبية » من أجل فلسطين ، ولم يجند لانشاء جيش فلسطينى قوى ، لا ولم يلعب أى دور معقول فى رفع مستوى اللاجئين العرب وهو أضعف الايمان » (صص ٢٦٨ — ٢٦٩) .

ويمتاز انتاج جمال حمدان فى مجال الجغرافيا الأصولية بأن معظم ما أنتجه فيه فى مختلف الفروع باستثناء الجغرافيا السياسية ، كان يتصف بطابع أكاديمى وموجه لطلاب الجغرافيا والباحثين فيها ، ولهذا يقف هذا الانتاج من الجغرافيا الأصولية الاكاديمية عند عام ١٩٦٤ ، أما بعد ذلك فان انتاجه من الجغرافيا الأصولية غلبت عليه الجغرافيا السياسية والجيوبولتيكا وذلك لأنه كان موجها للمثقف العام كما ذكر هو ، بل ان كتابه الممتاز فى جغرافية المدن قد صدر فى عام ١٩٦٠ وهو يشير فى مقدمته الى أنه الجزء الاول ويخصصه لدراسة جغرافية المدينة الخارجية على أساس أنه سيصدر جزء آخر يعالج فيه الجغرافيا الداخلية للمدينة وهو ما لم يحدث .

٢ — الدراسة الاقليمية عند حمدان :

تنوعت الدراسات الاقليمية التى عالجها جمال حمدان ، ولكن الوزن النسبى للأقاليم التى عالجها لم يكن متساويا ، فقد حظيت مصر بأكبر قدر من الدراسات سواء من حيث الكم أو الكيف والنوع ، ثم تأتى بعد ذلك الدائرة العربية ، ويلى ذلك كله من افريقيا والعالم الاسلامى والعالم القديم .

واذا بدأنا بالدراسات الاقليمية للعالم العربى ، فقد بدأت مبكرة حقا عند حمدان (١٩٥٩) فى شكل كتابه دراسات فى العالم العربى ، والذى يضم فى الواقع موضوعات مختارة ويركز فيه على موقع العالم العربى وأهميته ، ثم أصدر فى عام ١٩٦٤ كتابه : بترول العرب ، دراسة فى الجغرافيا البشرية ، وفى هذا الكتاب كثير من الحس السياسى والوعى الثورى لجمال حمدان ، وكان قد اصدر قبل ذلك كتابا

له عن « المدينة العربية » (١٩٦٣) ثم أصدر ثلاث مقالات عن سورية أحدها عنوانه مورفولوجية الشام والثانى عن الزراعة فى سورية والثالث عن الصناعة السورية (نشرها جميعا فى مجلة مرآة العلوم الاجتماعية فى الفترة من ١٩٦٤ الى ١٩٦٦) ، كما نشر مقالا عن أسماء الاماكن فى العـــالم العربى (١٩٦٣) والى جانب ذلك فقد أصدر فى عام ١٩٦٥ كتابه عن الاستعمار والتحرير فى العالم العربى وأخيرا كتابه عن الجمهورية العربية الليبية (١٩٧٣) ويمكن أن يضاف الى دراساته عن العالم العربى مقالاته عن الاردن ، وحول وحدة الرافدين والنيل ، والوحدة العربية بين مقوماتها ومعوقاتها وقد نشرت هذه المقالات فى مجلات للمثقف العام (فى الفترة ١٩٦٦ - ١٩٦٧) كما يمكن أن يدخل فى دراساته عن العالم العربى دراستان أو دراسة نشرت فى قسمين أولهما بالمجلة الافرنجية للجمعية الجغرافية المصرية ، وعلى دراسة عن مدينة الخرطوم (بالانجليزية) فى عدد ١٩٥٩ وثانيهما فى عـــام ١٩٦٠ باحدى الدوريات العالمية (Geographical Review)

وأما افريقيـــا فقد نشر حمدان عنها مقـــالات باللغة العربية فى مجلة نهضـــة افريقية ، وكذلك باللغة الانجليزية فى مجلة الجمعية الجغرافية المصرية وفى بعض الدوريات العـــالمية

(Economic Geography, 1964 و Geographical Review, 1963)

وقد أعاد نشر معظم ما جاء فى هذه المقالات فى كتابه « افريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافيا السياسية » الذى نشره فى عام ١٩٦٦ .

وكذلك الحال فيما يتعلق بالعام الاسلامى ، فقد نشر مقالا عن « حول هذا الحلف الاسلامى » المجلة - يوليه ١٩٦٦ ، ثم « من جغرافية الاسلام ، دراسة رائدة عن توزيع المسلمين فى العالم » الفكر المعاصر ، عدد ٢٠ ، ١٩٦٦ . ولكنه ما لبث أن أصدر كتابا عن « العالم الاسلامى المعاصر » فى ١٩٧١ ضم معظم ما جاء فى هذه المقـــالات .

وأما العالم القديم فقد نشر كتابا عن القارتين الأخريين فى هذا العـــالم وهما أوربـــا وأسيا ، وذلك عندما نشر كتـــابه « بين أوربا وآسيا ، دراسة فى النظـــائر الجغرافية » فى عام ١٩٧٤ ، وبرغم صدور هذا الكتاب فى المرحلة التى أطلقنا عليها من قبل مرحلة الانتشار ، فانه هذا الكتاب يدخل فى عداد الدراسات الاكاديمية فهى كتاب جامعى بالمعنى المتعارف عليه ضمن مقرر يدرس فى أقسام الجغرافيا تحت اسم « أوراسيا » ، ولعل معظم مادة هذا الكتاب كانت مجمعة لدى حمدان فى الفترة الاكـــاديمية حين كان يقوم بالتدريس فى قسم الجغرافيا ، ولكن لسبب ما تـــأخر صدوره ، ولعل الرجوع الى الاحصائيات الواردة فى الكتاب يؤكد ذلك .

أما دراسات جمال حمدان عن مصر فقد بدأت بدراسته لدرجة الدكتوراه التى قدم بهـــا رسالة الى جامعة Reading بانجلترا وكـــان موضوعها سكان الدلتـــا الوسطى فى الماضى والحاضر (١٩٥٣) ، ومعنى ذلك أن تخصصه الأصلى كان فى

جغرافية السكان مع التطبيق على مصر ، وقد ظهرت أعماله الاولى بعد الدكتوراه فى نفس الاتجاه حين كان لا يزال فى مرحلة الانتاج الاكاديمى حيث نشر مقالا عن « نمو وتوزيع السكان فى مصر » (١٩٥٩) ومقالا آخر عن « التخطيط الاقليمى بين موارد المياه والسكان فى مصر » (١٩٥٩ أيضا) ، ونشر باللغة الانجليزية فى العام نفسه كتيبا عنوانه « دراسات فى الحضرية المصرية » . ثم بدأ يحول نسبيا فى اتجاهه الاكاديمى ويتجه الى الجغرافيا الاقتصادية فنشر فى كتاب لليونسكو عن « تاريخ استخدام الاراضى فى الاقاليم الجافة » مقالا عن « تطور الزراعة بالرى فى مصر » فى عـام ١٩٦١ وقد نشر الكتاب بكـل من الانجليزية والفرنسية ، وكانت هـذه الكتـابات هى جملة ما أنتجه خلال الفترة الاكـاديمية من حياته متنـاولا فيها موضوعات تتعلق بجغرافية مصر ، ثم ما لبث أن نشر مقالا فى التخطيط الاقليمى فى عام ١٩٦٦ وذلك أثناء اختيار موقع على البحر الاحمر يمكن أن يشكل محورا للتنمية وقطبـا لها ، وظهر ذلك فى مقـال له عنوانه « نافذة على البحر الاحمر ، القيصر لابرئيس » (مجلة الكاتب عدد ٦٢) . ثم نشر فى عام ١٩٦٩ مقالا عنوانه « القـاهرة الكبرى ، دراسة فى جغرافية المـدن » وذلك كمقدمة لكتـاب ديزموند سيتوارت الذى ترجمـه يحيى حقى ونشر فى سلسلة كتـاب الهلال تحت عنوان القاهرة (مارس ١٩٦٩) ، الصفحات ١٢ - ٨١ . وهو مقال ممتاز عن جغرافية مدينة القـاهرة يدرس فيه الموقع والموضع ونمو العمران وخطته وشبكة النقـل والتركيب الوظيفى ثم أقاليم القاهرة الكبرى ، ورغم أن المقال طيب للغاية الا أنه يخلو من المصادر والخرائط وذلك لأنه ظهر كمقدمة لكتاب مترجم نشر فى سلسلة ثقافية عامة .

وفى صدد دراسات عن جغرافية مصر صدر له كتاب «قناة السويس نبض مصر» (١٩٧٥) ثم كتاب من خريطة الزراعة المصرية (١٩٨٣) غير أن أهم ما كتبه عن مصر بلا شك هو اصداراته المختلفة عن شخصية مصر والتى صدرت فى أربعـة أشكال ، أولها عبـارة عن مقالات نشرت فى مجلة « المجلة » ابتـداء من ١٩٦٤ ، وكونت هذه المقالات نواة اصداره الوجيز لهذا الكتـاب والتى ظهرت فى سلسلة كتاب الهلال (٥ يونيه ١٩٦٧) فى تسعة فصول من القطع الصغير (٣٢١ صفحة) . ثم كان الاصدار الثانى لهذا الكتـاب بنفس العنوان « شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان » فى عام ١٩٧٠ ولكن بقطع أكبر وبتضمن عددا أكبر من الفصول (أربعة عشر فصلا) وفى ٥١٤ صفحـة ، وعلى الرغم من أن هـذين الاصدارين لشخصية مصر كانا موثقين بالمصادر فى الحواشى ، الا أن نهاية الكتاب فى كـل منهما خلت من قائمة مجمعة للمصادر والمراجع .

أما آخر صورة أصدر فيها كتـابه عن شخصية مصر ، فقـد استغرق الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ وصدر فى أربعة أجزاء ، وذلك على الرغم من أن خطة الكتاب كما وردت فى بداية الجزء الاول كانت مقسمة على ثلاثة أجزاء تضم سبعـا وثلاثين

فصلا ، الا أنهـا عند اكتمالها زادت لتصبح أربعـة أجزاء وتقع فى ثلاثة وأربعين فصلا ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن فصول الجغرافية الاقتصادية شغلت الجزء الثالث بأكمله وأعطى للجزء الرابع عنوانا هو شخصية مصر عبر العصور والابعاد ومع ذلك فان الفصل الأخير من هذا الكتاب الموسع هو نفسه الفصل الاخير من الطبعة الوسيطة التى سبق أن أصدرها فى عام ١٩٧٠ ، وتختلف الطبعة الموسعة فى أنها تتضمن فى نهايتها ثبتـا بالمصادر والمراجع التى اعتمد عليها حمدان فى دراسته والتى تضم ٢٤٥ مرجعـا باللغة العربية الى جانب ٧٩١ مرجعا بلغـات أجنبية مختلفة .

واذا كان الجزء الاول من الكتاب المفصل عن شخصية مصر قد تناول شخصية مصر الطبيعية « فان هذا لا يبدأ الا فى ص ٦٧ من الكتـاب ، وتسبق ذلك مقدمة يضع فيها الاطار النظرى للدراسة ويوضح معايير الشخصية الاقليمية ثم يحدد منهج الدراسة وخطة الكتاب ، وان كانت الخطة قد تعرضت لبعض التعديل كما رأينا . وأما الجزء الثانى فيدرس فيه شخصية مصر البشرية بأبعادها المختلفة ، وهو يعتمد فى هذا الجزء على كل من المعطيات الطبيعية والبشرية معا التى أثرت فى موقع مصر وتطورها الحضارى بما فى ذلك التطور التاريخى الطويل الذى مرت به مصر ، أما الجزء الثالث فرغم أنه يحمل عنوان « شخصية مصر التكاملية » الا أنه لم يخرج عن باب واحد به ثمانية فصول ويتناول فيها شخصية مصر الاقتصادية .

وهذا الاصدار الأخير من كتاب شخصية مصر ، هو آخر عمل نشره حمدان قبل رحيله ، ويحتاج الى دراسة متأنية لضخامته ، فبه كثير من القضايا والآراء التى يثيرها ، والتى قد لا تكون جغرافية بالضرورة حيث أن هذا العمل الضخم يشكل استعراضا ثقافيا لحمدان تتداخل فيه الجغرافيا مع التاريخ والاجتماع والسياسة والاستراتيجية ولا يمكن تناوله فى مقال عام عن الانتاج الشامل لحمدان .

أثر الاعتزال الحمدانى :

قرر جمال حمدان أن يتحرر من قيد الوظيفة الجامعية فى عـام ١٩٦٤ ، وعلى الرغم من أن الاستجابة لطلبه لم تكن فورية أو سريعة ، فقد بذلت جهود كثـيرة لاثنائه عن استقالته ، الا أنه ظفر بذلك فى عام ١٩٦٣ وأصبح طليقا من أى التزامات رسمية ، وبدأت الفترة التى تعرف بالاعتزال فى حياته .

ولابد من الاشارة الى أن اعتزال جمال حمدان لم يكن عزلة عن الحياة والمجتمع فقد ظل ينفعل بما يجرى فيهما من أمور ، ويشارك بقلمه بين حين وآخر فى بعض القضايا التى تشغل المجتمع وتشغله ، ومن هذه القضايا التى أسهم بالاشتراك فيها بقلمه قضية الأحلاف العسكرية التى كان يراد لمصر أن تشترك فيها وبخاصة الحلف الاسلامى الذى ترعـاه الولايات المتحدة على أساس أنـه موجه ضد الشيوعيـة

الملحدة ، ولكنه كان حلفا مشبوها ، ومنها قضايا مثل التخطيط الاقليمى لمصر وتجربة الحكم المحلى التى بدأت فى مصر عام ١٩٦٠ ، أو اختيار ميناء على البحر الأحمر ، وكذلك مؤتمرات القمة العربية وقضية التحرير من العدوان الاسرائيلى وأسلوب المواجهة ، بل وقضية طمى النيل والآثار الجانبية للسد العالى ، وهكذا تفاوت الاهتمام بين الوحدة العربية أو الاسلامية وبين قضايا محلية مصرية .

ولعله يبدو أمرا متناقضا جدا أنه فى الوقت الذى اعتزل فيه حمدان فانه لم ينعزل ، وكان اعتزاله اقتحاما ولم يكن انسحابا ، فقد اقترن بترك جمهور محدود هو طلابه وحياته الجامعية وما يرتبط بهما من التخصص الدقيق فى السكان والعالم فى الجغرافيا البشرية . وأقبل على جمهور أكثر رحابة واتساعا هو عامة المثقفين الذين أخذ يخاطبهم ، ولذلك فان نشره فى الدوريات المتخصصة قد توقفت ، وأصبح ينشر عوضا عن ذلك فى المجلات الثقافية بل وفى الصحف أحيانا أخرى ، ولذلك فاننا عندما فرقنا بين مرحلتين فى حياته هما المرحلة الاكاديمية ومرحلة الانتشار كان لذلك سبب موضوعى يرتبط بمستوى النشر وبالجمهور الذى يخاطبه، وهنا نشير الى أمر هام يميز الجغرافيين بصفة عامة ، فعلى الرغم من اعتدادهم بعلمهم الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى يكسبهم نوعا من الثقة بالنفس تصل الى حد الترفع ، فانهم من أقل المتخصصين فى العلوم الانسانية ادراكا لأبعاد العلاقات العامة ، وهم نادرا ما يتجهون الى وسائل الاعلام من تلقاء أنفسهم لمخاطبة الجماهير ، ويقنعون عادة بجمهورهم المحدود من طلابهم الا أن يسعى اليهم وتطلب خبرتهم ، وكان من حسن حظ المثقفين عامة أن اعتزال حمدان أثمر فى اتصاله بالمثقف العام ليعرض عليه بضاعة الجغرافى ، وكان لأسلوب حمدان الشيق وعبارته الرشيقة الأخاذة وعبقريته فى العرض وفكرته الجيدة ، كان لكل ذلك أثره فى مزيد من الانتشار ، ومن الغريب أن جمهور القراء لم يكن يشعر أنه يقرأ جغرافيا ، بل ان الاشارة الى حمدان بعد وفاته كانت فى معظم الأحيان تحمل صفات مثل المفكر أو الأديب أو المؤرخ وقلما كان يوصف بالجغرافى على الرغم من تأكيده على تلك الصفة فى كتاباته وعلى اتباعه لمنهج الجغرافيا .

ومعنى ما سبق أن اعتزال حمدان قد حقق هدفين هامين جدا هما توفره على الانتاج المتميز دون أن تشغله قيود الوظيفة ومتطلباتها ، فتعددت وتنوعت أشكال هذا الانتاج وأصبح انتاجا متحديا بكمه ونوعيته معا ، وأما الامر الثانى فهو ذيوع هذا الانتاج بين جمهور المثقفين على الرغم مما يختلط فى أذهانهم وأذهان العامة معا عن صعوبة الجغرافيا وبعدها عن مشكلات الحياة والناس ، وهو أمر ليس صحيحا كما نرى .

الا أن اعتزال حمدان كان له الى جانب تلك الآثار الايجابية مظاهر أخرى ونتائج سلبية حدت من تحقيق ما كان يهدف اليه من تميز لا يقارن بغيره ، وأهم هذه النتائج والآثار السلبية هى ما يلى :

١ – أن دور البحث الميدانى فى دراساته كان محدودا للغاية ويكـاد يقف عند مقالين له عن مدينة الخرطوم ، وقام بالدراسة الميدانية لهما أثناء قيامه بالتدريس فى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم فى العـام الجامعى ١٩٩٤/ ١٩٩٥ ، وتمكن من اجراء دراسته الميـدانية لاتساع وقتـه الذى لم يكن يريد أن يضيعه .

٢ – أنه لم يشارك فى مناقشة أى رسائل جامعية ، بل ولم يشرف على أى رسائل ومن هنا ، فانه ليست له مدرسته بالمعنى الدقيق لأن أحدا من الجغرافيين لم يحظ باشرافه المباشر ، وبالتالى لا يوجد ما يمكن أن يمثل استمرار له .

٣ – أنه لم يشارك فى الحياة الثقافية والعامة عن طريق التفاعل المباشر فهو لم يقبل المشاركة فى أى ندوات أو مؤتمرات علمية أو حلقات بحث ونقاش ، واقتصر دوره على الاسهام بقلمه أحيانا .

٤ – لم يسمح له اعتزاله بأن يكون على صلة بما يجرى فى الجامعات ومراكز البحث العلمى من دراسات غير منشورة ، وخاصة رسائل المـاجستير والدكتوراه ، وتكفى هنا الاشارة الى أن قائمة مراجعه الضخمة التى ترد فى نهـاية الجزء الرابع من كتـابه شخصية مصر لا تتضمن سوى رسالة واحدة لدكتوراه قدمت الى احدى الجامعات المصرية .

٥ – كان من نتـائج الاعتزال أيضا أن كثيرا من المصادر الحديثة فى كـل من اللغة العربية واللغات الاخرى لم تصل اليه ، ولهذا فان النسبة الكبرى من مصادره التى ترد فى معظم كتاباته تقف عند ١٩٦٣ أو ١٩٦٤ ، وعلى سبيل المثال فان من بين مصادره بغير العربية فى كتـابه الضخم شخصية مصر ، والتى تصل الى ٧٩١ مصدرا لا يوجد سوى ٤٧ مصدرا ترجع الى ما بعـد عام ١٩٦٤ وكذلك لا يوجد من مصادره العربية البـالغة ٢٤٥ مصدرا سوى ٢٤ مصدرا ترجع الى ما بعد عام ١٩٦٤ .

٦ – فى الوقت الذى نجد فيه بعض المصادر التى رجع اليها ، والتى ترجع الى ما بعد ١٩٦٤ من المصادر الثانوية أو خفيفة الوزن أحيـانا ، فاننا نجده لا يشير الى مصادر أخرى فى الموضوعات التى يعرض لها ، وذلك بالرغم من وزن هذه المصادر الذى يجعلها فى صف الاضافات العلمية المتميزة ، ولهذه المتناقضة سببان أحدهما شخصى ويرجع الى رأى حمدان فى بعض الذين تجاهل مؤلفاتهم عن عمد ، والآخر هو أن بعض الانتاج كان يصله أحيانا دون أن يسعى هو اليه ، وهكذا نجد أنه كان أحيانا متحاملا وأحيانا أخرى مجاملا ، وهو فى النهاية انسان على كل حال .

وبعـــد

فقد ذهب جسد جمال حمدان ، ولكن ستبقى آثاره التى خلفها من انتاج راق متميز ، يعجز عن الاتيان بمثله الكثيرون ، ولهذا فان حمدان سيبقى حيا ما بقى انتاجه مثـــارا للدرس والنقاش ، وليتنا نتأسى بدأبـــه وجلده وصبره وما وصل انتاجه اليه من مستوى ، ونترك ما يتصل بشخصه الذى ذهب ونفكر فى فكره الذى أنتج ووهب .

قائمة ببليوجرافية بمؤلفات الدكتور جمال حمدان

أولا : المقــالات بالعربية :

١ – هذه الجغرافية ، مجلــة مرآة العلوم الاجتماعية ، العــدد الاول ، السنة الاولى ، ١٩٥٧ .
٢ – فى العلاقات بين السكان والتضاريس ، دراسة فى جغرافية السكان ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٩ .
٣ – التخطيط الاقليمى بين موارد الميــاه والسكــان فى مصر ، مرآة العلــوم الاجتماعية ، السنة الثانية ، العددان ٤ ، ٥ ، ١٩٥٩ .
٤ – نمو وتوزيع السكان فى مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
٥ – تخطيطنا الادارى فى ضوء الحكم المحلى ، مرآة العلوم الاجتماعية ، السنة ٣ ، ١٩٦١ .
٦ – أسماء الأماكن فى العالم العربى ، مرآة العلوم الاجتماعية ، السنة الرابعة ١٩٦٣ .
٧ – مورفولوجية الشام ، مرآة العلوم الاجتماعية ، ١٩٦٤ .
٨ – جغرافية الثورة ، مجلة المجلة ، عدد ٨٨ ، ابريل ١٩٦٤ .
٩ – نحو مدرسة عربية فى الجغرافية ، مرآة العلوم الاجتماعية ، ١٩٦٤ .
١٠ – الزراعة فى سوريا ، مرآة العلوم الاجتماعية ، ديسمبر ١٩٦٥ .
١١ – الصناعة السورية ، مرآة العلوم الاجتماعية ، مارس ١٩٦٦ .
١٢ – حول وحدة الرافدين والنيل ، دراسة علمية لقوة العراق الاستراتيجية ، الفكر المعاصر ، عدد ١٢ ، ١٩٦٦ .
١٣ – حول هذا الحلف الاسلامى ، مجلة المجلة ، العدد ١١٥ ، يوليه ١٩٦٦ .
١٤ – نافذة على البحر الاحمر ، القصير لابرنيس ، الكاتب ، عدد ٦٢ ، ١٩٦٦ .
١٥ – من جغرافية الاسلام ، دراسة رائدة عن توزيع المسلمين فى العالم ، الفكر المعاصر ، العدد ٢٠ ، ١٩٦٦ .
١٦ – الوحدة العربية بين مقوماتها ومعوقاتها ، الكــاتب ، عدد ٥٩ ، فبراير ١٩٦٦ .
١٧ – ليس اليهود من بنى اسرائيل ، دراسة علمية لأسطورة الأصل اليهودى ، مهداة الى سارتر ، الفكر المعاصر ، فبراير ١٩٦٧ .
١٨ – الأردن دراسة فى الجغرافيا السياسية ، الكــاتب ، العددان ٧٠ و ٧١ (مقالان) ١٩٦٧ .

١٩ – القاهرة الكبرى ، دراسة فى جغرافية المدن ، مقدمة لكتاب ديزموند ستيوارت ، القاهرة ، ترجمة يحيى حقى ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة، مارس ١٩٦٩ .

ثانيا : الكتب المنشورة باللغة العربية :

١ – دراسات فى العالم العربى ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .
٢ – أنماط من البيئات ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣ – جغرافية المدن ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١ .
٤ – المدينة العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٣ .
٥ – بترول العرب ، دراسة فى الجغرافيا البشرية ، القاهرة ، دار المعرفة ١٩٦٤
٦ – الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٥ .
٧ – افريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
٨ – اليهود أنثرولولوجيا ، القاهرة ، المكتبة الثقافية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فبراير ١٩٦٧ .
٩ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، كتاب الهلال ، ٥ يونيه ١٩٦٧ .
١٠ – استراتيجية الاستعمار والتحرير ، كتاب الهلال ، ابريل ١٩٦٨ .
١١ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠ .
١٢ – العالم الاسلامى المعاصر ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧١ .
١٣ – الجمهورية العربية الليبية ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ١٩٧٣ .
١٤ – بين أوربا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٢ .
١٥ – ٦ اكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٤ .
١٦ – قناة السويس نبض مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٥ .
١٧ – من خريطة الزراعة المصرية ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٣ .
١٨ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الاول ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٠ .
١٩ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، عالم الكتب القاهرة ١٩٨١ .

٢٠ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثالث ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٤ .

٢١ – شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الرابع ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٤ .

ثالثـــا : مؤلفــات باللغة الانجليزية :

1. Studies in Egyptian Urbanism, El Nahda Booksop, Cairo, 1959.
2. Some Aspects of the Urban Geography of the Khartoum Complex, Bull. Doc. G'og. d'Egypte T. 32. 1959.
3. The Growth and Functional Structure of Khartoum, Geographical Review, vol. 50, 1960.
4. «Evolution of Irrigation Agriculture in Egypt», in «History of land Use in Arid Regions», UNESCO, Paris, 1961.
5. The Pattern of Medieval Urbanism in the Arab Warld, Geography, April, 1962.
6. The Political map of The New Africa, Geographical Review, vol. 53, 1963.
7. Sizes of African Capitales, Bull. Soc. Geog. al'Egipte, vol. 36, 1963.
8. Capitals of The New Africa, Economic Geography, vol. 40, 1964.

أ. د. أحمد على اسماعيل

دور مصر الثقافى فى العصر اليونانى الرومانى فى ضوء آراء جمال حمدان

يرى جمال حمدان « المجلد الرابع ص ٤٤١ وايليها » أن مصر تنتمى لحوض البحر المتوسط أكثر من انتمائها لافريقيا ، وأن أهمية البحر المتوسط لمصر تكمن فى أن أوربـا هى أقرب قارة لهذا البحر . البحر اذن بـالنسبة لمصر هو forland وأوربا بمثـابة hinland ويقول جمال حمدان ان طه حسين كان أول من لفت الأنظار وأثار الاهتمام لأهمية البحر المتوسط بالنسبة لمصر وذلك فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر .. وهو يعبر عن ذلك بكـل وضوح حينما يقول ان البحر المتوسط يقود مصر لا محالة الى أوربا .

أما حسين مؤنس فيؤكد بدوره هذه الفكرة ومن رأيـه أن مصر تزدهر حينما تجد منفذا تطل منه على البحر مثل الاسكندرية ، أما حينما تهمل البحر فان هذا الازدهار ينحسر .

ومن ناحية أخرى فان جمال حمدان يرى البحر المتوسط انمـا هو بحر أوربى افريقى وليس بحرا أوربيـا فقط ، ومن رأيه أن أول اتصال تاريخى تم بين مصر وأوربا كان مع اليونـان «ص ٤٤٩» ، وأن الاغريق أنفسهم اعتادوا أن يعتبروا أن مصر تنقسم الى قسمين مصر الأوسطية أو مصر الدلتا ومصر الافريقية أو الصعيد ، واعتبروا الاسكندرية بمثابة الرأس بالنسبة لمصر . ويرى حمدان أنه خلال العصر القبطى كانت الصلة بين مصر وبيزنطة أقوى من صلتها بروما .

باختصار كان البحر هو النافذة التى تطل منها مصر على الشمال وكان مرادفا لأوربا ، وكانت رغبة اسماعيل باشا فى تحويل مصر أو جعلها قطعة من أوربا دليلا أو مؤشرا على هذا الاعتقاد فى رأى حمدان «ص ٤٥٤» .

ولقد استطاع حمدان بدلائل عديدة أن يتوصل الى حقيقة مؤداها أن مصر تمتلك موقعا فريدا فى المنطقة وأن ذلك يرجع فى رأيه لسببين وظاهرتين متميزتين : أولاهما أن وادى النيل كان أكثر جاذبية من البحر ، والثـانية أن مصر منذ بدء تاريخها

كانت دولـــة موحدة ولم تكن دولـــة مدينة كما هو الحال عند الاغريق . ويضيف حمدان أسبابا أخرى منها أن كثافة السكان فى دول أوربـــا كانت عند الشواطىء « السواحل » بينما كانت فى مصر فى الداخل . وأن ثالوث البحـ رالمتوسط الغذائى « القمح ــ الزيتون ــ العنب » لم يكن سائدا فى مصر كما هو الحال فى بلاد البحر المتوسط الشمالية . وبناء على ذلك فان حمدان يعتقد أن صلة مصر ببـــلاد البحر المتوسط رغم أهميتها لم تكن أحادية أو تمضى فى اتجاه واحد لا سواه «ص ٤٤٩».

ويعتقد جمال حمدان أن السمة الاساسية الثانية فى شخصية مصر هى التوسط والاعتدال — ويرى أن التوسط ينتمى فى الأعم الى الارض وأن الاعتدال ينتمى الى البشر ، وأن التوسط ظاهرة جغرافية تخص المكان والاعتدال ظاهرة بشرية تخص السكـــان . ومن رأى حمدان أن هذه السمة فيمـــا يخص الدين تتجلى فى انتشار الديانات بمصر وتعـــاقبها وأنه عندما ينتشر دين جديد بهـــا ويصبح هو السائد المسيطر فانه لا يمحو ولا يزيل الأديان السابقة عليه « ص ٥٠٨ » : فمصر كانت مهدا للأديان السماوية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والاسلام . كما أنه يبين أن التحول من دين الى آخر لم يكن تحولا سريعا كان يتم عبر قرن أو قرنين من الزمان بما يسمح بوجود هذه الاديان معا بغير صراع أو استئصال لشأفة الدين المنافس . ويستنتج حمدان أن التوسط يرتبط بعبقرية المكـــان أما الاعتدال فيرتبط بعبقريـــة الانسان .

ويعدد جمال حمدان المظاهر الرئيسية لشخصية مصر ويرى أنها تتجلى فى التالى: الميل الى القديم ــ المحافظة ــ الاعتدال ــ التمسك بالواقع ــ اللامبالاة «ص ٥٢٣» وهذه المظاهر فى رأيه تتفاوت ما بين القوة والضعف ما بين الايجابية والسلبية . وأهم مظهر فى اعتقاده من بين هذه المظاهر الخمسة هو الاعتدال .

أما الميل الى التدين فهو ظاهرة متأصلة فى الشخصية المصرية على حين ترمى المحافظة أو الاتجاه المحافظ الى الاستقرار ، ومن رأيه أن هذه السمة الاخيرة ليست عنصرا انطوائيا بقدر ما هى عنصر انبساطى فى الشخصية المصرية . ولأن المصريين يتمسكون بالاعتدال فان هذا يقودهم الى الاتجاه الواقعى أو البراجماتى فى سلوكهم فى الحيـــاة . والمصريون يرفضون الفرقـــة أو التمزق ويرفضون الصراع والعنف ويميلون الى السلام ويفضلونه على الحرب «ص ٥٢٧» .

ولم يعرف المصريين طوال تاريخهم الطويل ما يعرف باسم عقدة الخوف من الأجانب كما لم يعانوا سواء من عقدة التفوق أو من عقدة النقص عند تعاملهم مع الأفارقة أو الاوربيين سواء بسواء . والحياة فى مصر تعكس نوعـــا من التسامح الدينى «ص ٥٨٠» فمصر كانت دوما مكانا خصبا لازدهار العقائد الدينية ونموها. ويتجلى هذا فى انتشار الديانات السماوية الثلاث على أرضها دون تنازع ولا تناحر ولا انقسام .

وهناك نوع من التوازن الثقافى يوجد فى مصر فالقديم والحديث يعيشان جنبا الى جنب سواء فى القرية بنزعتها المحافظة أو فى المدينة الميالة الى التجديد والتحديث ولقد تقبـل المصريون طوال تاريخهم الجديد دون أن يتنكروا للقـديم «ص ٥٣٤» والاعتدال سمة مصرية أصيلة فالمصريون يرفضون التطر فـالدينى ويدينونه . وقد يرجع الفضل فى ذلك الى مناخ معتدل مستقر له صفة الدوام والى عناصر ومظاهر جغرافية لا تتسم بالشذوذ . كما يلعب النيـل دورا كبيرا فى هذه السمات المميزة للشخصية المصرية .

ويختتم حمدان حديثه بأن الاستمرارية سمة أخرى مميزة للشخصية المصرية ، وهى سمة تنعكس سواء من الارض أو من البشر ، ولكنه يلاحظ بذكـاء شديد أن السمة المخالفة للاستمرارية وهى الانقطـاع موجودة أيضا وبصورة واضحة فى الشخصية المصرية . ويعتقـد حمدان أن الانقطـاع يمكن أن يكون ملحوظـا أو محسوسا فى مظاهر الحياة المادية ، أما الاستمرارية فهى تظهر فى المظاهر الثقافية: وعلى حسب تعبيره الاستمرارية تنتمى للحضارة والانقطاع ينتمى للثقافة .

والسمة الأخيرة هى التى تظهر بوضوح فى دور مصر الثقافى فى العصر اليونانى الرومانى فمنذ أن أصبحت الأوراق البردية أهم مادة للكتابة فى العـالم القديم ، وبعد أن عم انتشارها فى بلدان البحر المتوسط راجت سوق الكتاب وأصبح بوسع الأفراد كما هو بوسع الهيئات أن يقتنوا مكتبات خاصة . ولا ريب أنه كانت هناك دار لحفظ الوثائق الرسمية والنصوص القديمة فى أثينـا لأن الحاجة كانت ماسة للحفاظ على نصوص المسرحيات التراجيدية وغيرها من النصوص ذات الاهمية ، وبدون ذلك كان من العسير أن تصل هذه النصوص الى العصر اليونانى الرومانى .

ومن الاهمية بمكان أن نتحدث هنا عن الدراسات الأدبية التى تمت بالاسكندرية داخل أروقة الموسيون الذى كان مركزا للبحث فى كـل من العلوم والآداب سواء بسواء ، كما كان علماؤه يجمعون أحيانا بين هاتين الصفتين . ونضرب مثلا على ذلك بالعالم اراتوسثينيس Eratosthenes الذى كان شاعرا وأديبا ، وكان فضلا عن ذلك من أعظم علماء عصره فى الجغرافيا والرياضيات : فهو أول من تمكن من قياس محيط الكرة الارضية بدقة تدعو الى الاعجاب قبل قرون من ظهور العـالم كوبرنيكوس .

وكانت مكتبة الاسكندرية الشهيرة الملحقة بمبنى الموسيون مخصصة لاستخدام الباحثين من العلماء والفقهاء البارزين، وهى المكتبة التى عرفت باسم المكتبة الملكية والتى تعزى فكرة انشائهـا الى ديمتريوس الفاليرى Demetrius Phalereus تلميذ ثيوفراستوس الذى خلف أرسطو فى رئاسة مدرسة المشائين Peripatetikoi

ولقد ضاقت هذه المكتبة بما حوت من كتب مما أدى بالبطالمة الى انشاء مكتبـة أخرى ألحقت بمعبد السرابيوم فى زمن لاحق . ولا ريب أنه بذلت جهود مضنية فى

القديم من أجـ تصنيف هذه المكتبة الكثيرة وفهرستها حتى يتمكن البـاحثون من الاستفادة منها ، ولسنا نعرف على وجه الدقة كيف تم تصنيف هذه المكتبة فى ذلك العصر ، ولكن الاشارات الواردة فى المصادر القديمة تذكر أن كاليماخوس زعيم البرنـاس السكنـدرى وأمير شعراء عصره هو الـذى اضطلع باعـداد القوائم الببليوجرافية لكتب هذه المكتبة ، وأنه سجل هذه القوائم فى نحو مائة وعشرين لفـافة بردية .

والى جانب ما قام به كاليماخوس من جهد فائق أخذ باحثون آخرون من الأدباء وغيرهم على كاهلهم عبء اعداد تصنيف نوعى للكتب الموجودة فى مكتبة الاسكندرية مثل تصنيف مؤلفات التراجيديا أو الكوميديا أو الشعر الغنائى أو الملاحم . ومن المشاكـل التى واجهت علماء الموسيون أن الكتب قديما كانت على شكل لفافـات بردية تنسخ باليد ، وأن مستوى نساخها كان يتذبذب بين التفوق والافتقـار الى الدقة . ومن أجـل هذا كانت النصوص القديمة عرضة للتحوير والـدس بسبب الأخطاء التى كان يرتكبهـا النساخ ، وكان لزاما على البـاحثين آنذاك القيـام بتصويبها ومراجعتها كى يصبح فى وسع القارىء أن يحصل فى نهـاية الامر على نسخة خالية من الاخطاء ما أمكن ذلك . ولحسن الحظ فقد أدت مثل هذه الصعوبات الى تقدم مطرد فى مناهج تحقيق النصوص القديمة ونشرها .

وليس من قبيل المصادفة أن خمسة من القائمين بالاشراف على مكتبة الاسكندرية القديمة وهم زينودوتوس Zenodotos أبوللونيوس الرودى Apllonios Rhodios اراتوسثينيس ، أرستوفـانيس البيـزنطى Aristophanes of Byzantium وأرساترخوس Aristarchos كانوا من الشعراء ورجـالات الادب فى عصرهم ، واليهم يعزى الفضل الاكـبر فى التقدم الملحوظ الذى طرأ على منـاهج الدراسات الأدبية . وكان ما وصل الى العصور الوسطى من النصوص الموثقة والمحققة ثمرة لجهودهم وبفضل علمهم . لقد كان هدف علماء الاسكندرية ـ فيما هو مرجح ـ أن يوفروا للمهتمين نصوصا يعتمد عليها لكل الكتاب الاغريق أو لمعظمهم .

والى جانب هذا الهدف الجليل والصعب فى الوقت نفسه وضع علماء الاسكندرية نصب أعينهم أن يتم نسخ مؤلفات الأدباء الاتيكيين من الأصول المعتمدة من النسخ المنقولة ، واستعانوا فى تحقيق هذه النصوص باستخدام علامات الترقيم والنبرات التى كان الهدف منها توضيح النطق السليم للكلمات والتى عزى فضل ابتكارها الى الناقد الفذ أرستوفانيس البيزنطى . ومن الجدير بالذكر الفـائدة أن من هذه العلامات والنبرات قد عادت على العصور الحديثة بفضل أكثر مما أفادت القدماء ، اذ لم يعم استخدامها بشكل ملحوظ الا فى بداية القرن العاشر الميلادى . ولما كان تحقيق النصوص يظفر لدى القدماء بأهية أكثر فان شرح النصوص والتعليق عليها كان يأتى فى المرتبة التـالية ، ومن هنا نشأت الحواشى والتعليقات Scholia التى كانت خير معين لنا على فهم كثير من النصوص القديمة . وأهم الكتب التى

صدرت فى هذا المجال كتاب الناقد زينودوتوس عن هوميروس ومقاله عن الزمن الداخلى لأحداث الالبـاذة ، وكتاب أرستوفانيس البيزنطى عن القيـاس النحوى وكتابه الذى أكمل فيه قوائم كاليماخوس البيليوجرافية .

وكان من عادة علماء الاسكندرية اثارة الشك فى النصوص المنقولة واستبعاد أبيات منها بزعم أنها منحولة ، لكن الأسس التى دفعتهم الى استبعاد مثـل هذه الأبيات رغم وجاهة بعضها قد لا تقنع باحثينا المحدثين تماما . ورغم ذلك فليس بوسعنا سوى أن نبدى اعجابنا بكثير من التعليقات التى تدل على قوة فكر هؤلاء العلمـاء ورجاحة عقلهم ونفـاذ بصيرتهم . ومن أهم الآراء التى توصل اليهـا أرستارخوس فى هذا الصدد هو الاستدلال على صحة نسب لفظ أو تعبير ما فى أعمال أحد الأدباء من خلال أعماله الاخرى وهو ما أسماه : « الاستدلال على هوميروس من خلال أعمـال هوميروس » . كما كان هؤلاء العلمـاء يمتلكون الحس الادبى الأصيل الذى يمكنهم من الحكم على جمال فقرة أو امتياز موضوع أو روعة تعبير .

ولا ينبغى فى هذا المقـام أن نتجاهل الجهود التى تمت فى علـم النحو على يـد أرستارخوس الذى أسهم فى ارساء قواعد هذا العلم ووضع تعريفاته ومهد بذلك كى يضع تلميذه ديونيسيوس الثراقى Dionysios Thrax « ١٧٠ – ٩٠ ق.م. » أول أجرومية للنحو اليونانى ، وهو كتاب ظل رغم صغر حجمه العمدة والأساس فى علم النحو حتى العصور الحديثـة وترجم الى السريانية والأرمنيـة . وأعظم علماء العصر السكندرى فى مجال التعليقات ديديموس Didymos الذى نسبت اليه المصادر المتأخرة تأليف ما يربو على ٤٠٠٠ كتاب ومعجم ولقبه مؤلف معجم سويداس بلقب صاحب الأحشاء الحديثة Khalkentros

هذه الدراسات العلمية التى تتميز بالغزارة والاتقان فى آن واحد تمخضت بعد قرنين من الزمان عن عدد هائـل من البرديات الأدبية التى وصلتنا خلال القرون الثلاثة التالية للميلاد وما بعدها . ولقد بلغ عدد النصوص الادبية التى وجدت على الأوراق البردية وتم نشرها ما يقرب من ٤٠٠٠ نص منها ما يقرب من ٨٠٠ نص لهوميروس وحده . ولا ريب أن سياسة روما فى مصر كانت ذات أثر كبير فى تعزيز الثقافة الاغريقية ونشرها بمختلف الوسائل ، وكان ذلك فى المقام الاول يرجع الى رغبة الادارة الرومانية فى ازدياد دور عواصم الأقاليم وازدهارها ليقبل الاغريق والمتأغرقين على الاستيطان بها ، وكان هؤلاء يكونون نواة الطبقة التى كانت تعول عليها روما كهمزة وصل بين الادارة الرومانية الحاكمة وبين سائر المصريين .

وبالاضافة الى نصوص الشعراء الاغريق القـدامى بدءا بهوميروس وانتهـاء بمناندروس وكتاب العصر السكندرى نجد أن البرديات المكتشفة بأرض مصر قد أمدتنا بنصوص لمؤلفات أدبية وغير أدبية فى مجال الفلسفة والخطابة والتـاريخ والجغرافيا وكتـابة السيرة وعلم النحو والفلك والطب والرياضيات والكيمياء

وعلم الحيوان والأدب اللاتينى والقانون الرومانى ونصوص من الانجيل وأعمال الرسل ونصوص فى الزراعة والعرافة وفن كتابة الرسائل والتشريع والموسيقى والنقد الأدبى وتعليم المصارعة وفن الطهى والصيد وتعليم الاختزال وتحسين الخطوط والأساطير بخلاف عدد كبير من النصوص المدرسية . أما فى الأدب فهناك نصوص فى الملاحم والشعر الغنائى والشعر الرعوى والتراجيديا والكوميديا والمسرحيات الساتيرية والميميات والابجرامات والهجاء والأشعار الحكمية وأدب الخرافات .

وكان الفضل الاكبر فى وجود مثل هذا العدد الهائل من النصوص التى تدل على تنوع الثقافة ورواجها والتى توضح اهتمام العصر بانتشارها يعزى الى اهتمام مؤسسات علمية راسخة مثل الموسيون والمكتبة الشهيرة . ولكن فضلا عن هذه المؤسسات العريقة ودورها الرائد فهناك دور آخر قامت به دور النسخ فى المدن الكبرى وعواصم الأقاليم ذات الأهمية المتزايدة خلال العصر اليونانى الرومانى . فقد كانت هذه الدور تعمل بهمة لا تعرف الكلل فى نسخ النصوص القديمة وتداولها وانتشارها ، وكان أكبر عون لها فى هذا النشاط وجود طبقة عريضة من القراء محبى الثقافة الهيلنية ومن الدارسين لها من الطلاب .

فضل مصر اذن يتمثل دون جدال فى المساهمة والمشاركة فى تدفق الثقافة .. دورها يتمثل فى استمرارية – continuity وفقا لتعبير جمال حمدان – وانتشار هذه الثقافة بصورة يندر أن يوجد لها مثيل فى التاريخ . وهو فضل يتمثل أيضا فى حفظ conservation كنوز هذه الثقافة للعصور الحديثة وصيانتها من الضياع هذا فضلا عن مساهمة مفكرين مصريين من أمثال مانيثون المؤرخ وغيره فى مد هذه الثقافة بكثير من الافكار الخلاقة فى عدد من ميادين الفكر والعلم والأدب وبوجه خاص فى مجال الديانة المسيحية .

ذلك أن طابع الحضارة المصرية – كما يقول جمال حمدان – وكما نعتقد نحن أيضا كان دائما وسيظل أبدا يقوم على الحفظ والبناء لا على الهدم والتدمير . ولم تكن الحضارة المصرية على مر العصور تفرق فى هذا الدور بين ثقافتها الخاصة وثقافة غيرها من الشعوب ، بل كانت سياستها متعادلة بين كافة الثقافات سواء بسواء .

وهذا سر من أسرار عظمة الحضارة المصرية التى أثبتت على مر العصور أنها وان أعاقتها النكبات والصعوبات عن أن تضرب بسهم وافر فى الخلق والابداع ، فلا أقل من أن تضطلع بصيانة الثقافة وحفظ تراث الانسانية من الضياع .

الدكتور محمد حمدى ابراهيم

شخصية مصر فى العصر اليونانى الرومانى

من خلال رؤية جمال حمدان

يعد العصر اليونانى الرومانى من أخصب عصور التاريخ المصرى . فقد شهد هذا العصر امتزاج حضارتين من أعظم حضارات الانسانية . وهما الحضارة المصرية والحضارة الاغريقية . فقد ضربت الحضارة الاغريقية بجذورها فى أعمق الواقع المصرى . وبنفس القدر استطاعت الحضارة المصرية أن تأسر الاغريق الذين استقروا فى مصر . لذا فاننا لا نتفق مع جمال حمدان عندما يرى أن الهللينية ـ أى الحضارة الاغريقية ـ ظاهرة عابرة فى حياة مصر. وبخاصة اذا ما أخذنا فى الاعتبار مدى طول الزمن الذى استغرقه العصر اليونانى الرومانى من تاريخ مصر (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن العصر اليونانى الرومانى بدأ بدخول الاسكندر الاكبر الى مصر فى عام ٣٣٢ ق. م. وبعد وفاته انهارت الامبراطورية العظيمة التى أقامها . وقام قادة الجيش المقدونى باقتسام ولايات الامبراطورية فيما بينهم . حيث آلت مصر الى أحدهم ويدعى بطيلميوس بن لاجوس . الذى أسس مملكة أورثها لخلفائه من بعده . وكانوا جميعا يحملون اسم بطليموس . لذلك يطلق على هذا العصر اسم دولة البطالمة . وكان آخر حكام مصر من هذه العائلة الملكة كليوباتره السابعة ، التى انتحرت فى عام ٣٠ ق. م. بعد أن دخل القائد الرومانى أوكتافيانوس الى الاسكندرية . وخلال عصر البطالمة وفدت الى مصر

---

(١) عن تاريخ مصر فى العصر اليونانى الرومانى انظر : مصطفى العبادى . مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٥ .

مما هو جدير بالذكر أن كلمات يونانى واغريقى وهللينى تدل على معنى واحد تقريبا . ولعل الصفة الاخيرة هى أدق هذه الصفات لأن أصحاب هذه الحضارة كانوا يستخدمونها أما الصفات الأخرى فقد أطلقت عليهم بواسطة شعوب أخرى .

أعداد كبيرة من الاغريق للاستقرار بها (٢) . حيث لقوا ترحيبا من البطالمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر جزءا من العــالم الاغريقى ليس على الصعيد السياسى فحسب بل على الصعيد الحضارى أيضا . وقامت مدينة الاسكندرية بدور الجسرالحضارى بين مصر والعالم الاغريقى (٣) . وقد ظلت الحضارة الاغريقية تنعم بمكانتها الرفيعة حتى بعد سقوط دولة البطالمة ، ودخول مصر فى حوزة الرومــان ، لأن هؤلاء الاخيرين كـانوا شديدى الاعجــاب بالحضارة الاغريقية . بل ان اعجاب بعض أباطرة الرومان بهذه الحضارة وصل الى حد الهوس (٤) .

كانت هذه مقدمة ضرورية قبل الحديث عن شخصية مصر فى العصر اليونانى الرومانى . من خلال رؤية جمال حمدان . كما جاء فى كتاب « شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان » . والحقيقة أن القارىء لهذا الكتاب لابد وأن يشعر بمتعة كبرى مردها الى تلك السياحة التى يصحبه فيها المؤلف عبر شخصية مصر وهى ليست سياحة جغرافية فقط . بل هى مزيج متناغم بين السياحة التاريخية والجغرافية . وهو أمر لا يستطيعه الا باحث مثل جمال حمدان . وهو هنا يعبر بصدق عن العلاقة الحميمة التى تربط بين التاريخ والجغرافيا عندما يقول (٥) « ربما تكون الجغرافيا صماء ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها » .

والواقع اننى قد لا أبالغ اذا ذكرت أن كتــاب شخصية مصر يخاطب جميع الباحثين مستخدما لغة كل واحد منهم . ولابد أن المتخصص فى علم الاجتماع أو الاقتصاد أو الأدب أو غيرها من التخصصات قد شعر بما شعرت به كدارس للتاريخ ، وهو احساس بأننى أقرأ لمؤرخ . لذا فان كتــاب شخصية مصر ينبغى أن يفتح الباب لدراسات شتى حول شخصية مصر فى كافة المجالات . ففى مجال الدراسات التاريخية ينبغى أن توضع مؤلفات عن شخصية مصر فى كل عصر من العصور . ومما هو جدير بالذكر أن مبعث الاعجاب بكتاب شخصية مصر ليس فقط تلك الافكار والدراسات العظيمة التى يحتويها . بل أيضا تلك اللغة الرشيقة التى كتب بها . فهى لغة راقية تكاد أن تجعل من هذا الكتاب عملا أدبيا

---

(٢) انظر : Bowman A. K; Egyp after the Pharaoh. London, 1986, pp. 121 ff.

(٣) عن الاسكندرية فى العصر البطلمى انظر :
Fraser P. M; Ptolemaic Alexandria. Oxford, 1972.

(٤) جمــال حمدان . شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكــان . مكتبــة النهضة العربيــة القاهرة ١٩٧٠ .

(٥) على سبيل المثال الامبراطور نيرون والامبراطور هادريان انظر :
سيد الناصرى . تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى : دار النهضة العربيــة ، القاهرة ١٩٧٥ ص ١٣٧ ، ٢١٢ .

خالصا . فان للكتــاب لغته المتميزة . ولديه قدرة غير عادية على تطويع اللغة للتعبير عن وضعيات من أشد العلوم تجهما وصرامة . وهو علم الجغرافيــا . ومن هذا المنطلق فانه اذا كان بعض الباحثين قد أطلقوا على الدكتور زكى نجيب محمود لقب أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء . فاننا يمكن أن نطلق على جمال حمدان لقب أديب الجغرافيين وجغرافى الأدباء (٦) .

وقبل أن يفتح القارىء كتاب شخصية مصر فانه لابد وأن يقف متأملا عنوان الكتاب . وربما تساءل اذا كان المرء قادرا على دراسة شخصية فرد بعينه ـ وهو أمر ليس باليسير ـ فكيف يتسنى دراسة شخصية أمة بأسرها . وبخاصة مصر ذات التركيبة الخاصة ، ولكن جمال حمدان قــام بهذه المهمة باقتــدار شديد . ويستطيع القارىء أن يلمس بسهولة مدى تعمق هذا المفكر فى دراسة تاريخ مصر عبر العصور المختلفة . وقد يكون هذا أمرا متوقعا من رجل أحب بلــده حتى آخر لحظات عمره . ولكن مما يستلفت النظر أيضا تلك الثقافة الرفيعة والدراية التى تدخرت لهذا المفكر فى تاريخ الشعوب الأخرى . فقد أثار انتباهى عبــارة وردت عند جمال حمدان عند حديثه عن البعد الاسيوى فى توجهــات مصر ، اذ يقول (٧) « ولهذا كانت تقف على بوابة أفريقيا وتنظر الى نافذة آسيا ، ومن هنا كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابتها الرئيسية ومدخلها الاول . وكان بجداره ـ ترموبيل مصر ـ منه دخلت جميع الموجات التى اكتسحت البلاد فيما عدا أقلية نادرة أتت من الغرب » . وهذه العبارة ربما مر عليها القارى ءمرور الكرام . ظن أن كلمة تردوبيل هذه مجرد اصطلاح علمى من الاصطلاحات التى يزخر بها الكتاب . ولكن الواقع أن المقصود هنا هو ممر « ثرمو بيلاى » الذى يقع فى بــلاد الاغريق . والذى دخــل الفرس من خلاله عند اقتحــامهم لبلاد الاغريق واحتلالهم لها فى عام ٤٨٠ ق. م. وهى الفترة المعروفة فى تاريخ الاغريق بفترة الحروب الفارسية (٨) .

وينبغى أيضا أن نتوقف عند مقولة ذكرهــا جمال حمدان فى المقدمة ، وهى قوله أن مصر فرعونية بالجد . ولكنها عربية بالأب . ويمكن أن نضيف الى هذه العبارة أنها يونانية رومانية بالتصاهر أيضا . وقد يقول قائل ولمــاذا لا تكون فارسية أو عثمانية مثلا . وللاجابة على هذا التساؤل نقول أن الامر هنا يختلف.

---

(٦) ينبغى أن أشير الى أن الكثيرين من الجغرافيين يتمتعون بهــذا الحس اللغوى المتميز . ولابد أن أسجل اعجابى مثلا بلغة الدكتور محمد عوض فى كتابه عن نهر النيل .

(٧) جمال حمدان . المرجع السابق ص ٤١٧ .

(٨) انظر : سيد الناصرى . الاغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨١ ص ٥٣٠ – ٢٥٥ .

فان الاغريق عندما وفدوا الى مصر كانت حضارتهم قد بلغت شأنا كبيرا . وبخاصة فى مجال الفنون والآداب والفلسفة . وهو ما لم يتحقق للعثمانيين الأتراك الذين وجدوا مصر وشعبها أكثر حضارة منهم . لذا كان حرص السلطان العثمانى كبيرا على ارسال أكبر عدد من الحرفيين المصريين الى الاستانة . كما أن ارتباط مصر بالعالم الاغريقى لمدة طويلة ، هيأ الفرصة للانصهار الحضارى بين مصر وبلاد الاغريق لكى ينضج . وهو ما لم يتوفر للحكم الفارسى مثلا الذى لم يأخذ وقتا طويلا . كما أنه كان حكما قشريا الى حد كبير . ولم يهتم بالتغلغل فى جذور التربة المصرية .

ولعل الحديث عن ارتباط مصر بالحضارة الاغريقية يقودنا بدوره الى الحديث عن الابعاد الأربعة فى توجهات مصر الخارجية كما ذكرها جمال حمدان وهى البعد الآسيوى والبعد الافريقى والبعد النيلى والبعد المتوسطى . ويقول جمال حمدان أن مصر بجسمها النهرى قوة بر ولكنها بسواحلها قوة بحر . والسؤال الذى نطرحه الآن هل كانت مصر خلال العصر اليونانى الرومانى قوة بر أم قوة بحر ؟ . وهل أدى ارتباط مصر بالعالم اليونانى الرومانى الى تغيب احدى الصفتين على الأخرى . ونحن هنا نهتم بطرح هذا السؤال فيما يتعلق بالقوة الاستراتيجية .

يقول جمال حمدان (٩) « من بين البعدين القاريين ـ أى البعد الافريقى والبعد الاسيوى ـ يذهب الثقل والخطر دائما للبعد الاسيوى الذى يأتى مبكرا باستمرار بينما يغلب أن يتأخر البعد الافريقى زمنيا . فرغم أن مصر فى افريقيا موقعا فقد كانت فى آسيا وقعا . ففى علاقتها الخارجية كانت مصر القديمة آسيوية أكثر منها افريقية . والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال الشرقى . وان نظرة الى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة ، فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ، ولكنه يجنح بتميز واضح نحو الشرق . قل تقريبا بنسبة الثلث الى الثلثين ، ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلاشك اتجاهات التاريخ » .

والحقيقة أن تردد مصر ما بين قارتى آسيا وأفريقيا أمر شغل أذهان الجغرافيين القدماء أيضا . فان استرابون مثلا ، كان يرى أن النيل يقسم مصر الى قسمين (١٠) . القسم الشرقى ينتمى الى قارة آسيا ، والقسم الغربى تابع لقارة أفريقيا . واذا كان جمال حمدان يفسر جنوح مصر الى قارة آسيا

---

(٩) جمال حمدان . المرجع السابق ، ص ٤١٤ .

(١٠) Ball. J.; Egyp in the Classical Geographers. Cairo, 1942, p. 57.

بميل النيل الى الشرق ، فاننا يمكن أن نضيف سببا أقوى خلال العصر اليونانى الرومانى ، وهو أن النيل كان يصل الى شبه جزيرة سيناء من خلال أحد فروعه السبعة وهو الفرع البلوزى الذى كان يصل حتى مدينة بلوزيون (تل الغرما شرق بور سعيد) . وكان هذا الفرع يمثل خط الدفاع الاول عن مصر من جهة الشرق . كما أنه يجعل جزءا من شبه جزيرة سيناء يقع فى وادى النيل ويؤدى الى مزيد من الارتباط بين مصر وقارة آسيا . أما شواطىء البحر المتوسط فانها لم تكن تشكل نفس الأهمية التى كانت تحتلها سيناء باعتبارها قاعدة انطلاق للقوة العسكرية المصرية ، وهذا يعنى أن مصر حتى بدايات العصر اليونانى ظلت قوة بر فى المقام الاول .

وقد ظلت علاقة مصر بعالم البحر المتوسط حتى غزو الاسكندر الاكبر لها علاقة استقبال أكثر من كونها علاقة مبادرة . وتشير المصادر الى تعرض مصر خلال القرن الثانى عشر ق. م. لهجوم شعوب البحر ، وقد افتخر الفرعون رمسيس الثالث بأنه تمكن من صدهم قائلا « تآمرت شعوب أجنبية فى جزرها ، واجتمع عسكرهم فى بقعة واحدة فى آمور فشردوا أهلها ثم تقدموا نحو مصر . ولكن النار كانت على استعداد للقائهم .. وهكذا نظمت حدودى ، وأعددت أمامهم الامراء والقادة ، وأمرت بتحصين مصبات الانهار لتكون كالسد الكبير ، وزودتها بسفن وزوارق وناقلات جنود . فأما من أتوا بجموعهم عن طريق البحر فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الانهار ، وأحاط بهم على البر سد من الحراب ، واستدرجوا الى الداخل ، وحوصروا والقوا على وجوههم على الشاطىء ثم قتلوا وفرقوا اربا من القدم وحتى الرأس وغرقت سفنهم وامتعتهم فى البحر » (١١) .

كما وردت فى ملحمة الأودية لشاعر الاغريق هوميروس اشارات تدل على أن قراصنة الاغريق اعتادوا الاغارة على الشواطىء المصرية (١٢) ، الا أن قدوم الاغريق فى الفترة التالية كان سلميا ، فقد استعان ملوك الاسرة ٢٦ (٦٦٣ — ٥٢٥ ق. م.) بالاغريق للخدمة فى جيوشهم كجنود مرتزقة . كما أخذ التجار والملاحون الاغريق يتوافدون على مصر ، حيث أقاموا بعض المراكز التجارية . لعل أشهرها مدينة Naucratis (قرية كوم جعيف بمركز ايتاى البارود حاليا) . وقد ظلت هذه المدينة تحتل المركز التجارى الاول للاغريق فى مصر حتى انشاء الاسكندرية .

---

(١١) عبد العزيز صالح . الشرق الادنى القديم ، مصر والعراق ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(١٢) Odyssey XIV, 245 ff, XVII, 424, ff.

وبعد أن أصبحت مصر ولاية تابعة للامبراطورية الفارسية (٥٢٥ ق. م.) أخذ الاغريق يتدخلون فى شئون مصر الداخلية بهدف اثارة المتاعب لأعدائهم التقليديين أى الفرس . وفى هذا الاطار سارعت مدينة أثينا بتقديم المساعدة لأحد الأمراء المصريين الذى شق عصا الطاعة على الفرس .

وبهذا يمكن القول بأن جبهة البحر المتوسط حتى غزو الاسكندر الاكبر لم تكن تشكل أهمية فى الاستراتيجية المصرية ، ولكن على الرغم من أن هذا الغزو جاء فى أغلبه بريا الا أن هذا الفاتح كان يمثل قوة بحرية ، وهى القوة الاغريقية. كما أن غزو الاسكندر لمصر جاء فى اطار صراعه مع الدولة الفارسية ، ورغبة منه فى استئصال قواعد الاسطول الفارسى فى شرق البحر المتوسط ، أى أن انتماء مصر المتوسطى هو الذى جر عليها هذا الغزو الى حد كبير . ولكن هل ظلت مصر فى علاقتها بالبحر المتوسط فى وضع المستقبل خلال العصر اليونانى الرومانى ؟ .

الواقع أن مصر خلال هذا العصر انتقلت فى علاقتها بعالم البحر المتوسط الى أسلوب المبادرة ، فان الدول الهللينيتية التى قامت على انقاض امبراطورية الاسكندر ، ومنها دولة البطالمة فى مصر ، كانت ترنو ببصرها الى عالم بحر ايجه الذى صار مركز الثقل الاستراتيجى للعالم آنذاك . فقد حدد بطلميوس الاول مؤسس هذه الدولة بجلاء أهداف الاستراتيجية البطلمية ، والتى تقوم على انشاء دولة قوية فى مصر تكون قادرة على أن تلعب الدور الأساسى فى بحر ايجه. وحتى يتم تحقيق هذا الهدف فلابد أن تتحول مصر الى قوة بحرية . وهذا يتطلب بدوره بناء أسطول قوى ، وقد أملت الرغبة فى تحقيق هذا الهدف على بطلميوس اتخاذ عدة خطوات كانت أولها الاستيلاء على أقليم جوف سوريا ، وهو اقليم يشمل فلسطين وجنوب سوريا وفينيقيا ، حيث توجد الأخشاب والمعادن اللازمة لبناء السفن ، بالاضافة الى ما يمثله هذا الاقليم من أهمية استراتيجية لمصر . وهى الاهمية التى أشار اليها جمال حمدان قائلا « من هنا أدركت مصر أن حدودها الطبيعية انما تبدأ خارجها فى فلسطين وفى برقة ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولها عن الشرق الاوسط تقريبا » . وهذا ما فعله بطلميوس الاول بدقة اذ أنه لم يكتف بالاستيلاء على اقليم جوف سوريا لتأمين حدود مصر الشرقية ، بل سارع بالاستيلاء على برقة فى عام ٣٢٢ ق. م. (١٣) . أما الخطوة الثانية فكانت الاستيلاء على جزيرة قبرص ، من أجل استخدامها كقاعدة بحرية متقدمة للاسطول المصرى ، يستطيع الانطلاق منها لتحقيق الأهداف التى

---

(١٣) مصطفى كمال عبد العليم . دراسات فى تاريخ ليبيا القديم ، منشورات الجامعة الليبية ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦٢ .

رسمها بطلميوس . وذلك لأن مصر كانت تفتقر الى وجود موانىء على شاطىء البحر المتوسط ، حيث أن الاسكندرية كانت مدينة وليدة لم تكتمل مرافقها بعد . وقد نجح الاسطول المصرى فى تحقيق أهداف مصر الاستراتيجية الى حد كبير . وتمكن من السيطرة على مناطق كثيرة فى آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه . وقد ظلت الكثير من هذه الممتلكات فى حوزة البطالمة حتى بعد أن أخذت عوامل الضعف تدب فى أوصال دولة البطالمة منذ عام ٢١٧ ق. م. (١٤) . الى أن سقطت فى يد مقدونيا ثم روما بعد ذلك . ويمثل عهد الملكة كليوباتره السابقة (٥١ – ٣٠ ق. م.) صحوة الموت للدولة البطلمية . فقد حاولت هذه الملكة من خلال علاقتها بالقادة الرومان مثل يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس أن تحافظ على دولتها . وأن تحول دون سقوطها . بل ربما كانت طموحاتها أكثر من ذلك . وهو أمر كان الرومان يعرفونه ويتوجسون منه . وهذا يفسر تلك الكراهية الشديدة التى حملوها للملكة كليو باتره (١٥) . وكان آخر الادوار الهامة التى قام بها الاسطول المصرى فى عصر البطالمة هو اشتراكه فى معركة أكتيوم البحرية التى جرت على السواحل الغربية لبلاد اليونان فى عام ٣١ ق. م. حيث كانت كليوباتره تساند حليفها ماركوس أنطونيوس ضد غريمه أوكتافيانوس . ولكن الامال التى كانت كليوباتره تعلقها انهارت بعد هزيمة أنطوينوس ، فعادت الى الاسكندرية مهزومة .

وقد حسمت معركة اكتيوم الصراع العسكرى لصالح روما ، التى كانت قد التهمت الممالك الهللينيستية الواحدة تلو الأخرى . ولم يكن باقيا على مائدتها سوى مصر التى سقطت بدورها فى عام ٣٠ ق. م. ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر ولاية رومانية . ولم يعد هناك مجال للحديث عن الاستراتيجية المصرية أو نشاط الاسطول المصرى . وأصبح الدور الوحيد الذى تقوم به السفن وهى تقلع من ميناء الاسكندرية هو حمل الغلال الى روما . ويعلق جمال حمدان على هذه النقطة الاخيرة بقوله (١٦) « غير أن الاستعمار الرومانى اتخذ منعطفا اقتصاديا حادا . فكان البعد الابتزازى فيه واضحا بل فاضحا . لمدة أربعة شهور من كل عام عاشت روما – بغير مقابل – على قمح مصر ، صومعة غلال الامبراطورية الرومانية » . وهكذا يعود البعد المتوسطى فى توجهات مصر الخارجية الى الانكماش ، لأن أمن البحر المتوسط صار شأنا رومانيا داخليا .

---

(١٤) عن الممتلكات البطلمية انظر : Bagnall. R. S.; The Administration of the Ptolemaic Possessions outside Egypt. Leiden, 1976.

(١٥) انظر فصل كليو باتره والشعراء اللاتين ، من كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٥ .

(١٦) جمال حمدان . المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

هذا فيما يتعلق بالجانب الاستراتيجى فى توجه مصر المتوسطى خلال العصر اليونانى الرومانى . أما فيما يتعلق بالجانب الحضارى فان مصر تفاعلت حضاريا « وهى لا تملك الا أن تتفاعل مع البحر المتوسط » على حد تعبير جمال حمدان (١٧) حتى قبل أن تصبح جزءا من العالم الاغريقى . فقد قامت علاقات قوية بين مصر والحضارة المينوية فى جزيرة كريت (٣٠٠٠ – ١٤٠٠ ق. م.) اذ كشفت الحفائر فى كل من البلدين عن وجود عناصر متبادلة . كما أن طريقة الكتابة التى استخدمت فى كريت فى البداية كانت قريبة الشبه بالكتابة الهيروغليفية . حيث كانت كل صورة تعبر عن حرف كتابى ، الى جانب الكتابة المقطعية ، كما صور الفنان المصرى أهل كريت ، وكان لعناصر الفن المصرى تأثيرها الواضح على الفنان الكريتى ، وبعد سقوط الحضارة المينوية وانتقال مركز الحضارة الى بلاد اليونان ذاتها . متمثلا فى الحضارة الموكينية . استمر التفاعل المصرى مع تلك الحضارة ، وهو ما يدل عليه – على سبيل المثال – وجود الأوانى المرمرية المصرية بكثرة فى القبور الموكينية (١٨) . ويمكن أن نلاحظ المؤثرات المصرية الواضحة فى مجال النحت بعد منتصف القرن السابع ق. م. وهى الفترة التى تمثل عهد الانفتاح الاغريقى على مصر بعد أن فتح ملوك الاسرة ٢٦ فى مصر أبواب البلاد للاغريق . وقيام مدينة نقراطيس التى أشرنا اليها من قبل ، حيث تأثر الاغريق لرؤية التماثيل المصرية ذات الاحجام الكبيرة، وكذلك بنمط العمارة المصرية ، وكانت هذه هى البداية الحقيقية للنحت والعمارة الاغريقية (١٩) .

وفى العصر الهللينيستى أصبحت مدينة الاسكندرية من أعظم مراكز الاشعاع الحضارى فى البحر المتوسط ، وذلك بفضل دار العلم Mousion التى أقامها البطالمة ، وكذلك مكتبة الاسكندرية العظيمة ، وكان طلاب العلم يتوافدون عليها من كافة أرجاء العالم وبصفة خاصة من بلاد الاغريق (٢٠) . وعلى الرغم من أن الاسكندرية كانت مدينة اغريقية من حيث النشأة والسمت . فاننا لا نستطيع القول بأن ثقافتها كانت اغريقية خالصة ، بل ان عناصر الحضارة المصرية أخذت تتسرب شيئا فشيئا الى النسيج الثقافى للاسكندرية . ومن الجدير بالذكر أن بعض عناصر الحضارة المصرية الخالصة ، وبخاصة فى مجال الديانة استطاعت أن تفرض نفسها على الاغريق الذين استقروا فى مصر . بل ان عبادة

---

(١٧) جمال حمدان . المرجع السابق ، ص ٤٣٤ .
(١٨) سيد الناصرى . المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ٦٧ .
(١٩) Boardman. J.; Greek Art. 1981, pp. 55-57.
(٢٠) Fraser, P. M.; Op. Cit., pp. 305-335.

الربة ايزيس انتشرت فى كافة أرجاء عالم البحر المتوسط ، ويرى المؤرخ بلوتارك أن ايزيس ربة عالمية . ويقول عن المصريين (٢١) « وليس عليهم فى ذلك غضاضة اذا ما احتفظوا لنا بآلهتنا التى يشترك الشعبان فيها . ولم يجعلوا منها ملكا خاصا للمصريين ، ومن ثم لم يجعلوا هذه الأسماء وقفا على النيل وحده . ولا تلك الارض التى يرويها ، ولم يزعموا أن المناقع وأزهار البشينن من صنع هذه الآلهة فحسب ، ولا غضاضة أيضا اذا لم يتكروا الآلهة العظام على غيرهم من البشر ممن ليس عندهم نهر كالنيل ، أو مدن مثل بوتو وممفيس . فأيزيس على وجه خاص ، وبطانتها من الآلهة تمتلكهم كافة الشعوب » . وقد حملت الربة ايزيس لقب سيدة البحار ، وكانت حامية للملاحين (٢٢) . كما انتشرت عبادة هذه الربة فى ايطاليا ، وكانت مدينة يومبى من أشهر مراكز عبادتها . وكان بعض الاباطرة الرومان يؤدون شعائر عبادة ايزيس ، كما قام الامبراطور دوميتانوس بتشييد معبد لها فى ساحة الاله مارس فى روما (٢٣) .

وهكذا يتضح لنا مدى أهمية البعد المتوسطى فى حياة مصر . وهنا ينبغى أن نسترجع كلمات جمال حمدان تعليقا على هذه الأهمية اذ يقول (٢٤) « تلك هى دورات المد والجزر فى بعدنا المتوسطى ، ومنها نرى أن بوصلة مصر الجغرافية كانت تعكس ـ ولم تملك الا أن تعكس ـ نبض البحر وحوضه ، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محليا . ولعل أبرز ما كان ذلك فى المدن والعواصم وموانىء السواحل . فكانت أقدارها ومصائرها وأجرامها تتحدد بتلك الذبذبات والاشعاعات . حيث أن الكلاسيكية خلقت الاسكندرية من لا شىء لتصبح قلب العالم الهللينى البطلمى وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحرى على جبهة الالتحام بين الظهير المصرى (الهنترلاند) . والنظير اليونانى (الفورلاند) . غير أن هذا كان يتركها من وجهة الظهير أشبه بمدينة غربية أجنبية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا أكثر منها انبثاقا طبيعيا » .

ونلاحظ أن جمال حمدان يرى أن تفاعل مصر مع عالم البحر المتوسط أمر ضرورى فهو « بعد محسوس كما هو حساس فى توجيه مصر » . الا أنه يعود الى التساؤل قائلا « الى أى حد . وكيف يستقر البعد المتوسطى فى وجودنا ؟ » وهو يخشى من محاولة البعض ازيادة تقييم دور مصر النسبى فى مياه البحر المتوسط

---

(٢١) انظر : رسالة بلوتارخوس عن ايزيس وأوزوريس ، ترجمة حسن صبحى بكرى ، مراجعة محمد صقر خفاجه ، القاهرة ١٩٧٧ ، فقرة ٦٦ .

(٢٢) Solmsen. F; Isis among the Greeks and Romans. London, 1979, p. 56.

(٢٣) Witt, R. E; Isis in the Graeco-Roman Warld. London, 1971, p. 234.

(٢٤) جمال حمدان . المرجع السابق ، ص ٤٣٩ .

وفى دور البحر المتوسط النسبى فى كيان مصر ، وعلى الرغم من اعترافه بعلاقة التأثير والتأثر بين مصر والبحر المتوسط ، ومداها العميق . لكنه يرى أن من بين دول البحر المتوسط من لعب دورا أبرز ، وأن مصر تتأثر بمصائر البحر المتوسط أكثر مما تؤثر فيه .

ومن الواضح أن جمال حمدان لا يبدو متحمسا لدعوة بعض المثقفين الى ربط مصر بثقافة البحر المتوسط . ومن المعروف أن من أبرز هؤلاء المثقفين طه حسين الذى لم يذكره جمال حمدان بالاسم . بينما ذكر حسين مؤنس وحلل نظريته عن علاقة مصر بعالم البحر المتوسط ، وكان طه حسين قد بسط أفكاره عن علاقة مصر بعالم البحر المتوسط فى كتابه ــ مستقبل الثقافة فى مصر ــ . فهو يقول (٢٥) مثلا « ان العقل المصرى منذ عصوره الاولى ، عقل ان تأثر بشىء فانما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، وان تبادل المنافع على اختلافها فانما يتبادلها مع شعوب البحر الابيض المتوسط » . ويعلق جمال حمدان على هذه الدعوة قائلا « فالبعض من مثقفينا يود يوما أن يجعلنا جزءا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط . ومنهم من عبر عن هذا بالدعوة الى أن نتجه الى البحر وأن نعطى ظهرنا للصحراء ، فما عاد يجدى أن ننظر كما فى الماضى الى الرمل ، ونحن فى عصر الماء . عصر المحيط ، غير أن هذا الاتجاه أدنى فى الحقيقة أن يكون رجعة تاريخية الى نظرية سادت وروج لها كثيرون فى الغرب . ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك . والاشارة هنا بطبيعة الحال الى نظرية ــ وحدة البحر المتوسط ــ الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الاغريقى ثم الرومانى قد فرضاها بالقوة بين شاطىء البحر الشمالى والجنوبى . ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد . وسلبية من الطرف الآخر ، ولا يمكن أن تحسم علاقة » . وقبل أن نترك قضية الارتباط بين مصر وعالم البحر المتوسط فانه ينبغى أن نتوقف عند العبارة التى ذكرها جمال حمدان عن مدينة الاسكندرية « غير أن هذا يتركها من وجهة نظر الظهير أشبه بمدينة غربية أجنبية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا أكثر منها نبتا انبثاقيا طبيعيا » .

والواقع أن جمال حمدان محق فى هذه المقولة الى حد بعيد . فقد كان ينظر الى الاسكندرية على أنها مدينة غريبة ، فهى لا تعد بأى حال مدينة مصرية ، لأن مصر هى وادى النيل ودلتاه ، بينما شيدت الاسكندرية على مسافة بعيدة من الفرع الكانوبى للنيل (عند أبى قير الحالية) ومصداقا لهذا القول فان الاسكندرية

---

(٢٥) طه حسين . مستقبل الثقافة فى مصر ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص ١٦

فى العصر الرومنى كانت توصف بأنها المتاخمة لمصر Ad Aegyptum وليست فى مصر . وكان اللقب الرسمى للوالى الرومانى هو والى الاسكندرية ومصر Praefectus Alexandrae et Aegpti (٢٦) . كما أن المصريين الذين كانوا يقيمون فى الاسكندرية دون أن يتمتعون بحق المواطنة السكندرية التى كانت وقفا على الاغريق .

ومجمل القول أن أهمية البعد المتوسطى فى توجه مصر وخلال العصر اليونانى الرومانى قد ازدادت بشكل واضح . ولكن هل جاء ذلك على حساب الأبعاد الأخرى ؟ . والواقع اذا كان البعد المتوسطى تزداد أهميته وتخفت أحيانا فان البعد الاسيوى تظل أهميته ثابتة على الدوام . ولهذا ظلت مصر خلال العصر اليونانى قوة برية رغم ازدياد قوتها البحرية فى عصر البطالمة . واذا ما رجعنا الى أهم الغزوات لوجدنا أنها جاءت الى مصر من بوابتها الشرقية ، أى من قارة آسيا ومن منطقة الشام على وجه الخصوص وهو ما يؤكد صدق عبارة جمال التى ذكر فيها أن حدود مصر الشرقية انما تبدأ ببلاد الشام .

فقد وصل الاسكندر الاكبر الى مصر فى عام ٣٣٢ ق. م. بعد أن أخضع بلاد الشام وبعد سقوط امبراطورية الاسكندر حاول برديكاس الوصى على العرش المقدونى اخضاع الولاة المتمردين ومنهم بطلميوس الى مصر . فأقدم على محاولة فاشلة لغزو مصر . الا أنه فشل فى عبور الفرع البلوزى للنيل ، كما ظلت الجبهة السورية هى الشغل الشاغل لبطلميوس الثانى ، مما أضطره لخوض حربين ضد الدولة السلوقية فى سوريا . وفى عام ٢١٧ ق. م. وقعت بين البلدين معركة هامة فى رفح عند محاولة الملك السلوقى أنطوخوس الثالث غزو الحدود المصرية ، الا أن الملك بطلميوس الرابع تمكن من هزيمته فى هذه الموقعة . غير أن الملك أنطوخوس الثالث نجح فى عام ١٩٨ ق. م. فى الانقضاض على اقليم جوف سوريا وتجريد مصر من هذا الاقليم الهام . وبعد أن ضعفت دولة البطالمة أصبحت مصر مطمعا لملوك سوريا . فقام الملك أنطوخوس الرابع بغزو مصر وحاصر الاسكندرية فى عام ١٦٨ ق. م.

وبعد سقوط الدولة السلوقية فى سوريا ، ودخول سوريا فى حظيرة الدولة الرومانية ظلت الجبهة الشرقية تمثل خطرا على مصر . ففى عام ٥٥ ق. م. اقتحم والى سوريا الرومانى الحدود المصرية ، ودخل مدينة الاسكندرية لكى يعيد بطليموس الزمار الى عرشه ، بعد أن كان السكندريون قد طردوه . وعلى الرغم من أن موقعة اكتيوم التى قررت مصير العالم آنذاك ، كانت معركة بحرية،

---

(٢٦) عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

فان الاجهاز على دولة البطالمة جاء عن طريق البوابة الشرقية حيث اجتاز أوكتافيانوس حدود مصر الشرقية فى عام ٣٠ ق. م. وواصل زحفه حتى وصل الى الاسكندرية مما أدى الى انتحار الملكة كليوباتره وسقوط دولة البطالمة الى الأبد . وفى العصر الرومانى لم يعد هناك مجال للحديث عن الجبهة الشرقية اذ أن كلا من مصر وسوريا أصبحتا ولايتين تابعتين للدولة الرومانية ، وأصبح سلام العالم أمرا تقرره روما فقط . ولا تستطيع الولايات الا أن تلعب دورا هامشيا فى الأحداث ، مثل ذلك الدور الذى لعبته مصر فى عام ٦٨ – ٦٩ ميلادية المسمى بعام الأباطرة الاربعة ، حيث استطاعت أن ترجح كفة أحد القادة المتصارعين، وهو فسباسيان مما مكنه من اعتلاء عرش الامبراطورية الرومانية.

ثم يأتى أخيرا الحديث عن البعد النيلى والافريقى ، وهما بعدان متداخلان « حتى يمكن أن نزعم أن القطاع الاكبر من بعدنا الافريقى ، انما هو ببساطة بعدنا النيلى » . واذا ما نظرنا الى الخريطة فاننا نلاحظ أن الصعيد « هو سهم مرسل نحو قلب القارة حمل حضارة مصر وثقافتها » . والحقيقة أن علاقة مصر بأفريقيا كانت دائما علاقة مبادرة .

ويمكن القول بأن الاهتمام بالبعد النيلى والافريقى لمصر اليونانية الرومانية قد بدأ بالاسكندر الاكبر . فقد حرص أثناء فترة بقائه القليلة فى مصر على ارسال بعثة للكشف عن منابع النيل . كما واصل ملوك البطالمة ارسال الحملات الى افريقيا . وفى العصر الرومانى قام الوالى الرومانى فى عصر أغسطس بحملة على بلاد النوبة . كما قام الامبراطور نيرون بارسال حملة الى قلب افريقيا (٢٧) كما توغل الكثيرون من المستكشفين فى افريقيا من خلال شواطىء البحر الأحمر.

* * *

وخلاصة القول ، أنه فيما يتعلق بالأبعاد الاربعة لتوجه مصر كما حددها جمال حمدان . فان البعد المتوسطى فى العصر اليونانى الرومانى قد استأثر بالاهتمام الاكبر نظرا لارتباط مصر بقوى تنتمى الى عالم البحر المتوسط ، أى الاغريق والرومان . أما البعد الآسيوى فقد ظل يشكل نفس الأهمية التى كانت له فى العصور السابقة على العصر اليونانى الرومانى ، وكذلك البعد الافريقى ، اذ ظل اهتمام مصر بالبعد الافريقى محصورا فيما يتعلق بنهر النيل الى حد كبير .

الدكتور أبو اليسر فرج

---

(٢٧) Hyde, W. W; Ancient Greek Mariners. Oxford, 1947, pp. 270-280.

جمال حمدان وعبقرية المكـان

أو قراءة أخرى فى شخصية وفكر جمـال حمدان

أولا : مدخل فى اطار الشخصية الراهنة :

ان جمال حمدان ليس مجرد عالم أكاديمى ، أو مثقف يعى حركـة الواقع فى اطار فعالية التاريخ ، ومنظومة المكان والزمان والانسان ، أو مفكر مصر غربى مبرز فى ثقافتنا العربية والوطنية ومن ثم يتوجب علينا الاحتفاء به ، واعلاء ذكراه وانما هو ـ يرحمه الله ـ صفحة مضيئة فى تاريخنا المعاصر وثروة قومية ، تعتز بها أمتنـا العربية والاسلامية هو فى الحقيقة ثروة قومية ؛ لأنه أعطى بعداً علميا للموقع العربى من خلال الموقع المصرى ، وقام بتفسير حركة الصهيونية العالمية بما يجعل من هذه الحركة قوة تدميرية للأمة العربية وأرهص بالقادم من مخطوطاتها نفيـا للوجود العربى . كمـا أعطى تفسيرا علميـا ، واجتماعيا ، واقتصاديا لحركة الامبريالية التوسعية على حساب الوجود القومى ، وانجاز الأمة فى مجال الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية، وبشر بالدور الخطير للاستعمار فى صوره المختلفة ، كما أنه غذى المكتبة العربية بأعظم انتاج شهدته السنوات الاخيرة من القرن العشرين ، كمـا أنه غواص ماهر فى بحـر الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، وفى ابحاره المتعدد الاتجاهات قـدم جمال حمدان لتاريخنا المعاصر جهودا بارزة فى ميدان التحولات التـاريخية ، وأوجد علاقة وثيقة بين الانسان والمكان ، والابداع وكتابه العظيم « شخصية مصر » ، وقـد دفعه هذا الغوص الواعى الذكى والعبقرى الى مناطق وعرة محفوفة بالمخاطر ، وخاصة عندما قدم عمله الرائد الجليل (شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان) مما جعلـه موضع دراسة وبحث مجموعة وافرة من المتخصصين ومـا يزالون يبحثون حتى القرن القادم ؛ لأن هذا العمل العظيم قابل للتفسير والتأويل ، وقابل

للطرح الفكرى النقدى المستمر ، كما أنه مناضل صلب متواصل مع المواقف النبيلة بدءا بموقفه من الجامعة حتى موقفه من الوطن والأمة ، وتوثيقه لدور الاستعمار ، والصهيونية ، وهذا النضال المتواصل يفسره ويؤكده عطاءاته برغم ما جوبهت هذه العطاءات من جحود البعض ، وحسدهم وحقدهم عليه ، وهو مع هذا كله يمثل فى وجداننا المصرى والعربى ، وعقل الأمة حالة فريدة من الوفاء النادر للثقافة ، والحضارة ، وذلك للنقاط الجوهرية التالية :

أ – لأنه العقلية المصرية التى استطاعت أن تستوعب جغرافية المكان ؛ ليحوله الى منظومة ، ويجمع فى نسيج مركب بين الجغرافيا والتاريخ ، والفعل الانسانى الخلاق .. وقد جسدت كتاباته الشوق اللاهف والدائم نحو المستقبل .

ب – وهو العقل الذى عاش غريبا بين أهله وحاضرا فى مستقبلهم ، واعادة صياغة أحلامهم .

جـ – ولأنه المقدرة الانسانية الفذة الذى حول المرارة التى لذعته الى حلاوة الايمان بمستقبل أمته والذى حول ثبوتية الكينونة المصرية وجمودها الى ارتعاشة الأمل لمصر وبمصر وفى مصر انطلاقا نحو القومية وكانت محصلة كتاباته سؤالا وجهه الينا قبيل رحيله . ماذا تفعلون ؟ وما هو موقفكم من مصر وأمتكم والأعداء المتربصين بكم هل سنقبل المذلة والمهانة والتبعية ؟ وما موقفنا هل سنستسلم ، وننكفىء على ذاتنا نقتات من بقايا الارض التى سلبت ، وبيعت لأعداء الأمس ، وأصدقاء اليوم ؟ لكننا بهذه التساؤلات مع الراحل العظيم . هل نكون قد ابتعدنا عن نضالنا ، ومواصلة مسيرة الوطنية المصرية القابضة على مشروعها الوطنى القومى الحضارى ، والقائم أصلا على روح المكان ، وعراقة الانسان ، وايجابية الزمان والواقع أن مثل هذا التساؤلات تفجر فينا كما أراد الراحل الكريم – ابداعا يلتقى مع ابداع الموقع ؛ لأن كل ما تركه جمال حمدان من كتابات ، ودراسات انما هى فى الحقيقة أسئلة تسعى بيننا ولابد من تتبع مسارها فى حركتنا وتوجهاتنا وفى تأن وهدوء ، ورحابة صدر لابد لنا من أن نحدد مكان الاجابة فى ضميرنا وعقولنا ووجداننا ، وفى شبكة العلاقات بيننا وبين الحكام ، ثم بيننا جميعا وبين علاقاتنا الدولية ، حتى يمكن رصد حركتنا فى اطار حركة العالم حولنا ، هذه شخصية جمال حمدان فى اطار المفهوم الفيزيقى : (قوة أداء الشخصية ، واندفاعها وراء المجهول ، وشوقها الدائم فى اتجاه المستقبل ، وعطشها الحنون الى المعرفة ، وتجاوزها لحدود الزمان والمكان خلال بحثها الدائم وعطائها المستمر ، وجهدها الواعد) وليس فى الاطار الفيزيائى وأعنى به : (سنة الميلاد وسنوات التعليم والتجريب والتثقيف ثم الرحيل) وهى أيضا شخصيته فى اطار المنهج السيسيولوجى : قوة العلاقة بالمكان ، ومطاردة العجز تأكيدا على الابداع والفعل النافى للفناء ، لهاث محموم وراء صورة مسقطة من الذات اختارت مصر التقدم

والتطور ، والتحرر من كـل ألوان الاستعمار والاستبداد ، واختارت الأمـة كى تضطلع بمهامها الأممية والحضارية مرة أخرى . وملتقى مفاتيح هذه الشخصية فى شىء واحد ، وأعنى به الاختيار حرية لا حدود لها للاختيار ، وقد اختار الفكر والثقافة والحضارة كأهم مسئولياته تجـاه الوطن فى اطار مصر والأمة فى اطار القومية العربية ، والعالم كله فى اطار انسانى شديد التماس بحبه لوطنه وأمته . وأهم وسائله لتحقيق ذلك أنه اختار الكتابة ، وابداعها ؛ لتكون وسيلته لتحقيق ذلك الاختيار الحضارى .

وجمال حمدان لا يتخذ من القلم أداة فقط لكتاباته بـل هو جزء من شخصيته الابداعية حتى انه من بين شفتى هذا القلم يشهق بأجمل الصور الفنيـة وأعظم الأفكار حتى صار مع قلمه أديب الجغرافيين والمؤرخين ، ومن هذا المناخ الادبى الرائع ، والابداع العلمى ، قد تحقق لتاريخ أدبنا المعاصر بعدا أضيف الى أبعاد ظواهرنا الأدبية ، وتاريخنا الأدبى وهو « علمية الأدب » .

وبأثر هذا كله فان قارىء جمال حمدان ، ومتلقى فكره . ليس قارئـا عاديا ، أو متلقيا سطحيا بـل قارىء من نوع خاص يجيد فن حب القراءة وحب مصر والعروبة ، وهو لا يقوم بفعل سلبى يكتفى بمتعة القراءة .. بل جزء من المقروء ، وفكر صاحب الكتـابة ، وقادر على السياحة والابحـار فى أعماق المكتوب ، وهو مشارك فى طرح القضايا والعديد من الأسئلة ، ورد الفعـل الأعمق فيما يشبه الأجوبـة ، والدخول الصعب والممتع فى عـالم شخصية جمال حمدان المبدعـة والمفكرة ، والمثقفة والذى يشكـل وحدة رائعة من الفن والامتـاع والمؤانسة ، والتواصل .

ثانيا : جمال حمدان وروح المكـان :

أمام مفكر مثل راحلنا العظيم ، ظل أكثر من ثلاثين عاما يقدم خلاصة أفكاره للوطنيـة المصرية ، والأمة العربية والأممية الاسلامية ، نجـد أنفسنا مواجهين بجوانب عديدة جديرة بالبحث ، والتقصى ، تتمثل فى الأسس النظرية لأفكاره ، وتدور كلها حول عبقرية المكان وروح المكان ، وظلت علاقته بالمكـان ، وتميزه ، وعمق تأثيراته ، واعتبـاره المفرزة الحقيقية للعبقريات والمبـدعين ، والرواد ، متواصلة ، وتحمل كل كتاباته خطابا يتجه به الى ضمير القارىء ؛ لايصاله رسالة المكان وعبقرية الموقع .. لكن هذه العبقرية مشروطة بالنظام العادل ، والحيـاة الحرة الكريمة .. وانطلاقا من قيم العدالة ، والحرية تبدأ مسئولية جمال حمدان الحضارية والثقـافية مع وطنه وأمتـه فالعدالة ، والحرية همـا جناحا الأمـة المتحضرة والمكان القادر على حمل رسالة الحضارة ، وجدارته بـأن تنبثق من أرضه القدرات الانسانية الفـذة ، وكان ابداعه كتـابة جليلة ، تغطى مساحة

التداخل بين الديمقراطية ، والعبودية ، والطغيان الاقطاعى ، والثورة الاشتراكية، والاستمرارية والانقطاع .. الى آخر هذه المتقابلات المتداخلة عبر مسيرة الوطن ، والذى تضمنه كتابه الرائع « شخصية مصر » وقبل أن نناقش فى ايجاز تلك المحاور التى تضمنها الكتاب علينا أن نقدم بين يدى هذا التناول الموجز ، والذى يتمحور حول قضايا عامة مستنتجة من ضمير الكتاب وعمق كتابه مقولته عن الديمقراطية التى هى بمثابة مفتاح الكتابة عنده حيث يقول : « الديمقراطية كالحرية ، فهى لا تمنح .. ولكن تنتزع لا تستجدى من الديكتاتور ، وانما تفرض بقوة الوعى ، وفعل القوة ، وبيد الشعب نفسه » وأهمية هذه المقولة ، وعلاقتها بروح المكـان تكمن فى تمجيد الفعل الانسانى ، والفعل الشعبى الجماهيرى على وجه الخصوص.. وان غياب هذا الفعل ، وغياب قدرة الشعب على التغيير انما يكون بمثابة نفى للمكان وروحه ، وعبقرية الموقع ودلالته التاريخية والانسانية ، والحضارية فعنده أن العلاقة بين الديمقراطية والحرية ، وعبقرية الموقع ، وروح المكـان ، وتقدم المجتمع ، وانجاز أفراده علاقة مصيرية ، فكلما كان النظام ديمقراطيا ، وتقوم توجيهاته على احترام الحرية ، وحقوق الانسان كانت الظروف أفضل للابداع ، وابراز قسمات روح المكـان وهذا كله مدين لوعى الشعب ، وفعله الايجـابى وقدرته على المواجهة ، والتغيير ، واقتلاع الفساد والمفسدين.. فالعلاقة مصيرية. كما أن معظم المراحل التى صاغت التقدم الحقيقى ، انمـا عبرت عن روح التقدم الذى يمتلكه الشعب ، ودلت على مدى ما يتمتع به الشعب من ديمقراطية ، وحرية، وعدالة ، وعكست أصالة المجتمع تلك الاصالة الطالعة من أرض التجربة المصرية ووطنيتها الصادقة ، وهى تتعامل مع حركة التاريخ بدءا بالفرعونية ، بأنظمتها الامبراطورية المؤثرة فى حركة التاريخ العـالمى عصورئذ ، ونهاية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تلك الثورة التى امتلك أصحابها حينئذ أطول يد ممتدة الى الرحم المصرى لاستخراج جنين الثورة ، والذى لم تسعفه الحضانات فمات فى مهده لغيـاب الديمقراطية وقوة الارادة الشعبية ، وانفصال البطـل الثورى المصرى الأصيل عن أن يحتمى بشعبه وضاع فى زحام الزخم الديكتاتورى ، فضاعت معه كل الأحلام ، والمشروعات القومية الحضارية ، والقضاء على الاستعمار والتبعية ، والصهيونية، ونفيها للأمة العربية ، وأصبحت مصر الموقع، ومعها المنطقة ببعديها الافريقى والعربى محاصرةبالأعداء وأطماعهم التى تعبر عن روح عصور الهيمنة العالمية الجديدة ويمكن لنا أن نستقرىء بايجاز شديد أهم القضايا التى آثارها الراحل العظيم ؛ لندرك مدى تأثره وايمانه بالتقدم المصرى ، وذلك بأثر من روح المكان وفى سبيل هذا الفنان الكاتب ، والكاتب الفنان جمال حمدان أن ينظر الى تتابع الزمن ، واتصاله ،وو قع أحداثه التاريخ ، وحركته على روح المكان ، وذلك من خلال نظرة شاملة ثاقبة تقدمية ، واعية وعيا مستقبليا بالواقـع ومتغيراته ، وتأثير هذا كله على الوجدان المصرى ثم كيف امتزج التـاريخ بالقدر المصرى ثم

العربى فالاسلامى وكيف كانت رؤيته فى المزج بين الخاص المصرى والعام العربى الافريقى والاسلامى ، وكيف كانت مصر وما زالت تحمل هموم الأمة والعقيدة ، وطموح المنطقة والموقف الباسل النبيل من الأعداء ؟ ؟

ثم كان المنعطف التاريخى الذى كسر عظـام الأمة ودك حصونها ومعاقلها ، ويحـاول أن يجرب معهـا التجربة الاندلسية ، هو المحصلة الموضوعية لكـافة تحولات وتناقضات المراحل الحاكمة الغشوم فى تاريخ النظـام المصرى ، مع أن مصر ، ومعها العالم العربى غير مؤهلة بحكم الموقع والتاريخ ، وعبقرية كل منهما لهذه المحصلة الفـاجعة ؛ لأنها من خلال المكـان والزمان تحمـل راهص التقدم باستمرار من ثم كان تفاؤله ، وهو يتحدث فى كتابه عن الشخصية الاقليمية لمصر.. حيث الربط بين الرؤية التاريخية ومصر الموقع والاقليم ، وزمن الأحداث المصرية ثم الزمن الكلى العام ، ثم ذوبان الزمان فى المكان ؛ ليحقق بذلك وجود مصرى قيـادى اقليمى يتأسس على التجـانس الطبيعى والبشرى والمـادى ، والوحدة السياسية ، ثم يأخذ خلال كتابه الرائع فى استعراض التجربة المصرية التى جمعت بين التقدم والتخلف .. حيث عاشت أحداث كل منهما ؛ ليعطينا من وراء هذا كله مصداقية الخبرة المصرية وحنكة تجربتها النابتة فى التربة المصرية الأصيلة .

وهذا كله مؤشر الى أهمية الحضور المصرى عند أى صراعات فى سبيل التحرر والتقدم فمصر عاشت السبق الحضارى ، ومع الأنظمة العبودية ارتدت الى التخلف، ومرت بالتجربة الاقطاعية ، والثورة الاشتراكية ، وحققت النظام الامبراطورى التوسعى ثم نكصت الى الانكفـاء والتحول الى مستعمرة ، ثـم استمر فى كتـابه مستقرئا روح المكان ، وعبقريته المصرية ، مشيرا الى العناصر الايجابية ، التى تؤكـد على أهمية الـدور المصرى حيث التنـاول الذكى الواعى لشخصيـة مصر الاستـراتيجية والبنـاء الحضارى ، والأساس الطبـيعى ، وشخصيـة مصر الاقتصادية ، وسكان مصر ، ومركزية دعم الامتداد وتعدد الأبعاد ، والتوسط ، والتوازن ، والاستمرارية والانقطاع .. ثم هذا التحليل الأيديولوجى فى العلاقة بين الوطنية المصرية ، والقومية العربية والذى انتهى فيه الى أهمية الدور المصرى القيادى للعالم العربى ، وأن استمرار مصر ، وعبقرية الموقع وروح المكان منوط كله بمدى تواصلها التاريخى مع الأمة العربية .. وأروع ما قدمه جمال حمدان من دراسات ليضمن استمرار الدور العربى والمصرى هو تحليله العلمى والموثق والنافى لوجود اليهود ، واستمرار هذا الوجود الآن كقسمة أصيلة من قسمات الشخصية اليهودية فهم قد انتهوا تاريخيا ، وخصائص حسمانيا ؛ ليصل من هذا كله الى عدم أحقية يهود اليوم فى فلسطين وانما هم مستعمرون جدد يواصلون دور الاستعمار القديم ، والجديد حتى تظـل الأمة العربية قابضة على حقهـا فى النضال من أجل اتصال أرضها ويعطيها بهذه الدراسة نبضة الأمل فى العودة الى

الأرض المحتلة ، كما أنه بدراسته عن الاستعمار يكشف الدور الخطير الذى لعبه فى جغرافية العالم العربى والاسلامى .. وفى سبيل بقـاء مصر الرائدة العظيمة واضعافا لدور كل من الاستعمار الجديد الذى يحاول رد مصر الى فرعونيتها الحضاريـة والسياسية ومعه الموقف والمخطط اليهوديـان يعلن جمال حمدان بصراحة ووضوح فى كتابه الرائد أن « مصر المعاصرة لن تتغير جذريا ، ولن تتطور الى دولـة عصرية وشعب حر الا حين تدفن الفرعونية السياشية مع آخر بقـايا الحضارة الفرعونية « الميتة » .

(من مقال عن شخصية مصر وجمال حمدان للأستاذ الدكتور جمال عبد الكريم) والكاتب الراحل يقصد من وراء هذا الى انصاف التاريخ المصرى ، وتنقيته من أن يكون وسيلة هدم لمصر المعاصرة صاحبة المشروع القومى الحضارى والراغبة مع الأمة العربية فى التخطى والتجاوز والامتداد فى المستقبل .. حيث امكانات التقدم أفضل ومؤكدة من أن ترتد مصر الى فرعونيتها ؛ لتتحول الى سوق سياحى دون هوية علمية تقدمية واعدة بالوطن القـادر على الاسهام فى حركة التـاريخ وبعد فواضح أن راحلنا العظيم استطاع أن يمسك بزمام الزمن ، وهو يؤرخ لشخصية مصر ويستلهم مروح المكان فرأى الزمان فى المكان والزمن ــ حينئذ ــ هو المحور الذى تتمحور حوله دراساته وهو هنا ، أى الزمن ، يشكل البعد الرئيسى فى كل مرحلة حضارية ، وهو أيضا بمثابة حلقة يحكمها الفعل ورد الفعل ، مؤكداً على أن الماضى المصرى ما زال ممتدا فى الحاضر ، والحاضر قادر على السكن واحتلال الموقـع الرائد مرة أخرى فى المستقبـل شريطة الحرية الكـاملة بدون ضفاف وشواطىء .

كأنى بهذه الدراسة ، أو الدراسات التى قدمها لنا جمال حمدان أمام انسان تحتله روح الأنبياء ، وكأنه بهذا الفكر المستقبلى يطل علينا من عالم العبقريات والنبوغ وشموخ التاريخ ، وعظمة الانسان ، ولو طلب الينـا أن نتمثل الصدق والاصالة ، والانتماء لروح المستقبل لكان جمال حمدان أقرب الى هذه الصورة رحمه الله ، ونفـع بعلمه ، وعوضنا الله عنه حمدانـا آخر .. فروح المكـان ، وعبقرية الموقع قادرين على مواصلة الانجاب ..

عبد الرءوف أبو السعد

المتجر السلطانى فى مصر الاسلامية

من العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى

تقديم :

الى روح الراحل الكريم الدكتور جمال حمدان أقدم هذا البحث الذى يتناول جانبا هاما من جوانب التاريخ وحضارة مصر العظيمة وهو الجانب الاقتصادى هذا الجانب الذى كان مجال اهتمام الدكتور حمدان من خلال دراسته لجغرافية مصر الاقتصادية وربطه التاريخ بالجغرافيا . والتاريخ والجغرافيا توأمان متلازمان لا غنى لأحدهما عن الآخر ولا فهم لأحدهما دون الآخر ؛ فاذا كانت الجغرافيا هى أرض الواقع التاريخى فلا تاريخ دون أرض والله سبحانه وتعالى حين خلق آدم خلق قبلـه الأرض وأسكنه اياها لتبدأ عليها مسيرة الانسان والبشرية منذ البدء وحتى قيام الساعة .

ودراسة التاريخ الاقتصادى أمر هام ومجال صعب لدارسى التاريخ والجغرافيا . وبعض مدارس التاريخ تعتبر الاقتصاد ودراسته أساسا هاما لفهم الاحداث التاريخية ولتفسير هذه الاحداث ونقدها وتحليلها وأخذ العظة والعبرة منها .

وبحثى هذا يتناول جانبا هاما من جوانب تاريخ مصر الاقتصادى خلال الحقبة الاسلامية من العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى ، أى من منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى الى منتصف القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى من خلال دراسة المتجر السلطانى ودوره خلال هذه الحقبة الزمنية الطويلة الهامة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى وحتى بداية العصر الحديث .

ولقد سبق لى أن قدمت دراسات اقتصادية متعددة عن اقتصاد مصر الاسلامية وتجارتها على الخصوص فى البحرين : الأبيض المتوسط والأحمر ، ويأتى بحثى

هذا متمما لهذه الدراسات ، وهو موضوع جديد لم يتطرق لدراسته باحث من قبل نظرا لقلة المادة العلمية المتحصلة عنه من خلال المصادر والمراجع ، ولعلى بتقديم هذا البحث أكون قد قدمت لروح فقيدنـــا العزيز وعالمنـــا الكبير جمال حمدان دراسة لموضوع كان يتوق لدراسته وكان يتطلع أن يشرع أحد رجـــال التـــاريخ فى سبر أغواره ، كذلك أكون قد أسهمت بجهدى المتواضع فى انجـــاح هذه الندوة الطيبـة التى نظمهـــا المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد تحت اشراف مديره وصاحب هذه الفكرة الرائعـــة الأستاذ الدكتور جمال عبد الكريم المستشار الثقاف المصرى وزملائه من رجال المعهد لاحياء ذكرى المرحوم الدكتور جمال حمدان خالد الذكر ، رحمه الله وجعل الجنة مثواه ومأواه بعد أن عاش قسوة ومرارة الحياة وعانى الاضطهاد والاهمال واللامبالاة .

أولا : المتجر السلطانى فى العهد الفاطمى :

اهتمت حكومة مصر الفـــاطمية بالتجارة التى كانت عمـــاد اقتصاد الدولة آنذاك ، وقد شمل هذا الاهتمام التجارة الداخلية والخارجية . ولتسهيل أمور التجارة فى الداخل والخارج أبدى خلفـــاء الفاطميين سياسة التسامح الدينى وعدم التعصب مع التجار غير المسلمين ، واستغل الكثيرون منهم هذه الحرية فى الميدان الاقتصادى . وفتحت مصر أبوابها للتجار الاجانب ، يفدون عليها من أوربا والشرق حاملين سلعهم الغـــالية القيمة والعظيمة المنفعة لتجـــار مصر عموما وللمتجر السلطانى على وجه الخصوص . وأدت سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفاطميون ازاء التجار الاجانب الى تسابق تجار المدن الايطالية الى أسواق مصر وحصلوا من الخلفاء الفاطميين ، عن طريق المعاهدات التى عقدتهـــا دولهم معهم ، على تسهيلات تجارية فى داخل البـــلاد وعلى العديد من الامتيازات والخصوصيات .

وكان الخلفـــاء الفاطميون يدركون أهميـــة التجارة لهم فى تحقيق هدفين أساسيين ، أولهما : تدعيم وتنمية اقتصاد مصر والاستفادة من عائد التجارة فى تدعيم هذا الاقتصاد وتوفير المال اللازم لسد احتياجات البلاد . وثانيهما : اتخاذ التجـــارة وسيلة لفرض الولاء السياسى والمذهبى على بلدان العـــالم الاسلامى لخدمة معركتهم على سيادة العالم الاسلامى مع خلفاء العباسيين . وتحقيقا لهذه السياسة المزدوجة عقـــد الفاطميون عددا كبـــيرا من المعاهدات التجارية مع دول الشرق والغرب (١) .

---

(١) عطية القوصى : تجـــارة مصر فى البحر الاحمر منـــذ فجر الاسلام حتى سقوط الخـــلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١١٦ ، ١١٧

أما معاهداتهم التجارية مع الغرب ، فقد تم عقدها مع مدن ايطاليا التجارية وبخاصة أمالفى والبندقية . ولقد لقت هذه الرغبة من الجانب الاسلامى رغبة مماثلة من جانب الأوربيين ، ذلك لأنه ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى شهدت أوربا خلالها بداية عصر اليقظة الاقتصادية فى المدن المطلة على الشاطىء الاوربى فى البحر المتوسط ، وأدت هذه اليقظة الى نمو هذه المدن وتطورها فى طريق الحكم الذاتى وقيام (القومونات) أو الجمهوريات فى هذه المدن . وقد أخذت مدن أمـالفى وجنوة والبندقية وبنيرا طريقهـا الى التطور ونجحت القومونات بها . وقد تطلعت هذه المـدن الايطالية التجارية فى عصر بدء القومونات بها لعقـد صلات تجارية طيبة مع الدولة الفاطمية أكبر قوة سياسية واقتصادية فى حوض البحر المتوسط آنذاك . ودخلت ، بناء على ذلك ، العلاقات التجارية بين الشرق والغرب فى عهد جديد ، وأقامت المدن الايطـالية التجارية مع حكومة مصر الفاطمية علاقات تجارية تنظمها المعاهدات المعقودة والمحترمة بينهما .

وقد أدى هذا التبـادل التجارى بين الطرفين الى وفود أعداد كبـيرة من السفن الأوربية الى ميناء الاسكندرية من أوربا محملة بما يلزم تجار مصر وما يحتاجه المتجر السلطانى من سلع تشتمل على الأخشاب والشب والحديد كذلك ما تحتاج اليه من غلال فى أيام القحط محمولا اليها من بلاد الروم (٢) . وتشير وثائق الجيزة (٣) الى كثرة تردد السفن الاوربية على ميناء الاسكندرية فى عهد الفاطميين منذ عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ/١٠٣٦ – ١٠٩٤م) وكان تجار أمالفى من أوائل تجـار المدن الايطالية الذين وفدوا ببضائعهم الى ميناء الاسكندرية وزودوا المتجر السلطانى بما يحتاج اليه من سلع وبضائع .

وجاءت البندقية بعد أمالفى فى ترتيب الجمهوريات الايطالية التجارية التى أقامت علاقات تجارية مع مصر الفاطمية . وقد عقدت البندقية أولى معاهداتها التجارية مع مصر سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٦ م وحصلت بمقتضاها على امتيـازات خاصة لتجارها ولسفنها فى موانى مصر وبخاصة ميناء الاسكندرية . وقد حمل تجار البندقية فى العام التـالى لتوقيع هذه المعاهدة الخشب وفراء بيزنطة الى

---

(٢) عطية القوصى : نفس المرجع السابق ، ص ١١٧ ، ١١٨

(٣) عن هذه الوثـائق ومحتوياتها انظر مؤلفات جواتيان : Goitein, S. D.:

— A Tentative bibliography of Geniza Documents, Paris, 1964.

— A Mediterranean Society of the hgh Middle Ages, New York, 1967.

— Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.

المتجر السلطانى (٤) . وقد استمر البنادقة فى نقلهم للخشب اللازم لبناء السفن للمتجر السلطانى ولما توقفوا عن ذلك استبدلوه بأنواع بديلة من من ارسال أخشاب السفن الى بلاد المسلمين .

وقد حذى تجار جنوه تجار البندقية وعقدوا معاهدة مع الخليفة المستنصر سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م ، نقلوا بمقتضاها على سفنهم ما يحتاجه المتجر من بضائع . وتلت بيزا جنوة فى هذا الأمر سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م .

ونتيجة لهذه العلاقات الطيبة بين الدولة الفاطمية والدول الأوربية التجارية اتسع نطاق تصدير دول أوربا لما يحتاجه المتجر السلطانى من بضائع فى العهد الفاطمى . وقد أمضى الرحالة الفارسى ناصر خسرو عدة أيام فى الاسكندرية أثناء زيارته لها فى عهد الخليفة المستنصر (٥) (من يوم الاحد ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ/٤ أغسطس ١٠٤٧ م حتى أول ذى القعدة / مارس ١٠٤٨ م) وتحدث فى كتاب رحلته عن كثرة السفن التجارية الراسية فى موانيها ، وكثرة ما كانت تحمله من بضائع تزود بها المتجر السلطانى (٦) . كذلك تحدث عن هذا الامر كل من الجغراف العربى الادريسى والرحالة اليهودى بنيامين التطيلى الذى زار الاسكندرية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م ، وذكر أنه شاهد فى مينائها سفنا عدة تنتمى الى تسع وعشرين دولة ومدينة أوربية (٧) .

ولقد أنشأت حكومة مصر الفاطمية المنشآت التجارية ، لخدمة التجارة فى الداخل والخارج ، وقد تمثلت هذه المنشآت فى القيساريات والخانات والفنادق والوكالات ، اضافة الى المتجر السلطانى .

وقد تكونت القيسارية (٨) من مجموعة من المبانى العامة المخصصة لكافة التعاملات التجارية والمالية وتشتمل على حوانيت ومصانع ومخازن وأروقة ومساكن فى بعض الاحيان . وكانت هنالك مساجد أيضا داخل بعض هذه القياسر لصلاة تجار المسلمين بها . كذلك كانت تعلو هذه القياسر رباع ذات غرف سكنية خصصت للصناع والتجار مقابل دفعهم أجر معين .

---

(٤) Wiet: L'Egypte Arabe, Le Caire, 1937, p. 306.

(٥) بويع الخليفة المستنصر بالله بالخلافة للنصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وأقام ستين سنة وأشهرا فيها ، وتوفى ليلة الخميس ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ عن ٦٧ سنة ونصف (المقريزى : الخطط ، ص ٣٥٦) .

(٦) ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٨٣ ، ٨٤

(٧) Clerget, M.: Le aCire, T. I, Le Caire, 1934, pp. 216-217.

(٨) كلمة قيسارية مشتقة من لفظ يونانى بمعنى السوق الامبراطورية مما يدل بوضوح على أنها كانت من انشاء الدولة فى دولة الروم . وكانت القيسارية فى مصر الاسلامية تسمى عادة باسم المسئول الحكومى الذى يشيدها كقيسارية ابن مسير أو باسم ما يباع فيها كقيسارية العصفر وقيسارية العنبر .

أما الخانــات ، ومفدها خان (وهى كلمــة فارسية الأصل) ، وهى أبنية ضخمة تحتوى على مجموعة من الحوانيت الكبــيرة والصغيرة ومستودعات البضائع . وفى هذه الخانات يجد التجار المسلمون الأغراب عن مصر المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم ، وهى تؤدى للتجار المسلمين الأغراب ما تؤديه الفنادق فى الموانى بالنسبة للتجار الأجانب الغربيين (٩) .

أما الفنادق ، ومفردها فندق (١٠) ، وهو بناء ضخم مربع على شكل الحصن تمتد خارجه حدائق غرست بها بعض الأشجار . وهو يتألف من عدة طوابق ، وفى الدور الارضى منه توجــد المخازن والحوانيت التى تطل على فنــاء داخلى فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها بينما تضم أدواره العليا مساكن للتجار الاغراب الاجانب . وكان كــل فندق فى العامة يحتوى على كنيسة صغيرة يقيم التجار فيها شعائرهم الدينية ، كما كانت به فرن لصناعة خبزهم وحمام وقاعة خاصة مصرح لهم فيها بشرب النبيذ (١١) .

وقد سمحت الحكومة الفاطمية ، فى مطلع القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى لكل جالية من الجاليات الأوربية ببناء فندق خاص بها فى ميـنــاء الاسكندرية بعد الحصول على الاذن بذلك منها (١٢) . ولم يكن للأجانب حق ملكية الفنــادق التى ينشئونها فى مصر ، فهى أبنية مصرية وضعتها السلطات المصرية تحت تصرف تجارهم تسهيلا لاقامتهم فى البــلاد وقيامهم بالصفقات التجارية . وكان الديوان (ادارة الجمارك بالموانى) هو الهيئة التى تشرف على هذه الفنــادق وتكلف بالسهر على سلامتها ودفــع ايجارها واصلاحهــا وصيانتها . ويشرف على كــل فندق موظف يعرف بالفندقى والفندقانى تختاره الجالية التى يتبع لها الفندق وهو الذى يمثلهم أمام السلطات . وكان قنصل كل دولة مسئولا أيضا عن فندق دولته وعن تسديد رسوم التجار للخليفة ورصد جزء منها لاصلاح المبنى وصيانته . وكــان ينص على ذلك فى المعاهدات التى تعقدها الدول الأوربية التجارية مع الدولة (١٣) .

---

(٩) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٥٦ (Goitein: Amed Society, I, p. 194).

(١٠) كلمة فندق كلمة يونانية الأصل Pandokein وتقابلها فى الايطالية كلمة Fondaco وكان يعرف فى بيزنطة باسم Mitata
(López: Medieval Trade in the Medieval World, London, 1955, p. 85).

(١١) سامى سعد : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الادنى والجمهوريات الايطالية ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١١٢

(١٢) كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب فى عهد الفاطميين والأيوبيين ، القــاهرة ١٩٧١ ، ص ١٧٢ .

(١٣) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٥١

ولم تقتصر الفنادق على سكنى التجار الاوربيين فحسب ، بل كانت هنـالك فنادق لتجار الشام والمغرب ولتجار الكارم على طول طريقهم التجارى . وقد بنى الفاطميون فندقا لتجار الكارم فى الفسطاط فى عهد الخليفة الحافظ (١٤) . وقد بنى تجار الكارم أيضا فنـادق لهم على حسابهم الخاص فى مـدن قوصى وعنداب والاسكندرية (١٥) ، هذا بخلاف الفنادق التى بنوها لأنفسهم فى عدن وزبيد وجدة (١٦) .

والوكالات ، ومفردها وكـالة ، وهى تشبه الفندق فى نظامها ، والاختلاف الوحيد بينهما هو أن الوكالة كانت مقصورة على نزول التجار القادمين من بلاد الشرق الاسلامى ، وكانت تتم فى الوكالات عمليات البيع والشراء بين التجار بالجملة والتجزئة وتوزيع ما يرد اليها من سلع وبضائع على الأسواق . وكان تجار الشرق يتخذون الوكالة مسكنا لهم مدة اغترابهم عن بلادهم . وقد أورد المقريزى أنه لذلك كانت تعلو الوكالات رباع تشتمل على بيوت كثيرة وعدد وافر من السكان (١٦) . ولم يقتصر بناء الوكالات على الحكومة بل شارك فى بنائها كبار التجار وأصحاب الثقة عند الحكام ، وكان هذا النوع من الوكالات يتسمى باسم مؤسسيها . هذا وقد انتشرت الوكالات فى القاهرة والفسطاط والاسكندرية ودمياط ، وقد أشارت وثائق الجيزة الى هذا الانتشار (١٨) .

---

(١٤) تنتسب تجارة الكـارم الى جماعة الكارمية ، وهم ، كما حدثنا عنهم وثـائق الجنيزة ، طائفة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الاقصى فى التوابل وسلع الشرق الغنية ، وكان مركز نشاطهم الاول فى المحيط الهندى . وقد كان المحيط الهندى ، منذ القدم ، هو السوق التجارى الكبير الذى كانت تجتمع فى موانيه سلع الشرق الاقصى والهند وغيرها . وقد اتخذ تجار سلع الشرق قواعد لهم فى موانى ساحل الهند الغربى وفى الخليج العربى وعند مدخل البحر الاحمر الجنوبى . وبرغم أن تاريخ نشأة طائفة تجار الكارم لم يتحدد بعد فانه من المعروف أن هذه الجماعة نشأت فى المحيط الهندى أو على الشاطىء الغربى للهند ، وأنها وجدت هناك ، فى بداية الامر ، على صورة ما ثم تطورت مع الزمن وصار هذا الاسم هو ما عرف به هذه الجماعة منذ العهد الفاطمى وتوارثه من جاء بعدهم أو من تحولت اليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها . وآخر الدراسات عن نشأة تجارة الكارم هى الدراسة التى قام بها المستشرق جواتياين من واقع وثـائق الجنيزة وأثبت فيهـا نشاط هؤلاء التجار فى عهد الفـاطميين مؤكـدا اشارة القلقشندى لنشاطهم فى هذا العهد ، (عن هذا الموضوع انظر للمؤلف : تجـارة مصر فى البحر الاحمر ، صفحات : ٩١ – ١٠٤) .

(١٥) كما بنى الايوبيون أيضا فندقا للكارم فى القاهرة ، بناه أميرحماة تقى الدين بن عمر ابن أخ صلاح الدين (ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، طبعة بولاق ١٣١٠ هـ ، ص ٤٠) .

(١٦) Attiya, A. S., Cruzade, Commerce and Culture, London, 1962, p. 197.

(١٧) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ ٢ ، ص ٩٢

(١٨) Goitein, S. D.: A Mediterranean Society of the high Middle Ages, New York, 1967, pp. 189-190.

وبالاضافة لهذه المنشئات التجارية التى أنشأها الفاطميون لتسهيل التجارة وتيسير أمورهــا فى الداخــل والخــارج أنشأوا أيضــا المتجــر السلطــانى والأهراء(١٩) ،لخزن بعض السلع التى تشتريها الحكومة كمخزون احتياطى كالغلال ، ثم بيعها للتجــار وقت الحاجة اليها والاستفادة بربح بين فرق ثمن الشراء والبيع (٢٠) .

وكان الاصل فى اقامة المتجر السلطانى خزن الغلال فى أهراء الدولة (شون الدولة) (٢١) ، فاذا ما شحت الأقوات من الاسواق سواء بسبب جشع التجار أو لنقص المحصول نتيجة لعوامل طبيعية من قحط أو سيول لا سلطان للناس عليها أخرجت الحكومة ما فى مخازنها وباعته للناس بأسعار معقولة (٢٢) ، بل ان مجرد وجود آلاف الارادب من القمح فى شون الحكومة على استعداد وجاهز لانزاله فى السوق يكفل ، الى حد كبير ، عدم ارتفاع الأسعار بلا مبرر ويحول ، دون شك ، دون أى محاولة من جانب تجار الغلال للتحكم فى أسعار السلع التى لا غنى للنــاس عنها فى معايشهم . ويرجع انشاؤه الى الوزير الحسن بن على

---

١٩ – ٢٠) تحدث المقريزى فى خططه (جـ ١ ، ص ٤٦٥) عن احتكار حكام الفاطميين لتجارة الغلال وذكر عند حديثه عن أهراء الغلال السلطانية (شون الغلال) فى دولة الفاطميين أن المواضع التى كانت فيها فى أيامه هى : خزائن شمائل وما وراءها الى قرب حارة الوزيرية . وكانت خزائن شمائل بجوار باب زديلة على مسيرة من دخل منه بجوار السور ، وعرفت بهذا الاسم نسبة الى الأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل الايوبى وما زالت هذه الخزائن على ذلك الى أن هدمها الملك المــؤيد شيخ المحمودى يوم الاحد العــاشر من شهر ربيع الاول سنة ٨١٨ هـ وأدخلها فى جملة ما هدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة (المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ١٨٨) .

أما حارة الوزيرية فهى تنسب الى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر ، وهى منسوبة الى الوزير يعقوب بن كلس والطائفة المنعوتة بالوزيرية منسبوة اليه (المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥) .

وذكر ابن الطوير أن الأهراء كانت فى عدة أماكن بالقاهرة ، هى فى أيامه اصطبلات ومناخات ، وأنها كانت تحتوى على ثلثمائة ألف اردب من الغلال وأكثر من ذلك . وكان فيها مخازن يسمى احداها بغدادى والآخر الفول وآخر القرافة ، ولها الحمــاة من الامراء والمشارفين من العــدول والمراكب واصلة اليها بأصناف الغلات الى ساحل مصر وساحل المقسى والحمالون يحملون ذلك اليهــا بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنــائها من كــل ناحية سلطانية . (انظر المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥) .

(٢١) ذكر المقريزى أن الاقوات كانت تطلق من هذه الأهراء السلطانية لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد وجرايات العبيد السوداء ، وما ينفق فى الطواحين برسم خاص للخليفة . كذلك ذكر أنه كانت تخرج من الأهراء جرايات رجال الاسطول . وذكر ابن المأمون أن غلات الوجه القبلى كانت تحمل الى الاهراء ، وقال أن متحصل الديوان من الغلال فى كل سنة ألف ألف اردب ، كانت تقام فى المتجر (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥) .

(٢٢) راشد البــراوى : حالــة مصر الاقتصاديــة فى عهد الفــاطميين ، القــاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

عبد الرحمن اليازورى (٢٣) ، وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٢٤) . قال جامع سيرة الوزير اليازورى : « وقصر النيل بمصر سنة ٤٤٤ هـ ، ولم يكن فى مخازن الغلال شىء فاشتدت المسغبة بمصر ، وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف اليه القضاء فى أيام أبى البركات الوزير كان يبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف درهم وتجعل متجراً » .

ولقد قام المتجر حين تعرضت البلاد لأزمة فى الغلال سنة ٤٤٥ هـ ، أى فى السنة التالية مباشرة لانشاء المتجر وفى سنة ٤٤٦ هـ ، مما اضطر المتجر الى تصريف تلك الكميات المخزونة . ولما كانت الازمة شديدة للغاية آنذاك لم يوفر المتجر ما يحتاجه الناس الى القمح الكافى مما اضطر المتجر الى أن يشترى كميات أكبر من التجار الذين يحتكرون الغلال عن طريق شرائها فى السنابل والقيام بتخزينها فى مخازنهم . فمنعهم اليازورى من أخذ الغلال ودفع لهم الاموال التى دفعوها فيها وأربحهم ثُمن دينار فى كل دينار دفعوه تطييبا لانفسهم ثم حمل الغلال الى المتجر بالفسطاط ووزع القمح على الناس الى أن زال الغلاء بإدراك الناس الغلة التالية .

---

(٢٣) ذكر عنه ابن منجب الصيرفى (الاشارة الى من نال الوزارة ، طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٤٠ – ٤٦) هو الوزير الاجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الاصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن على عبد الرحمن اليازورى . كان أبوه من أهل يازور قرية من عمل الرملة ، وكان من ذوى اليسار فانتقل الى الرملة وشهد فيها وولى ولده هذا الحكم بها بعد وفاة أخيه وتعلق بخدمة والده الامام المستنصر بالله فلما صرف وصل الى الباب فكان يواصل السؤال فى العود الى وطنه وخدمته فسمى له الاستاذ عدة الدولة رفق فى خدمتها بباب الريح بعد قتل أبى سعد التسترى اليهودى الذى كان يخدمها فخلع عليه لذلك وتولاه . وكره الوزير أبو البركات تعلقه بخدمة السيدة فدبر فى نقله إلى الخدمة فى القضاء عوضا من ابن النعمان وطمع فى استخدام ولده بباب الريح عوضاً منه فحصلت الخدمتان له ولم يتم للوزير ما أراده .

وقرىء سجله بالوزارة وذلك فى سابع محرم سنة ٤٤٢ هـ وخلع عليه ولقب الالقاب التى تقدم ذكرها ثم زيد فى نعوته الناصر للدين غياث المسلمين وجعل ذلك أول النعوث وعوض من خالصة أمير المؤمنين بخليل أمير المؤمنين . ونظر فى الوزارة فنهض بها . فى عهد وزارته حدث انتصار البساسيرى فى بغداد والخطبة للمستنصر من على منابرها . وكان اليازورى لا يستبد برأيه ولا يأنف من مشاورة ثقاته وأصفيائه وكان كثير الحياء ، وقيل أن تغميض عينيه اذا ركب لفرط حيائه . ولما سعى به أنه حمل الأموال الى الشام فى التوابيت وشمع سبكه وأنفذه الى القدس والخليل وأنه قد عول على الهرب الى بغداد قبض عليه فى المحرم سنة ٤٥٠ هـ ، وسير الى تينس فقتل هناك .

فى كتاب أخبار مصر لابن ميسر (نشر هنرى ماسيه ، طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩١٩ ، جـ ٢ ، ص ٢ – ٨) أن رقبته ضربت فى الثانى والعشرين من صفر وأن جثته ألقيت على مزبلة ثلاثة أيام ، ثم جاء الأمر بتكفينه ودفنه فغسل وحنط بحنوط كثيرة وحمل بين العشائين ودفن ، ثم أعيد رأسه فدفنت مع جثته .

(٢٤) كان قد جمع لهذا الوزير ما لم يجمع لغيره من تقليد الوزارة والحكم بديار مصر والشام ولكن وشى به أبو الفرج البابلى أحد اتباعه ورجاله عند الخليفة واتهم بأنه يكاتب طغرلبك ويحسن له المجىء الى مصر وأنه أخرج أمواله مع ولده الى بيت المقدس .

ولقد أدى التذبذب فى كميات القمح من عام لآخر وعدم ضمان ثبات توفيره إلى دفع الوزير اليازورى الى أن يقنع الخليفة المستنصر بالتحول عن تجارة القمح الى أصناف أخرى أكثر ضمانا وأقل تعرضا للتلف كالخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما شابه ذلك (٢٥) .

ويعتقد المقريزى أن تنفيذ اقتراح اليازورى هذا بتحويل المتجر عن تجارة القمح قد أدى الى دوام الرخاء عدة سنين (٢٦) ، ويبدو أن المقريزى قصد بذلك الرخاء الذى عم المتجر وزيادة الدخل له ، ذلك لأن السنوات التالية لم تشهد مصر فيها رخاء بل شهدت ازدياد الغلاء سنوات ٤٤٥ ، ٤٤٦ هـ بسبب نقص مياه النيل وقلة كميات الغلال المتوفرة ، واضطرار اليازورى نفسه الى شراء الغلال بسعر أزيد مما كان يبيعه المتجر من التجار الذين يحتكرون الغلال اذ دفع لهم الأموال التى دفعوها فيهـا وأربحهم ثمن دينار عن كل دينـار دفعوه تطييبا لنفوسهم . ثم حمل الغلال الى المتجر بالفسطاط ووضع سعرا محددا للقمح حتى انفرجت الازمة (٢٧) ثـم صرف الوزير نظره عن الاتجار فى الغـلال فى المتجر والاتجار عوضا عنه فى سلع أخرى .

ويواصل المقريزى قوله عما نقله عن جامع سيرة الوزير اليازورى بصدد المتجر : « .. فمثل القاضى بحضرة الخليفة وعرفه أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين . وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن فى المخازن وتتلف . وأنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلـة ولا يخشى عليه من تغيره فى المخـازن ولا انحطاط سعره وهو : الخشب والصابون والحـديد والرصاص والعسل ومـا أشبه ذلك . فأمضى السلطان له ما رآه واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر وآخر من عمله الظاهر برقوق » (٢٨)

وبسبب تدبير الوزير اليازورى توسع فى عمل المتجر فى عهد الخليفة المستنصر وفى عهد الخلفاء من بعده (٢٩) . فصار لا يقتصر على خزن الغلال ولكن زيـد

---

(٢٥) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ١٨ ، ١٩

(٢٦) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢٠

(٢٧) تحدث المقريزى فى خططه عن أهراء الغـلال السلطانية فى دولة الخلفاء الفاطميين وان المواضع التى كانت فيها أيامه هى : خزانة شمائل وما وراءها الى قرب حارة الوزيرية (الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٥) . وعن خزانة شمائل ذكر المقريزى بأنها كانت بجوار باب زويلة على يسرة من دخل منه بجوار السور .

(٢٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩

(٢٩) بلغ فى أيام الوزير اليازورى التليس من القمح ، بعد انفراج الأزمة ، ثمـانية دنانير (ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، صـ ٤٣) .
والتليس ٨ ويبات ، والاردب ٦ ويبات ، والويبة ١٥ من ، والتليس ١٢٠ منا .

عليه خزن السلع التى ترد على يد تجار الغرب ولا يتعرض تخزينها للتلف والتى تحتاج البلاد اليها . فصار المتجر يشترى لحسابه جميع الخشب والحديد والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ويحتكر تجارتها ، وكان يبيعه بدوره وقت الحاجة للتجار مقابل كسب يسير . وعند حاجة الدولة بدورها لهذه المواد لبناء المراكب الحربية مثلا أو لعمارات الحصون وخزائن السلاح كان المتجر يشتريها من نفس التجار الذين باعهم اياها بأسعار عالية تصل أحيانا الى أضعاف الثمن ويكسب التجار بذلك أموالا طائلة من ديوان الثغور(٣٠

وكانت هنالك ادارة/فى عهد مصر الفاطمية فى الثغور : الاسكندرية ، دمياط ، تنيس ، رشيد ، عيذاب ، وأسوان . تتولى مراقبة وصول وابحار السفن وجباية الرسوم . فاذا ما وصلت السفينة دست فى مكان معين الى أن يصعد على ظهرها الموظفون المختصون الذين أطلق عليهم ابن جبير « الأمناء » ، لتقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ثم يساق التجار بعد ذلك الى مكان التفتيش ، وبعد هذا تنقل السلع الى الفندق حيث يجرى بيعها أمام سماسرة معينين من قبل الحكومة وهناك موظفون للاشراف على كل شىء حتى يتيسر للحكومة الحصول على نصيبها . وكان من بين أعمال موظفى الجمرك تحديد ما تريد الحكومة شراءه من حديد وخشب وقطران وغير ذلك للمتجر (٣١) .

وكان ديوان المتجر يحتكر الشب والنطرون فيؤتى بهما من مواطن الانتاج ويسلمان اليه ، ويبيع المتجر الشب لتجار الروم الواردين على ثغر الاسكندرية. وكان محصول الشب فى السنة اثنى عشر ألف قنطار ، يباع القنطار منه بسعر يتراوح بين أربعة وستة دنانير ويحتفظ بجزء لمستهلكين بسعر ٧½ دينار للقنطار . وكانوا يستخرجون من النطرون عشرة آلاف قنطار (٣٢) . وكانت الحكومة تستولى على محصول الشب والنطرون لاحتياج تجار الروم اليهما وتبيعهما بأسعار مقابل الحصول على بعض المواد الضرورية من الخارج مثل الأخشاب والحديد والقطران والسلاح وحجارة الطواحين والبياض .

وتحدث الأسعد ابن مماتى ، أحد وزراء الدولة الأيوبية البارزين ، فى كتابه « قوانين الدواوين » عظيم الفائدة يصف لنا حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجرى / ١٢ م (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م) ، فأشار الى احتكار المتجر السلطانى للشب فى العهدين الفاطمى والأيوبى ، فقال ما نصه : « الشب حجر

---

(٣٠) النابلسى : لمع القوانين المضية ، نشر كلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦١ ، ص ٤٥ ، ٤٦

(٣١) راشد البراوى : نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣٢) البراوى : نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٨

معروف يحتاج اليه فى أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر ، وللروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون من الفايدة ، وهو عندهم مما لابد منه ولا مندوحة عنه ، ومعادنه (مناجمه) بصحراء صعيد مصر . وعادة ديوان المتجر أن ينفق فى تحصيل كل قنطار منه بالليثى ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك (٣٣) . وتهبط به العرب الى ساحل قوص والى ساحل اخميم والى البهنسا ان كان أتى به من الواحات ويحمل من أى ساحل كان فيه الى الاسكندرية ولا يعتد المستخدمين منه الا بما يصلح بالاعتبار فى متجرها هذا الذى توجبه الحوطة لئلا يؤخذ فى غيرها فينقص أو يهيج به البحر فيغرق ومن خرج على ذلك فقد تعرض للدرك وتصدى للخطر وهو يشترى بالليثى ويباع بالجروى وأكثر ما بيع منه فى المتجر خمسة آلاف قنطار ، وبيع منه فى سنة ثمان وثمانين وخمس مماية عند ما كان الديوان جاريا فى نظرى ثلاثة عشر ألف قنطار ، وآخر ما تقرر تحصيل حمله الى المتجر صنفه اثنى عشر ألف قنطار . فأما سعره فمن خمسة دنانير وربع وسدس الى خمسة دنانير كل قنطار . ومبلغ ما يباع منه بمصر (على اللبادين والحصريين والصباغين فمقداره ثمانون قنطارا بالجروى فى السنة) وسعره سبعة دنانير ونصف كل قنطار . وليس لاحد أن يشتريه أو يبيعه سوى الديوان (ديوان المتجر) أو (الديوان السلطانى) ومتى وجد شيئا من صنفه مع أحد أستهلك تغليظا فى عقوبة المتعدى عليه (أستهلك حمسا للمادة وتغليظا فى العقوبة . ولم تجر العادة بحمل شىء منه الى دمياط وتنيس وأما حمله الى الاسكندرية ؛ ومنه نوع يسمى الكوارى يحفر من الواحات ويعتد به المستخدمون فى حوالتها كل قنطار بدينار وقيراطين ، ويمضى ذلك محمولا الى المتجر على ما سلف الحديث فيه والراغب فيه قليل) ؟ ؟

ولقد أقامت الدولة الفاطمية المتاجر لها فى الثغور « ويبتاع فيها للديوان من بضائع تجار الروم الواردين الى هذه الثغور مما تدعو اليه الحاجة وتقتضيه فى طلب الفايدة والمصلحة » (٣٤ — ٣٥) .

---

(٣٣) كانت الحكومة تشترى الشب بالرطل الليثى وتبيعه بالقنطار الجروى والقنطار يساوى ١٠٠٠ رطل (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٣٢٨) .

الرطل المصرى : ١٢ أوقية : ١٤٤ درهم
الرطل الجروى : ٣١٢ درهم
الرطل الليثى : ٢٠٠ درهم
الرطل الحريرى : ١٢٠ درهم
الرطل التليوبى : ١٥٠ درهم
الرطل الفيومى : ١٥٠ درهم
الرطل الفلفلى : ١٥٠ درهم لوزن الفلفل

(راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٠٣)

(٣٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩

(٣٥) ابن مماتى : نفس المصدر ، ص ٣٢٧

ولقد اختلفت قيمة الرسوم التى كانت تحصلها الدولة فى الثغور من تجـار الروم الواردين عليها وبخاصة ثغر الاسكندرية ، فقد كان يؤخذ من تجار الروم الواردين على ثغر الاسكندرية الخمس ، ومن أجناس الروم من يستأدى منهم العشر (٣٦) .

فالخمس ما يستأدى من تجـار الروم الواردين فى البحر (٣٧) الى ميناء الاسكندرية عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه . وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثون دينـارا ، وربدا انحط عن عشرين دينارا ، ويسمى كلاهما خمسا (٣٨) . وقال القاضى الفـاضل : « والحاصل من خمس الاسكندرية سنة ٥٨٧ هـ ٢٨ ألف دينـار و ٦١٣ دينارا (٣٩) .

ويذكر ابن مماتى عن تجارة المتجر فى الشب قوله : « فان زاد ثمن المبتـاع من التاجر (تاجر الشب) شيئا عما يجب عليه من الخمس أعطى به شيئا بحق الثلثى وذهبا بحق الثلث (ثلثى الزيادة بضاعة والثلث دنانير ذهبية) . وأصل ثمن هذا الشب ورد من جملة ارتفاع المتجر على عادة جرت وقاعدة استقرت . (والذى يشترى للمتجر الخشب والحديد وحجارة الطواحين والبياض ، فأما غيره فلم تجر العـادة به الا أن يؤمر المستخدمون به) . وحكم مـا يجرى فى دمياط وتنيس يتدرج بحسب حكم الاسكندرية وبينهم فرق فى بعض الضرائب . ورشيد ليس فيها خمس ، وانما ذكرت لأنها ثغر ، وربما ألجأت الريح المراكب الى دخولها وصعب اخراجها فتنتدب المستخدمين بالاسكندرية من ينوب عنهم فى توجيب ما عليها وأخذ ما يجب منها . فأما عيذاب تاجرها استقر فيه الزكاة وواجب الذمة لا غير (٤٠) .

وكان المتجر السلطانى يتـاجر لحسابه الخاص فى أنواع أخرى من السلع خلاف الخشب والحديد والشب والنطرون ، وكان الكتان واحدا من هذه السلع التى تاجر فيها ، وخاصة حين أصبح الكتان ، غلة الاقتصاد الرئيسية فى مصر العصور الوسطى ، مشابها لمحصول القطن فى التاريخ الحديث (٤١) . وكان على التجار قبـل أن يتوافدوا على المتجر السلطانى لشراء الكتـان أن يقدموا

---

(٣٦) راشد البراوى : نفس المرجع ، ص ٢٦٨
(٣٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، القاهرة ١٩٣٦ ، هامش رقم ٥
(٣٨) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦
(٣٩) المقريزى : الخطط ، ط ، ص ١٠٩
(٤٠) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧
(٤١) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر ، ص ٢١١

النقـود المطلوبة للديوان الذى يتبـع له المتجر ، ثم يقـوم الديوان الرئيسى للحكومة فى القاهرة بتحديد السعر النهائى للبيع .

وتظهر لنا وثـائق الجنيزة أن الحكومة كانت فى بعض الأحيـان هى القوة الوحيدة القادرة على شراء السلع المعنية المرتفعة السعر . فحين وصل قنطار الفلفل فى الاسكندرية الى أربعين دينارا نقرأ فى وثائق الجنيزة العبارة التالية : « بمثل هذا السعر لا يستطيع التاجر الا أن يبيع للمتجر الحكومى » (٤٢) .

وفى سنــة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م نقرأ خطابا من خطابـات الجنيزة مرسلا من الاسكندرية يذكر فيه صاحبه التاجر قوله بما نصه : « أن كـل الحرير الذى وصل البلاد اشتراه المتجر الحكومى عدا كميات قليلة لم يشتريها لأنها كانت من النـوع الردىء » ، ويبدو من النص أن الحرير كان مرتفـع الثمن فى ذلك العـام (٤٣) .

ومما لا شك فيه أن الحكومة الفاطمية كانت تتاجر فى الكارم للحصول على السلع الضرورية اللازمة للمتجر . ولقد أشارت وثائق الجنيزة الى وجود قوافل صغيرة من السفن المتاجرة فى الهند يمتلكها الحكام وتحمل هذه القوافل بضائع من والى الهند (٤٤) . وكانت الـدولة لذلك تحمى سفن الكـارم من القرصنة البحرية وخصصت لذلك أسطولا راسيا فى ميناء عيذاب لحماية الكارم ، كما ورد على لسان القلقشندى (٤٥) .

ولقد انتقـد المؤرخ ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكـام واعتبره منافسة غير مشروعة ، فى مقدمة كتابه العبر (٤٦) ، فى فصل بعنوان : « فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة بالرعاية مفسدة للجباية » ، كتب يقول : « ان الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى الى غاية موجودهم أو تقرب ، واذا دافعهم السلطان فى ذلك ، وماله أعظم كثيرا منهم ، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غـم ونكد . ثم ان السلطان قد ينـتزع الكثير من ذلك اذا تعرض لـه غصبا (٤٧) أو بأيسر ثمن اذ لا يجد من ينـافسه فى شرائه فيبخس ثمنـه على بائعـه » .

---

(٤٢) Goitien: Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1967, páginas 267-268.

(٤٣) Goitien: Op. cit., p. 268.

(٤٤) Ibid, p. 289.

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٤

(٤٦) ابن خلدون : المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٤٠

(٤٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١

ثانيا : المتجر السلطانى فى العهد الأيوبى :

لقد تابع الأيوبيون والمماليك سياسة الفاطميين التجارية ، واستمر المتجر السلطانى يؤدى فى عهدهما نفس العمل الذى كان يؤديه أيام الفاطميين ، وظلت مصر والبحر الاحمر القنوات الرئيسية للتجارة بين الشرق والغرب حتى الفتح العثمانى لمصر (٤٨) .

وكان اقتصاد مصر قد تأثر فى أواخر أيام الفاطميين بسبب الأحداث السيئة والاضطرابات الداخلية والصراع بين الوزراء على الحكم . وبعـد أن خلص حكم مصر لصلاح الدين كانت أول المسئوليات التى وقعت على عاتقه هى اصلاح اقتصاد البلاد وانتشالها من حالة الشلل الاقتصادية التى كانت تعيش فيها . وقد ادرك صلاح الدين أن التجارة وانتعـاشها هى السبيـل الوحيد لاصلاح اقتصاد البلاد ، فبذل قصارى جهده لانعاش تجارة مصر لانعاش اقتصادها . وأخذت أحوال تجارة مصر فى التحسن بعد الجهود التى بذلهـا صلاح الدين وخلفاؤه من بعده من حكـام الدولة الأيوبية لاعادة تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر أراضيها بعد انقطاعها فترة من الزمن بسبب الحروب الصليبية . وقد عادت الجمهوريات التجارية الايطالية الى الاتجار مع مصر فى بداية حكمه لها رغم استمرار الحروب الصليبية . وكان اقتصاد هذه الجمهوريات قد أضير بسبب قرار المقاطعة ولم تعوضها المكاسب والامتيازات التجارية التى نالتها من قادة الصليبيين عما كانت تجنيه من عائدات التجارة مع مصر . وقد وازنت هذه الجمهوريات بين مـدى ماسوف تستفيده من جانب الطرفين المتنـازعين المسلمين والصليبيين فوجدت أنها تستفيد أكثر من الجانب الاسلامى المعتدى عليه ، لذلك رجحت عندها كفة التعامل معه .

وكان للجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفـاؤه من بعده أثر كبير فى جذب التجار الايطاليين ثانية الى الثغور المصرية . وقـد تغلب على عوامل المقاطعة الرغبة المشتركة بين مصر وهذه الجمهوريات فى الاستفادة من هذا الباب الوفير من الربح فى تجارة الشرق . وفضلا عن ذلك فقـد أفلحت الجهود التى بذلهـا صلاح الدين فى تحييد أباطرة بيزنطة فى حربه مع الصليبيين ، وقد تم له بالفعل تـوقيع معـاهدة سلام فى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م مـع الامبراطور البيـزنطى الكسيوس كومنين (٤٨) . وعلى أثر عقد هذه المعاهدات تشجعت الجمهوريات الايطالية على العودة للاتجار مع مصر من جديد وتزويد المتجر السلطانى بما يحتاجه من سلع وبضائع .

---

(٤٨) Bernard Lewis: The Fatimids and the route to India, Revue de la Faculté des Sciences Economiques, Université d'Istanbul, v. II, Istanbul, 1949-1950, p. 54.

وكانت قرارات البـاباوية الخاصة بمنـع الاتجار مع المسلمين قـد لقيت اعتراضات كثيرة من جانب تجار الفرنج ، كما أوضحت البندقية للبابا أنوسنت أن اقفال سوق لها مثل تلك الأهمية أمام تجارها يعتبر بمثـابة ضربة قاضية لاقتصادها فرضخ البابا أمام هذه الاعتراضات وقصر الخظر على بيـع المواد الخام التى تخدم القوة الحربية لمصر مباشرة .

ورحب صلاح الدين ، برغم حالـة الحرب القـائمة بينه وبين الصليبيين ، بالتجار الايطاليين وفتح لهم أبواب بلاده وأغراهم بالعودة الى نشاطهم السابق بثغر الاسكندرية . وقد نجحت جهود صلاح الدين فى هذا الصدد ، ويحكى ذلك النجاح فى المعاهدات التجارية التى عقدها مع ممثلى البندقية وجنوة وبيزا فى سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م (٤٩) .

ونتيجة لعودة سفن الغرب الى الاسكنـدرية نشطت الحركة فى هذا الميـنـاء وزودت السفن المتجر السلطانى ببضائعها المتنوعة . وقـد شهد الرحالة ابن جبير ، عنـد وصوله الى ميـنـاء الاسكندرية سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣ م ، الأعداد الهـائلة من سفن التجار الأوربيين التى جاءت لتزويد المتجر السلطـانى بما يحتاجه كذلك لنقل تجارة الشرق الى أوربا . وفى شتاء سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ — ١١٨٨ م كان بميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من جنوة وبيزا والبندقية وغيرها من مدن الدول الأوربية (٥٠) .

وكانت البندقية أول المدن التجارية الاوربية التى سارعت باعادة العلاقات التجارية مع مصر وتضمنت معاهداتها المعقودة مع صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م منحها تسهيلات واسعة لتجارها فى ثغر الاسكندرية (٥١) . وجاءت جنوة بعد البندقية ، وعقدت معاهدة مع صلاح الدين فى نفس العام وسمح لها ، بمقتضى هذه المعاهدة باتخـاذ قنصل لهـا فى الاسكندرية يشرف على تجارها المقيمين بالمدينة وعلى تجارها المترددين عليها والمتعاملين مع المتجر السلطانى، الا أن جنوة لم تعين لها قنصلا فى الاسكندرية الا سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م . كذلك أرسلت بيزا سفيرها فى نفس العام الى القاهرة ، وكان يدعى «الدبراندو» وعقد مع صلاح الدين معاهدة تجارية ذات شروط سخية . غير أنه حدث فى ذات العام ما كاد يقضى على هذه العلاقة بسبب مهاجمة البيـازنة فى البحر لتـاجر كان صديقا لشمس الدين توران شاه أخ صلاح الدين كان يحمل معه ٢٢٥ قنطارا من الشب اشتراها لحساب المتجر السلطانى (٥٢) . ولكن حكومة بيزا سرعان

---

(٤٩) عطية القوصى : تجارة مصر ، ص ١٤٥ ، ١٤٦
(٥٠) عطية القوصى : نفس المرجع السابق ، ص ١٤٦
(٥١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٤
(٥٢) عطية القوصى : تجارة مصر ، ص ١٤٩

ما تداركت الامر وأعادت الشب المطلوب للمتجر دون نقصان الى مصر وكتبت تعتذر لصلاح الدين عن هذا الحادث .

هذا ولم تنته العلاقات التجارية بين المدن الايطالية التجارية ومصر بوفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٢ م ، فقد واصل خلفاؤه من بعده سياستهم ازاء تجار الفرنج واستمروا فى الترحيب بهم الأمر الذى أدى الى جلب المزيد من البضائع لمصر عموما وللمتجر السلطانى خصوصا (٥٣) . وقد قامت كل من جمهورية بيزا والبندقية بتجديد معاهداتهما التجارية مع مصر مع الملك العادل أخى صلاح الدين ، الذى صار سلطانا على مصر وعلى جانب كبير من أملاك صلاح الدين فى الشام سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م . ولم يتوان البيازنة والبنادقة من أن يصدروا الى مصر والمتجر السلطانى ما تشددت الكنيسة فى تحريم بيعه للمسلمين من الاسلحة والذخيرة وأخشاب السفن .

وأرسلت البندقية الى مصر سفارة أخرى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٣٤ م فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب لتأكيد الامتيازات التجارية التى حصلت عليها من أخيه الملك العادل الثانى (٥٤) . وقد كانت حكومة البندقية والحكومات التجارية الأوربية الاخرى حريصة على أن تثبت لكل حاكم جديد يتولى الحكم فى مصر رغبتها الأكيدة فى استمرار صلاتها التجارية معها برغم استمرار الحروب الصليبية .

وهكذا فشلت سياسة البابا وية وقادة الحروب الصليبية فى فرض الحظر التجارى على مصر ، وبالتالى فشلوا فى ضرب اقتصادها بحرمانها من المورد المالى الهائل الذى كانت تحققه من وراء تجارة المرور بين الشرق والغرب وحرمان المتجر السلطانى من البضائع والسلع اللازمة له (٥٥) .

ولقد استمر المتجر السلطانى بثغر الاسكندرية زمن الأيوبيين يشترى من تجار الروم والفرنج مختلف البضائع اللازمة للدولة الأيوبية وللجيش الأيوبى من أخشاب وأدوات حديدية وأجواخ وأقمشة صوفية التى يجلبونها معهم . وكان الشراء منهم يتم بطريقة خصم أثمان البضائع المشتراة منهم من قيمة الخمس المفروضة عليهم كضريبة جمركية عند دخولهم ميناء الاسكندرية ، واذا زادت قيمة البضائع عن قيمة الخمس يدفع الباقى منه ما يساوى ثلثه دنانير ذهبية وما يساوى ثلثيه بضائع محلية من أهمها الشب (٥٦) .

---

(٥٣) سامى سعد : نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ٧١
(٥٤) Wiet: L'Egypte Arabe, T. IV, p. 308.
(٥٥) سامى سعد : نفس المرجع ، ص ٧٩
(٥٦) عطية القوصى : تجارة مصر ، ص ١٥٢

ولقد كان تجار الكارم فى العهد الأيوبى والمملوكى يزودون المتجر السلطانى بما يحتاجه من سلــع الشرق المرتفعة القيمة مثــل التوابل والبخور والعطور والفراء . ولذلك اهتم سلاطين الأيوبيين ومن بعــدهم حكام المماليك بطــائفة الكارم وقدموا لهم التسهيلات اللازمة عند سفرهم أو اقامتهم فى البلاد ، حتى أنهم خصصوا لخدمتهم موظفــا حكوميا كبيرا يهتم بهم ويسهل لهم أمورهم ، وقــد عرف هذا الموظف الكبــير باسم « مستوفى البهــار والكارم » . وتحدث القلقشندى عن اختصاصات الموظف الكبير الذى يشغل هذه الوظيفة بقوله (٥٧)

« أن موضوعها التحدث على واصل التجار الكــارمية من أصناف البهــار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف الى الوزارة وتجعل تبعــا لها وتارة تضاف الى الخاص وتجعل تبعا لها ، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان » .

وكا ن على مستوفى البهار والكارم مسئولية أن يلاحظ ويجرد كل الوارد على أيدى تجار الكــارم من عدن ثم من جدة الى مصر والداخل فى فنــادقهم حتى يستخلص منه ما يلزم المتجر السلطانى ويترك الباقى ليشتريه التجار الاوربيون والى جانب هذا الموظف نجد موظفين آخرين يقومان بمساعدته ، وهما : استدار الكارمى ، ومتحدث الكارمى (٥٨) .

ولتيسير امداد الكارم المتجر السلطانى بمــا يلزمه من سلع الشرق الغنية وبخاصة البهار ، قام الأيوبيون بمثل ما قــام به الفاطميون من حماية قوافل الكارم وسفنهم فى المحيط الهندى والبحر احمر من خطر متجرمة البحر الذين كانوا يسطون على هذه السفن فى عرض البحر وينتهبون مــا فيها ويقتلون من عليها . فرصدوا سفنا من أسطولهم لهذه الغاية . وقد أكدت وثــائق الجنيزة هذا الامر فى كثير من القضايا التى طرحت خلال هذه الوثــائق والتى تعلقت بتجار الكارم وخطر تعرضهم للتجرم فى البحر . كذلك وفرت الدولة الأيــوبية لتجار الكارم الأمن فى الطرق البرية بين موانى البحر الاحمر وبين النيل وواديه . وشاهد على ذلك ما أورده الرحالة ابن جبير فى كتابه رحلته عن الأمان الذى كان يسود هذه الطرق البريــة رغم خلوها ووحشتها فى بعض أوقــات العام (٥٩) .وقد ذكر ابن المكين (المتوفى فى القرن السابع الهجرى) أن السبل البرية كانت آمنة فى عهد الأيوبيين ، وأورد أن السلطان الملك الكــامل الأيوبى

---

(٥٧) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥١
(٥٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢
(٥٩) Fischel: The Spice Trade, p. 167.

رتب خفرات على الطرقات لحفظ التجار المترددين عليها ، فكان التجار يعبرون تلك البرارى الموحشة والصحارى القــاحلة دون أن يروعهم شىء أو يهددهم خطر (٦٠) .

ولقد أورد القلقشندى قيمة الرسوم التى كانت تحصل على بضائع الكــارم ويحصلها الديوان السلطانى ، فذكر أن ما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن ومــا والاهما وذلك بأربعــة سواحل بالبحر المذكور : الساحل الاول : عيذاب ، ومن هذا الساحل يتوصل الى قوص بالبضائع ، ومن قوص الى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل . والساحل الثانى : القصير ، وتحمل البضائع منه الى قوص ، ثم من قوص الى فندق الكارم بالفسطاط . والساحل الثــالث : الطور ، والساحل الرابع : السويس .

وأورد أيضا أن هذه السواحل على حد واحد فى أخذ المرتب السلطانى ، وأنه يؤخذ من بضائع التجار العشر مع لواحق أخرى تكــاد أن تكون نحو المرتب السلطانى أيضا (٦١) .

ثالثــا : المتجر السلطانى فى العصر المملوكى :

ذكر المقريزى أنه فى سنة ٦٦٢ هـ ، فى عهد السلطان الظاهر بيبرس بلغ ثمن القرط (البرسيم) الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات (السلطانية) بأرض مصر ما مبلغه خمسون ألف دينــار . وفى هذه السنة ارتفعت الأسعار بمصر فبلغ الأردب القمح نحو المائة درهم نقرة فأمر السلطان بالتسعير فاشتد الحال وعدم الخبز وبلغ القمح مائة درهم وخمسة دراهم الأردب والشعير الى سبعين درهما الأردب والخبز ثلاثة أرطال بدرهم واللحم كل رطل بدرهم وثلث . وبلغ بالاسكندرية الأردب القمح ثلاثمائة وعشرين درهما من الورق (الدراهم المضروبة) . ثم اشتد الحال بالناس حتى أكلوا ورق اللفت والكرنب ونحوه وخرجوا الى الريف فأكلوا عروق الفول الأخضر . فلما كان يوم الخميس سابع ربيــع الآخر نزل السلطان الى دار العــدل وأبطل التسعير وكــتب الى الأهراء (السلطانية) ببيع خمسمائة اردب كل يوم لضعفاء النــاس ويكون البيع من ويتبين الى ما دون ذلك حتى لا يشترى من يخزنه .. ونودى للفقراء فاجتمعوا تحت القلعة .. وأمر أن يعطى كل فقير كفاية مدة ثلاثة أشهر .. وأمر أن يفرق

(٦٠) عطية القوصى : تجارة مصر ، ص ١٧٧

(٦١) Cahen: La Chronique d'Ibn el Makin, p. 144.

من الشون السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم مائة اردب بعد ما يعمل خبزا بجامع ابن طولون . وشرع النـاس فى فتح المخـازن وتفرقة الصدقات فانحط السعر الى عشرين درهما الأردب وقلت الفقراء واستمر الحال الى شهر رمضان فدخل المغل الجديد وانحل السعر فى يوم واحد أربعين درهما الأردب (٦٢) » .

وفى عهد السلطان بركة خان بن الظاهر بيبرس فى عام ٦٧٠ هـ قـام المتجر السلطانى بشراء كميـات كبيرة من القمح وتخزينها فى أهرائـه بسبب رخص سعره . وكان ماء النيل قد غمر أرض مصر كلها فى ذلك العام « ورخص سعر الغلة حتى بيـع الاردب القمح بخمسة دراهم والاردب الشعير بثلاثة دراهم والاردب من بقية الحبوب بدرهمين » (٦٣) .

ويروى المقريزى أيضا أن النفي ، كاتب الامير قوصون كان يبـاشر المتجر فى عهد السلطان قلاوون وأنه « كان يظهر فى جهته للديوان عما كان يحضر اليه من أصناف المتجر أيام مباشرته وهو جملة كثيرة (٦٤) .

كذلك يروى المقريزى رواية مؤداهـا أن السلطان المملوكى الناصر قلاوون اقترض فى عام ٧١١ هـ مالا من تجار الكارم ثمن أشياء له وللمتجر السلطانى اشتراها من تجـار الفرنج . ويقول المقريزى بصدد ذلك مـا نصه : « فى سنة ٧١١ هـ فى عهد سلطنة النـاصر قلاوون اشترى السلطان من الفرنج جواهـر وغيرها للمتجر فبلغ ثمنها ستة عشر ألف دينـار وأحالهم بها على كريم الدين أكرم عبد الكريم متولى وكـالته ومتجره ، فذكر الفرنج أنهم بعـد ثلاثة أيـام يسافرون (من الاسكندرية) فحلفه السلطان أن لا يؤخرهم عن الثـلاثة أيام فنزل الى داره وهو محصور لعدم المال عنده واستشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة والصلاح الشرابيشى فحسنا له أخذ حاصل المارستان المنصورى والاقتراض من تجار الكارم بقية المبلغ . وكانت تجار الكارم بمصر حينئذ فى عدة وافرة ولهم أموال عظيمة . ومضى من الاجل يومان وأصبح فى اليوم الثالث آخر الأجل فأتاه الفرنج وقت الظهر لقبض المال فاشتد قلقه وأبطأ عليه حضور الكارم وبينما هو فى ذلك اذ أتاه تجار الكارم فنظر بعضهم الى واحد من الفرنج له عنده مبلغ عشرين ألف دينار قراضا فسأل التجار الفرنج عن سبب جلوسهم على باب كريم الدين فقالوا : « لنا عليه حوالة من قبل السلطان بمال وقد وعدنا

---

(٦٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٤ – ٤٦٦

(٦٣) المقريزى : السلوك لمعرفـة دول الملـوك ، جـ ١ ، القسم الثـانى ، القـاهرة ١٩٣٦ ، ص ٥٠٦ – ٥٠٨

(٦٤) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ونفس الجزء ، ص ٥٠٧

بقبضه اليوم » فطالبهم الكارمى بماله من مبلغ القراض فوعدوه بأدائه . وبلغ ذلك كريم الدين فسر به سرورا زائدا وكتمه وأمر بالكارم والفرنج فدخلوا عليه فلم يعرف الكـارم بشىء من أمره ولا أنـه طلبهم ليقترض منهم مالا بل قـال « ما بالكم مع الفرنج ؟ » فعرفوه أمر القراض الذى عند الافرنجى ، فقال لهم : « مهما كان عند هذا الافرنجى هو عندى » ففرح الفرنج بذلك وأحالوا الكارمى على كريم الدين بستـة عشر ألف دينـار وهى التى وجبت لهم عليه بحوالـة السلطان ودفعوا أربعة آلاف تتمة عشرين ألفا دينار للكارمى . وقام الفرنج وقد خلص كريم الدين من تبعتهم بغير مال والزم للكارمى بالمبلغ فمضى هو وبقية التجار من غير أن يقترض منهم شيئا فعد هذا من غرائب الاتفاق » .

وفى سنـة ٧٣٦ هـ ، فى عهد هذا السلطان تحركت أسعـار الغلال من نصف جمادى الآخرة وارتفع سعر القمح من خمسة عشر درهما الأردب الى عشرين درهما ثم الى ثلاثين درهما وارتفع الى أربعين درهمـا فوقفت أحوال النـاس فأمسك الأمراء وغيرهم عن البيع طلبا للفائدة فخاف السلطان عاقبة ذلك فطلب المحتسب (محمد بن حسين بن على الأسعدى) وقد بلغ الاردب خمسين درهما، وأنكر عليه . فكتب السلطان بحمل الغلال الى المتجر من غزة والكرك والشوبك وبلاد دمشق وألا يترك بها غلة مخزونة حتى تحمل الى المتجر ، ونودى ألا يباع بالقاهرة ومصر القمح بأكثر ثلاثين درهما ومن باع بأكثر من ثلاثين نهب ماله . فأمسك مباشرو الامراء أيديهم عن البيع وصاروا يجلسون بأبواب الشون ولا يبيعون منها شيئا فاشتد الامر وباع السماسرة الاردب بستين وسبعين خفية . وصار الامراء يخرجون الغلة من الشون على أنها جراية لمخاديمهم وما هى الى مبيع بما ذكر . فطلب السلطان الضياء بن خطيب الأبار الشامى ، وقد اشتهر بكفايته وأمانته وفوض اليه الحسبة والمتجر ، فقام الضياء بختم شون الامراء كلها بعد أن كتب ما فيها من عدد الارادب وكتب ما يحتاجه الامير من الجراية والمؤنة والعليق لدوابه الى حين قدوم المغل الجديد ، ثم طلب السماسرة والامناء والكيـالين واشهد عليهم ألا تفتح شون متجره الا باذنه وبـاع ما فى الشون الاردب بثلاثين درهما (٦٦) .

وأورد المقريزى فى كتابه السلوك أخبار شخصية ارتبطت بتولى أمر المتجر السلطانى فى عهد قلاوون ، وهو شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله الشهير بلقب النشو . وقـد ذكر المقريزى بـأن النشو استقر فى نظر الخـاص فى عهد

---

(٦٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الثانى ، ص ٤١١

(٦٦) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ونفس الجزء ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

السلطان قلاوون ، وأنه كان يشرف على متجر السلطان ويتولى المكسب له مما يخزنه فى المتجر من بضائع يبيعها بأسعار عالية (٦٧) .

وكان النشو قد طلب تجار القاهرة ومصر سنة ٧٣٣ هـ ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش مما هو فى المتجر بثلاثة أمثال قيمته . كذلك طرح النشو على التجار قماشا استدعى به من الاسكندرية للمتجر بثلاثة أمثال قيمته وحمل النشو للسلطان من هذا وشبهه أموالا عظيمة (٦٨) . هذا « وقد اتهم النشو المباشرين لديوان المتجر السلطانى بالبرطلة (الرشوة) وطلب من السلطان أن يطلق يده فى الاشراف عليهم وأخبره بأنه (لو سلم منهم لملأ خزانة السلطان وحواصله أموالا لكنه يخشاهم أن يغيروا السلطان عليه) ورمى النشو المباشرين مع ذلك بعظائم من كثرة أموالهم ونعيمهم مما أخذوه من مباشرتهم من مال السلطان ، فأذن له السلطان فى عمل ما يختاره وأن يتصرف فى الدولة ولا يبالى بأحدووعده بتقوية يده وتمكينه ومنع من يعارضه (٦٩) .

وأضاف المقريزى عن النشو وصلته بالمتجر السلطانى قوله : « فى سنة ٧٣٧ هـ عدم فرو السنجاب فلم يقدر على شىء منه لعدم جلبه فأمر النشو بأخذ ما على التجار من الفرجيات المفراة فكبست حوانيت التجار والبيوت حتى أخذ ما على الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو وقوع التجار فيه ودعاؤهم عليه فسعى عند السلطان عليهم ونسب جماعة منهم الى الربا فى المقارضات وأنهم جمعوا من ذلك ومن الفوائد على الأمراء شيئا كثيرا ، وأن عنده فى المتجر أصناف الخشب والحديد وغيره واستأذنه فى بيعها عليهم فأذن له السلطان فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من أرباب الأموال ووزع عليهم من ألف دينار كل واحد الى ثلاثة آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفا من الأصناف فبلغت الجملة خمسين ألف دينار عاقب عليها غير واحد بالمقارع فى أخذها » (٧٠) .

وفى هذا العام « صادر النشو عدة مخازن للتجار وأخرج ما فيها من البضائع الطرحها بثلاثة أمثال قيمتها وعوض أربابها سفاتج على الخشب والسمك

---

(٦٧) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الثانى ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥
(٦٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الثانى ، ص ٣٦٠
(٦٩) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق ٢٠ ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١
(٧٠) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٣٦٩

البورى فكان منها مخزن فيه حديد قومه بخمسين ألف درهم على المارستان » (٧١) .

ويواصل المقريزى ذكر أنواع البضائع التى وردت على المتجر السلطانى أثناء ادارة النشو له فى عهد سلطنة السلطان قلاوون ، فقال « أنه وصل فى هذه السنة (٧٣٧ هـ) من متجر الخاص الى المتجر السلطانى ستمائة قطعة قطران طرحت على الزياتين وأصحاب المطابخ بمائتى درهم القطعة ثم طرح النشو أيضا ألف مقطع شرب بحساب ثلاثمائة درهم المقطع وقيمة ما بين مائة وخمسين ومائة وستين درهما المقطع . وفيها قدمت عدة تجار من الشام بثياب بعلبكى كثيرة فأخذها النشو جميعها بقيمة اختارها ثم طرحها على تجار القاهرة بثلاثة أمثال قيمتها » (٧٢) .

وفى حادى عشر جمادى الأولى سنة ٧٣٩ هـ ، طلب السلطان من النشو أن يدبر له أموالا من أجل تجهيز وضع ابنته الحامل بمبلغ يزيد على ثلاثمائة ألف دينار « فأخذ النشو فى التدبير لذلك ورتب جهاته من ثمن سكر وعسل وقند وقماش وخشب فى المتجر يطرحه على الناس وعمل أوراقا بمظالم اقترحها بلغت جملتها خمسمائة ألف دينار ومائة ألف اردب غلة وأعلم بها السلطان من الغد وطرح النشو ما عنده من البضائع على الناس بمصر والقاهرة (٧٣) .

وجاءت نهاية النشو بسبب سياسته الاقتصادية المجحفة للناس والتجار واستغلاله موقعه الوظيفى فى رئاسة المتجر السلطانى ليحقق للسلطان الأرباح الطائلة . وتحدث المقريزى عن النهاية السيئة للنشو بقوله : « فى يوم الاثنين ثانى صفر سنة ٧٤٠ هـ قبض على النشو وعلى أخيه شرف الدين رزق الله وعلى أخيه المخلص ورفيقه مجد الدين وعلى صهره ولى الدولة وسبب ذلك أنه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار لطرح الأصناف عليهم بأغلى الأثمان وطلب السلطان منه يتزايد خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة الى التعرض الى الخاصة ورتب مع أصحابه ذلك فاتفق الخاصكية جميعا عليه وندبوا للحديث مع السلطان الامير يلبغا اليحياوى والامير ملكتمر الحجازى وغيرهما (٧٤) ، فصار كل منهم يسمع السلطان قبح سيرة النشو وهو يتغافل(٧٥) وفى يوم الثلاثاء ثالث صفر نودى بالقاهرة ومصر « بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » (٧٦) .

---

(٧١) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٤١٢
(٧٢) المقريزى : نفس المصدر ، ص ٤٢٠
(٧٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق ٢٠ ، ص ٤٢٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩
(٧٤) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٦١
(٧٥) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ص ٤٧٥

وفى عهد المماليك الجراكسة نشطت الحركة التجارية فى مصر وأفاد منها التجار وسلاطين المماليك ، ولا شك أن الثروة الضخمة التى جنتها مصر من التجارة قد ساعدت السلاطين والامراء على أن يعيشوا فى رفاهية وترف وأن يخلدوا ذكراهم بتلك الآثار التى لم تزل تملأ أرجاء القاهرة عاصمة الامبراطورية المملوكية فضلا عما هناك من آثار فى المدن الاخرى (٧٦) . حقيقة أن سلاطين المماليك هم الذين ظفروا بالنصيب الأوفر من الثروة التجارية وذلك بما تجمع لهم من الرسوم المتنوعة فضلا عن أعمالهم التجارية الخاصة بهم فى المتجر السلطانى .

وقد لجأ بعض سلاطين المماليك الجراكسة الى احتكار السلع الهامة والاتجار بها فى المتجر السلطانى ، وكان السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ – ٨٤١ هـ/ ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) رائد هؤلاء السلاطين فى هذا الامر . فلقد احتكر برسباى صناعة السكر وتجارته داخل البلاد ، كما احتكر تجارة الخشب والجواهر والمصنوعات المعدنية ، واحتكر أيضا تجارة الغلال والتبن واللحم وغير ذلك من الاصناف حتى أصناف الخضر وما أشبه ذلك وما شاكله (٧٧) . وفى صفر سنة ٨٣١ هـ أمر السلطان بأنه لا يزرع أحد من الناس قصب السكر الا السلطان فتضرر الناس من ذلك أشد الضرر (٧٨) .

كذلك احتكر السلطان برسباى تجارة التوابل ، وأصدر لهذا الغرض مرسوما سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٨ م يحرم به شراء التوابل من غير المتجر السلطانى ، وفى نفس الوقت أجبر تجار الشرق على شراء البضائع التى يبيعها المتجر بسعر مرتفع (٧٩) . وفى هذا العام يذكر ابن اياس أنه « كان بداية أمر بيع الفلفل على تجار الافرنج بالاسكندرية ولم يعهد هذا قبل ذلك (٨٠) .

ولقد احتكر برسباى تجارة التوابل التى كان يأتى بها تجار الكارم عموما من بلاد الهند الى مصر . ولتنفيذ سياسته التجارية فيما يختص بتجارة المرور

---

(٧٦) يوم الخميس ١٤ ربيع الاول سنة ٧٤٠ هـ ضرب المخلص أخو النشو بالمقارع مع ليلة الجمعة حتى هلك يوم الجمعة العصر ودفن بمقابر اليهود ثم ماتت أمه بعده وقتل بعدها ولى الدولة عامل المتجر ورمى الى الكلاب وهلك النشو يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر ودفن فى مقابر اليهود . فكانت مدة ولايته وجوره سبع سنين وسبعة أشهر ، ووجد لولى الدولة عامل المتجر ما قيمة خمسون ألف دينار ولولى الدولة صهر النشو زيادة على ثمانين ألف دينار (المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦) .

(٧٧) ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٧٧

(٧٨) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١٨٩

(٧٩) ابن اياس : نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٨

(٨٠) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

بين الشرق والغرب ، فقد قام بوضع جدة تحت الادارة المصرية المباشرة بعد أن صارت هى محطة تجارة المرور الأساسية بدلا من عدن .

ولقد دفعت المظالم وارتفاع المكوس وسوء المعاملة التى كان يعانى منها التجار الهنود وتجار الكارم بعدن الى محاولتهم التحرر من تحكم اليمنيين فى تجارتهم والتحول ٨٢٥ هـ عن ميناء عدن الى ميناء جدة حيث عوملوا فيه معاملة طيبة من قبل رجال شريف مكة آنذاك حسن بن عجلان (٨١) . وخشى السلطان برسباى أن تفلت تجارة التوابل من يده ، وكانت تكون المورد الرئيسى لمتجره وللدولة ، وخاصة بعد الأزمة الاقتصادية التى عاشتها مصر فى أوائل القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى (٨٢) ، لذلك عمل جاهدا على استكمال فرض سيادة مصر التامة على بلاد الحجاز . ولقد استغل برسباى تغير سياسة شريف مكة حسن بن عجلان مع التجار النازلين بجدة وارتفاع شكواهم وشكوى الحجاج من ظلمه وتعسفه ، وقام بارسال حملة عسكرية اليه لتأديبه ووضع جدة تحت الادارة المصرية المباشرة ، لضمان وصول التوابل المطلوبة الى المتجر السلطانى ، بعد أن يتوجه اليها فى كل عام ، عند وصول المراكب الهندية اليها ، أمير مملوكى يعاونه « شاد » يقوم باتمام هذه المهمة على التمام (٨٣) . وقام برسباى بأخذ العشور من أموال التجار بميناء جدة ، وقد كان بذلك ، كما يذكر ابن اياس ، أول من أخذ العشور من أموال التجار ببندر جدة (٨٤) .

وكان على برسباى واجب حماية ميناء جدة من منافسة الموانى الاخرى التى كانت تقوم باستقبال تجارة الشرق الأقصى مثل عدن وهرمز عند مدخل الخليج العربى وعيذاب على البحر الاحمر ، لكى يضمن ورود ما يحتاجه المتجر السلطانى من توابل تصل الى ميناء جدة (٨٥) . وبعد أن نجح برسباى فى احكام سيطرته على جدة وتركز جباية المكوس بها قام باحتكار تجارتها ، فأصبح المتجر السلطانى هو المشترى الرئيسى لواردات الهند والصين وبخاصة التوابل عن طريق مبادلتها بالواردات الأوربية ، التى احتكر أيضا المتجر السلطانى شرائها من التجار الاوربيين الوافدين على ميناء الاسكندرية . وحقق السلطان برسباى أرباحا ضخمة من وراء احتكار متجره تجارة البهار ، ولم

---

(٨١) ابن اياس : بدائع الدهور ، ص ١٨١

(٨٢) أحمد دراج : عيذاب ، مقال بمجلة نهضة افريقيا ، العدد العاشر ، أغسطس ١٩٥٨ ، ص ٦٤ .

(٨٣) تحدث الدكتور أحمد دراج عن هذه الازمة فى عهد برسباى بالتفصيل فى كتابه :
L'Egypte sous le reigne de Barsbay, 825-841 H./1422-1438 D., Damas, 1961, pp. 57-74.

(٨٤) أحمد دراج : عيذاب ، ص ٦٤

(٨٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٨٩

يستطع خلفاؤه من بعده ، طوال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أن يعدلوا عن احتكار المتجر السلطانى بثغر الاسكندرية لهذه التجارة نظرا لما كانت تعود به عليهم من مكاسب جمة وتحقق لهم من ثروات كبيرة (٨٦) .

ولقد أثارت سياسة الاحتكار هذه فى البحرين الأحمر والمتوسط ثائرة تجار الكارم المسلمين والتجار الأوربيين ، ولم يقو تجار الكارم على شىء تجاه سلطة الدولة فأنزووا جانبا وانتهى عصرهم الزاهر . أما الأوربيون ، فلقد أدى احتكار المتجر السلطانى لتجارة البهار الى المبالغة فى أسعارها مما أدى الى امتناع تجارهم عن الشراء واضطرارهم للبحث عن طريق آخر لجلب البهار من الهند غير طريق البحر الاحمر ، واهتدوا الى طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٢ م ، وبذلك نجد أن احتكار المتجر السلطانى لحاصلات تجارة المرور بين الشرق والغرب ، وان كان قد حقق للسلطان برسباى ، ولخلفائه من بعده ، أرباحا وفيرة ، الا أنه عاد على البلاد بأوخم العواقب (٨٧) ، وتسبب ، بطريق غير مباشر ، فى تحول تجارة الغرب عن طريق مصر والبحر الاحمر والى كشف طريق جديد ، هو طريق رأس الرجاء الصالح ، الأمر الذى حرم مصر من أهم موارد دخلها وهو التجارة الخارجية مما أضعف اقتصادها وبالتالى أضعف قوتها العسكرية فى نهاية العصر المملوكى . ولقد نجح البرتغاليون فى تحويل قوافل التوابل القادمة من الهند الى أسواق لشبونة بدلا من أسواق جدة ودمشق وبيروت والقاهرة والاسكندرية . وحقق البرتغاليون بهذا العمل دورا خطيرا من أدوار الكفاح الصليبى ألا وهو حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى توجيه الضربات القاصمة ضدها فى البحر المتوسط والاحمر فى تعاون تام مع فرسان الاستبارية بجزيرة رودس . ففى الوقت الذى يقوم فيه البرتغاليون بمهاجمة السفن الهندية المتجهة نحو جدة فى البحر الاحمر ، كان قراصنة الفرنج ، وعلى رأسهم فرسان الاستبارية ، يقومون بنفس هذه المهمة فى البحر المتوسط وذلك بقصد شل الحركة التجارية مع الموانى المصرية والشامية واعاقة السلطان المملوكى قانصوه (قنصوة) الغورى عن بناء

---

(٨٦) وكان أقسى هذه الاجراءات الضربة القاضية التى أنزلها بميناء عيذاب وتخريب هذا الميناء بسبب ما كانت تحتفظ به آنذاك من قدر قليل من النشاط التجارى المحلى الذى نتج عنه فقدان بعض المكوس مع مطلع القرن التاسع الهجرى . ولقد أكد هذا الاجراء الرحالة ليون الافريقى فى كتابه وصف افريقيا عن عيذاب أثناء زيارته لمصر حوالى سنة ١٥٢٦ م حيث ذكر أن برسباى قام منذ مائة عام بتدمير ميناء عيذاب لأن بعض التجار كانوا ينزلون بها بدلا من جدة (أحمد دراج : عيذاب ، ص ٦٤ ، ٦٥) .

(٨٧) Darrag: L'Egypte sous le règne de Barsbay, pp. 293-361.

القوة البحرية اللازمة لمحاربة البرتغاليين . ومن ثم فقد أضحى النصر الصليبى على المسلمين وشيكا وأمل استعادة الاراضى المسيحية المقدسة قريب المنال(٨٨) غير أن هذا الامل تبـــدد بعد أن آلت السيـــادة على مصر والشام والحجـــاز للعثمانيين بعد انتصارهم على المماليك (٨٩) .

أ. د. عطية القوصى

(٨٨) Darrag: Op. Cit., p. 186, 228.

(٨٩) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩

المصادر والمراجع

- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٨٤
- ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣
- ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، القاهرة ١٩٦٨
- ابن خلدون : المقدمة (العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ١) ، القاهرة ١٩٦٦
- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٤ ، طبعة بولاق ١٣١٠ هـ
- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٣٤
- ابن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩٢٤
- ابن ميسر : أخبار مصر ، نشر هنرى ماسيه ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ، القاهرة ١٩١٩
- ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩
- أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية، القاهرة ١٩٦٨ .
  - عيذاب ، مقال بمجلة نهضة افريقية ، العدد العاشر ، أغسطس ١٩٥٨ .
  - المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ .
- حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤
- راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨
- سامى سلطان سعد : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨
- سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٣
- عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦
- كلود كاهن : تجار القاهرة الاجانب فى عهد الفاطميين والأيوبيين ، القاهرة ١٩٧١ .
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩١٥ .
- المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠
  - السلوك بمعرفة دول الملوك ، جـ ٢ ، ق ١ ، القاهرة ١٩٣٦

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ
– النابلسى : لمع القوانين المضية ، نشر كلود كاهن ، دمشق ١٩٦١
– ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠
– نعيم زكى : طرق التجارة ومحطاتها الدولية بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣ .

المراجع الأجنبية

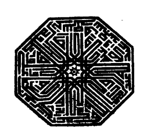
— Attiya, A. S.: Crusade, Commerce and Culture, London, 1962.
— Cahen, C.: La Chronique d'al Makin ibn Al Amid, Damas, 1958.
— Clerget, M.: Le Caire, T. I., Le Caire, 1934.
— Darrage, A.: L'Egypte sous le régne de Barsbay, Damas, 1961.
— Goitein, S. D.: A Mediterranean Society of the high Middle Ages, New York, 1967.
— Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.
— A Tentative Bibliógraphy of the Greniza Documents, Paris, 1964.
— Lewis, B.: The Fatimids and the route to India, RFSE, v. II, Istanbul, 1950.
— Lopez, R. S.: A Medieval Trade in the Medieval World, London, 1955.
— Wièt, G.: L'Egypte Arabe, t. IV, Le Caire, 1937.

PUBLICACIONES DEL INSTITUTO EGIPCIO DE ESTUDIOS ISLAMICOS EN MADRID

LA PERSONALIDAD DE EGIPTO

HOMENAJE

GAMAL HIMDAN



Madrid, 1995

Imprenta del Instituto Egipcio
Depósito Legal: M. 33277 - 1995


sharif mahmoud



INDICE

HOMENAJE

Gamal Himdan es una destacada personalidad egipcia, un genio de la creación. Contribuyó al enriquecimiento del saber y profundizó en la identidad y autenticidad de su país, dejando tras de sí una imborrable huella tanto en los ámbitos académicos como en los científicos e intelectuales. Es un claro ejemplo de la esencia egipcia por su honroso entusiasmo y el amor que profirió a su patria.

Gamal Himdan será siempre recordado a través de los tiempos, a través de las generaciones, con orgullo y dignidad, como hombre capaz y entregado a la lucha en pro de su país, así como por su legado a los campos del pensamiento, la historia y la civilización.

Hombre único y capaz, es digno del homenaje que hoy le rendimos. Este encuentro, reconocimiento renovado a Gamal Himdan, quiere dar cuenta de su autenticidad, creatividad intelectual, de sus principios, del mensaje que dirige a la civilización, y de su amor constante a Egipto.

Gamal Himdan vivió en soledad: un místico en el «Mihrab» de la ciencia. No olvidó los acontecimientos de su patria, aunque no perdió los lazos que lo unían a su mundo particular. No cesó en ningún momento de trabajar e investigar.

Nuestro autor ha vivido los amargos sentimientos de la desesperanza y la soledad. Finalizó su vida tristemente, en la pobreza, secuencia que nos recuerda a los héroes de la clásica mitología griega.

Aún hoy, su obra, fruto del trabajo de toda su vida, necesita el reconocimiento que justamente merece, una evaluación, un análisis que abra las puertas de la digna admiración de la historia.

Gamal Himdan fue un místico del saber. De particular filosofía y mundo especial y diferente, se ha expresado siempre con franqueza y valentía, dirigiendo sus críticas contra aquellos aspectos negativos de su sociedad a través de la historia social, política y administrativa, con la única finalidad de mejorar su entorno, de aportar algo positivo a su patria y a sus compatriotas.

Gamal Himdan no era sólo un pensador. Verdadero científico, fiel a sus ideas y principios, tenía consciencia y convencimiento del importante papel que han jugado las distintas civilizaciones.

La geografía fue el medio a través del que ejercía su visión, a través del que ofrecía su obra, eje de sus investigaciones y difusor de sus ideas, todo lo que se plasma en su famoso libro **Shajṣiyat Miṣr** («La personalidad de Egipto»).

Gamal Himdan tiene una visión interpretativa del mundo, una filosofía capaz de ofrecer una perspectiva variable de la personalidad de Egipto, de su rica historia, de su entorno geográfico, de su pensamiento y cultura. Gamal Himdan sobrepasa el horizonte primero de la investigación científica para ofrecernos después, un panorama metodológico y preciso de las contradicciones y las diferencias marcadas por la dicotomía entre debilidad y fuerza del pueblo egipcio.

La importancia de su configuración interna desde el punto de vista estratégico, moral, espiritual e intelectual se reafirma desde el alcance de su genuina ubicación geográfica que le abre a la multidimensionalidad y a la oportunidad de conectar e integrarse con las diferentes culturas y civilizaciones.

Gamal Himdan nos presenta Egipto como un modelo geográfico-histórico y de civilización único, original; dimensiones, todas ellas que alcanzan un elevado nivel de coherencia en su obra. Por ello consideramos este libro, **Shajṣiyat Miṣr** («La personalidad de Egipto»), una de las mejores fuentes históricas y culturales del Egipto contemporáneo.

Como si de una enciclopedia se tratase contiene un arsenal de conocimientos a través de los que manifiesta su auténtico pensamiento, su visión del mundo, tratando temas en íntima relación con el patrimonio y el legado de Egipto en la civilización —un proyecto intelectual, un mensaje nacional prioritario—.

Su actitud fue tajante y rotunda, sin odio ni ánimo de revancha, sino más bien tratando de encontrar la base de la evolución de toda sociedad en los principios de igualdad, justicia, libertad y conciencia nacional.

Excmo. Sr. Ibrahim Ali Hassan
Embajador de la R. A. de Egipto

PRESENTACION

El Instituto Egipcio de Estudios Islámicos de la Embajada de Egipto en Madrid, ha sido durante estos últimos años, desde 1992 a 1995, promotor de «homenajes» a destacadas personalidades del mundo de las letras, las artes y las ciencias.

En mayo de 1993 hemos tenido la satisfacción de rendir uno de ellos a los arabistas españoles y a los hispanistas egipcios y árabes, en reconocimiento a la extensa labor científica realizada, así como a su contribución a la realidad histórica y cultural de nuestros dos mundos.

Un año más tarde, en noviembre de 1994, realizamos una actividad de igual calibre en distinción a los artistas egipcios. En ella hemos querido dejar constancia del deseo de manifestar con afecto nuestra admiración a todos los pintores y escultores egipcios, promoción San Fernando 1950-1980, a los que están en vida y a los que ya, desgraciadamente, han desaparecido.

Hoy, 21 de marzo de 1995, es también para nosotros una fecha especial. Hoy, nos sentimos orgullosos de haber organizado este otro acto, prueba de solidaridad con uno de esos hombres que han sabido amar a su patria, Egipto, una de las figuras más merecedoras de este justo homenaje, que aquí rendimos, digna de todo elogio y admiración. Se trata de Gamal Himdan. Hombre sin par, ejemplar recuerdo para todas las generaciones venideras, amante de la paz, conocedor de la ciencia y el saber, en suma, un hombre de la civilización.

De otra parte, para mí es una grata noticia y una gran satisfacción contar aquí con la presencia de sus seres más queridos, miembros de la familia de Gamal Himdan, que se han sumado hoy a este acto. A ellos queremos dar cuenta del profundo afecto, cariño y amor que profesamos a Gamal Himdan y de cuya personalidad hacemos hoy aquí gala.

Antes de finalizar mis palabras quiero hacer hincapié sobre el homenaje que rendimos a tres destacadas personalidades del arabismo español: a don Federico Corriente el pasado día 9 de ju-

nio de 1995 en la sede del Instituto Egipcio, con motivo de su ingreso en la Academia de la Lengua Arabe de El Cairo en el día de la presentación del libro **Ibn Kuzmān Al-Qurṭubī**.

Al mismo tiempo tuvimos el placer de entregar la medalla del Instituto Egipcio a don Pedro Martínez Montávez y a doña María Jesús Viguera Molins en la clausura del curso titulado, **La novela egipcia actual: Homenaje a Naguīb Maḥfūẓ**, que se celebró en El Escorial los días 7 al 11 de agosto de 1995, por la amistad que nos une, así como por su excelente labor y su colaboración con el Instituto Egipcio de Estudios Islámicos desde su fundación. A ellos y a los arabistas de España, gracias y hasta pronto.

Desde estas líneas quiero manifestar mi agradecimiento a todas las instituciones españolas y egipcias que una vez más, y como siempre, han hecho posible la celebración de este homenaje. Hacer mención especial al Instituto de Cooperación con el Mundo Arabe, del Mediterráneo y de los Países en Desarrollo, así como al Ministerio de Cultura (Cooperación Internacional) y a la Universidad Complutense de Madrid.

A todos ellos mi más sincero agradecimiento, así como a todos los participantes y amigos que nos acompañan en este justo homenaje.

Dr. Gamal Abdel-Karim
Consejero Cultural de la Embajada de la R. A. de Egipto
Director del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos

LA PERSONALIDAD DE EGIPTO Y GAMAL HIMDAN

Estudio crítico y comentario

Estas páginas que están contenidas en este artículo, no son más que una simple síntesis de algunas de las opiniones y contribuciones que aportaron también algunas ilustres y destacadas personalidades egipcias del mundo de las letras y la crítica. Personalidades que reconocieron la valía y el coraje de este hombre: Gamal Himdan.

Figura indiscutible, irrepetible, que no gozó de la suerte que merecía en vida, que tampoco tuvo entonces el reconocimiento de muchos de sus compañeros, así como tampoco la suficiente consideración y apoyo hacia sus ideas, incluso hacia su persona.

Hoy, después de su desaparición, su figura se agiganta y destaca en el horizonte desde la brillantez de su talento y la lucidez de su pensamiento.

He querido trasladar hasta ustedes a través de estas líneas, mi sencilla opinión y mi modesta valoración crítica y añadirla a esos otros juicios de valor tomados desde la propia obra de Gamal Himdan y de la de aquellos estudiosos conocedores del momento que tocó vivir a nuestro homenajeado y supieron, en conciencia, prestarle sin condición alguna la atención que merecía.

> **«La democracia equivale a la libertad. No se da, no se otorga, sino que se arrebata. No se le puede pedir al dictador, sino que se impone por la fuerza del diálogo, del racionalismo, del conocimiento del pueblo.»**
>
> **Gamal Himdan**

Gamal Himdan es un intelectual, un hombre erudito y un gran pensador que ha enriquecido con sus ideas y su filosofía, la cultura y las ciencias contemporáneas. Era un personaje egipcio, serio y fiel, que ha aportado nuevas teorías y ha jugado un importante y destacado papel en el pensamiento histórico de la civilización, que hoy se enorgullece de sus logros y sus obras que han dejado profundas huellas en la cultura egipcia moderna.

Gamal Himdan ha enriquecido el patrimonio de su patria a la que dedicó toda su vida; Egipto era el único personaje de su obra. Estamos ante un pensador egipcio auténtico, el prototipo ejemplar del egipcio cabal. Un místico del saber plenamente de-

dicado al estudio y a la investigación. Vivió de forma muy austera, aislado de todo menos de su patria: Egipto.

La gran obra de Gamal Himdan **Shajṣiyāt Miṣr**, no es un mero estudio geográfico, más bien se trata de una epopeya científica y nacional, llena de amor y fidelidad a su país.

Después de sufrir una fuerte crisis, Gamal Himdan tuvo que dimitir en 1963, prefiriendo aislarse de la sociedad universitaria y evitando las discusiones y los corporativismos.

Su gran obra, «La personalidad de Egipto», vio la luz por primera vez en julio de 1967 en las ediciones de la serie «Kitāb al-Hilāl», con el número 256. La segunda edición fue en 1970 en una versión de más de 500 páginas, editada por Maktabat Al-Nahḍa Al-Miṣriya.

Aquella crisis hizo que Gamal Himdan tuviera que dejar la Universidad, después de dimitir de la Facultad de Letras en 1963, en plena juventud y en un momento de brillantez científica. Tenía veinticinco años cuando leyó su tesis doctoral en la Universidad de Reading en Inglaterra y obtuvo el premio de animación del estado cuando tenía treinta y un años. A los treinta y cinco años dejó la Universidad cuando era profesor ayudante, como consecuencia de un conflicto con algunos profesores por competencia desleal. Acto seguido, tuvo que alejarse de las Instituciones políticas estando de acuerdo con sus principios nacionales y al final se quedó aislado de la gente, de la sociedad, viviendo en solitario, apenado, triste y abatido hasta su muerte, aunque murió en plena madurez científica, sin dejar ni un sólo momento sus estudios, conectando con el mundo a través de su obra.

Gamal Himdan era un hombre muy modesto, afable e inteligente, autor de grandes obras. De elevada categoría, estaba a la altura de los grandes investigadores mundiales.

Gamal Himdan fue un verdadero intelectual, polifacético. No fue sólo un investigador geográfico, sino además el autor de un pensamiento y una filosofía propias, convencido en todo momento de la existencia e importancia de las civilizaciones de acuerdo con su diversidad y contenido.

Es verdad que la geografía era su materia, su profesión y su especialidad y que indudablemente influyó de modo notable en todos sus trabajos.

Desde Egipto salieron sus ideas principales sobre la humani-

dad y la civilización, los conflictos nacionales y patrióticos y el diálogo entre las culturas. Expresó su punto de vista y focalizó sus críticas manteniendo una postura valiente y una opinión personal clara en todos los acontecimientos de su país sin temor alguno, sin miedo, con valentía y coraje.

Gamal Himdan fue portador de un especial mensaje nacional, civilizador y humano. Procuraba difundirlo a través de la geografía, no se conformaba sólo con la enseñanza a la que siempre fundamentó en la investigación científica con un contenido bien dirigido, con la finalidad de construir una opinión pública y contribuir directamente en la vida intelectual de su país.

Es considerado como la identidad nacional cívica y humana de su propia tierra, en su obra se deduce que la geografía era su patria y la historia, su nación.

En su opinión, el mensaje es la civilización. Dice: «Egipto es un país pluralista y cosmopolita, que tiene sus peculiaridades dentro del marco de su propia unidad nacional». De ahí entendemos su entusiasmo y su afirmación en la identidad nacional y patriótica y de su raíz arábigo-islámica en primer término y su incorporación a la civilización universal, así como su total convencimiento de la independencia nacional y la democracia. Todos estos conceptos se reflejan en la obra de Gamal Himdan.

El autor se ha interesado en presentar claramente los rasgos particulares de Egipto: paciencia, constancia, resistencia y espíritu conservador son los frutos naturales de la estabilidad, la continuidad, la vitalidad y el cambio, rasgos necesarios para la marcha de la vida política y que siempre ha estado facilitada por el espíritu realista y la cooperación de los ciudadanos egipcios.

Egipto nunca ha conocido la xenofobia lo que se debe entre otras razones a su situación central en el mapa mundial; tampoco ha conocido las discriminaciones raciales, y el factor del color nunca ha sido un obstáculo a lo largo de su historia milenaria.

De estos factores, Gamal Himdan ha querido explicar el porqué y, la respuesta emerge desde la pluridimensionalidad y la personalidad de su país.

Egipto posee dos dimensiones continentales: una africana y otra asiática, del mismo modo que encierra dos dimensiones regionales: el Nilo y el Mediterráneo. Indiscutiblemente, estos factores han marcado profundamente la genuinidad del país.

A estos hay que añadir los matices históricos y culturales determinados por la huella faraónica y más tarde la árabe. Y es que Egipto ha tenido siempre gran capacidad para absorber y asimilar las otras dimensiones civilizadoras.

Religiosidad y tolerancia son rasgos constituyentes de las distintas fases históricas que ha atravesado el mundo egipcio.

No ha conocido ni la masacre ni la inquisición, de hecho la tolerancia religiosa ha sido siempre una necesidad para vivir, factor que se viene reflejando hasta nuestros días.

Gamal Himdan intenta resumir los rasgos generales de la personalidad egipcia a través de los comportamientos sociales, desde la tiranía y el despotismo a la fragilidad y la sumisión de la seguridad en sí misma, a la influencia exógena; desde el aislamiento al proteccionismo.

Estos son los componentes que configuran el sello de Egipto, donde el Nilo ha sido permanente testigo y primer germen de la vida en esta tierra. Por tanto, quedaría como la llave de penetración a la historia del país. Historia que siempre ha venido marcada por la confrontación y el pacto entre el gobernante, dueño y señor del agua y el súbdito, gobernado, presunto beneficiario de los dones del río. Podríamos resumir esta relación en la siguiente frase: «Dame tu tierra y tu esfuerzo y yo te daré mi agua».

El campo es la base, el sustento de la sociedad egipcia, y a través de él se refleja la historia de todo un pueblo. El arado y el «shadouf» del siglo XX a. C., frente al tractor y la cosechadora mecánica, productos de nuestro siglo, son medios que conviven todavía en esa tierra.

Egipto en su cosmopolitismo, no pierde ni su visión universal ni la propia, lo que la constituye como una nación estable. La evolución y el cambio la consolidan y la confirman en su identidad.

El espectador atento a la historia, es capaz de desentrañar el secreto de la «egiptalización» de los elementos tomados de otras culturas, así como de todos aquellos que han sido capaces de asimilar y presentar como auténticamente egipcios. Hoy, Egipto no puede ni quiere ser nada más que lo que es: él mismo.

Si hay un término que defina lo que en profundidad significa

Egipto no es otro que el de «equilibrio», piedra angular de la personalidad social, histórica, política...

En su forma de confrontar el pasado y el presente histórico, el elemento local y el elemento universal, lo original y lo genuino, la base o la raíz frente a lo contemporáneo, lo que le es por definición, el patrimonio más íntimo frente a lo importado, Egipto demuestra su equilibrada visión entre los opuestos.

Claro está, que no podemos dejar de lado aquellos aspectos negativos que de algún modo constituyen la debilidad o el defecto de una personalidad que a fin de cuentas resulta compleja. Dichos defectos podrían ser fruto de momentos de mayor tiranía o despotismo político, momentos que la historia tampoco olvida. De otro lado el espíritu de la tolerancia ha condicionado el espíritu débil y acomodaticio del ciudadano egipcio medio que ha visto reflejado en su comportamiento las consecuencias de una actitud colectiva inmerecida, alejándolo de una cualificación ética. Por consiguiente, situado más cerca del servilismo y no de la iniciativa propia, del corporativismo que de la oposición. Por todo ello, Gamal Himdan no estuvo de acuerdo con los a contecimientos de la sociedad que le tocó vivir, considerando su entorno más irreal de lo que debería ser.

Nuestro autor pensaba que la democracia al igual que la libertad, no es una dádiva del dictador, sino más bien algo por lo que el pueblo debe luchar para su consecución.

Egipto no puede rescindir de su arabismo, como tampoco puede hacerlo de aquellos factores determinados por su ubicación geógrafica y su complejidad interna. Dice Gamal Himdan: «Egipto puede tener el abuelo farónico, sin embargo, su padre es árabe. Y tanto abuelo como padre proceden del mismo bisabuelo, del mismo modo que se puede decir que el destino de los árabes depende de la civilización egipcia».

También el destino de Egipto es políticamente árabe. De hecho lejos de los árabes, Egipto no tiene un futuro universal. En la actualidad, Egipto está marcado por el arabismo, por el liderazgo y por un objetivo común a los demás constituyentes del Mundo Arabe: la liberación de Palestina.

De otro lado y reflexionando en torno a la página geográfica egipcia, dos son los elementos que comporta la formación natu-

ral del país. De un lado el Nilo, del otro el desierto. Y desde luego, un tercer elemento que complementa esta imagen: el mar.

En cuanto a la constitución social sobre el mapa humano de Egipto, cristianismo y mundo copto han constitutido un cuerpo unitario cuyo origen común se define desde el mundo musulmán. No se trata sólo de una teoría científica, sino de una verdad antropológica, una verdad de carácter étnico antes que religioso. Si bien hoy se incorporan como un todo compacto a la unidad política y nacional. Gamal Himdan dice —sin entrar en más detalles— que: «Los coptos de hoy son los coptos de ayer que han mantenido su antigua fe, así como una buena parte de los musulmanes que hoy son los coptos egipcios de ayer que abrazaron la fe musulmana».

El término copto procede etimológicamente de la palabra «Egypt», que significa «Egipto».

Gamal Himdan divide la historia de Egipto en etapas sucesivas:

1. Fase de formación y expansión de la civilización, período faraónico.
2. Fase de autosuficiencia, que comprendería la época greco-romana.
3. Superada la fase intermedia el período arábigo-islámico está marcado por un momento de importación cultural.

El campo, el mundo rural para Gamal Himdan constituye el verdadero tejido de Egipto en el que pueblos, aldeas..., son como elementos decorativos de este tejido. Constituye el verdadero desafío, la médula espinal de Egipto sin cuyo cambio y evolución el país quedaría sumido en el más profundo de los estancamientos. Pero la triste realidad indica que el campo está privado de los frutos positivos del progreso y de la civilización moderna.

Gamal Himdan analiza y comenta la profunda crisis en la que Egipto vive; según nuestro insigne geógrafo no se trata de una crisis particular fruto de uno solo de los aspectos de la conformación de un país. Muy por el contrario, el país se vé inmerso en todo un conjunto de crisis que afecta a los entornos del mundo social, político, militar, de población... es pues, una crisis com-

puesta y acumulativa que ha llegado a su límite en los últimos años y cuyo efecto es la apariencia de una crisis crónica. Si a esto añadimos el bajo nivel tecnológico y de desarrollo científico la crisis se complica aún más. Sin embargo, Gamal Himdan no se queda en el mero análisis, va más allá buscando las causas, el origen de este galimatías y formula una hipótesis de causa-efecto donde la causa sería el profundo abismo económico que debe sostener el mundo egipcio. Pero a pesar de la severidad de la afirmación no podemos dejar de ver que detrás de todo ello se esconde la magnificación tanto de los elementos positivos como de los negativos de la estructura económica actual. Gamal Himdan predica que probablemente Egipto tomará parte por Occidente allá por el año dos mil, poniendo un punto y final a su dicotomía, a su indecisión entre el Oriente o el Occidente.

Con todo ello es indiscutible que Gamal Himdan ha sido siempre un sincero defensor de la personalidad de Egipto, aunque no por ello ha mitigado sus críticas dirigidas a aquellos focos de conflicto en la sociedad que le ha tocado vivir. Como si de un brillante abogado se tratase selecciona sus juicios y se atreve a intercambiar los papeles entre fiscal y defensor, entre acusación y alegato, desempeñando su papel con objetividad e imparcialidad en lo tocante a la cultura de Egipto y la personalidad del egipcio.

Claro está que no exento de acusaciones, de hecho se le tachó de parcialidad en su severa crítica de los aspectos más negativos de esa configuración. Y así, podríamos incluso compartir ese juicio, porque sabemos que su finalidad última era mejorar su país.

Resulta evidente, pues, que la obra por excelencia de Gamal Himdan, **Shajṣiyāt Miṣr**, ha abarcado la más variada temática del discurrir histórico de Egipto. Ardua y lenta tarea sería enumerar aquí cada una de las cuestiones que nuestro geógrafo sopesa en su obra.

El pensamiento de Gamal Himdan encierra claramente un marcado carácter filosófico que reúne en uno solo la geografía, la historia, la política y la sociología. De todo ello se deduce y se destaca toda una dimensión particular para el estudio de la realidad política y estratégica en la que la historia es el laboratorio y el almacén estratégico de la geografía; la geografía es la raíz algebráica de la historia... Así pues, Gamal Himdan estudia la geo-

grafía haciendo uso del método histórico y se adentra en la historia haciendo uso del método geográfico.

Gamal Himdan es autor de una docena de libros de variada temática siempre en torno a la geografía urbana y al Mundo Arabe: geografía económica, pensamiento político, estudios de los pueblos...

De entre todos sus trabajos cabe destacar el que es su obra maestra: **La personalidad de Egipto (un estudio sobre la genuinidad del lugar)**.

La primera edición de esta obra apareció en 1967, como consecuencia de la derrota ante Israel. La finalidad era desempeñar en alguna medida, un papel político y educativo que consolidase la continuidad y no la derrota.

Pero Gamal Himdan no se conformaba con la edición de este libro y dedicó los siguientes veinte años de su vida a completar esta obra en cuatro tomos con más de tres mil quinientas páginas y una completísima bibliografía con más de cuatro mil fuentes en cuatro idiomas diferentes.

Desde entonces, esta obra se considera imprescindible para conocer Egipto, tanto geográfica como humanamente, así como su personalidad y muy especialmente todo aquello relacionado con la geografía y la ecología.

Gamal Himdan realizó pues, estudios valiosísimos sobre el Mundo Arabe, los judíos, la estrategia del colonialismo y la liberación. Su producción científica abarca todo el período que va desde 1953 hasta 1984.

¿Cuáles han sido las fuentes en las que Gamal Himdan ha bebido para escribir su gran obra? No sólo sus lecturas le indujeron a tal menester, también su capacidad de asimilar las diversas problemáticas de su patria, reuniendo con ello las preocupaciones científicas y culturales a un mismo tiempo.

Gamal Himdan publicó el 16 de febrero de 1967 un importante estudio de unas 96 páginas sobre los judíos, editado en el número 169 de la serie «La biblioteca cultural», bajo el título de **Los judíos antropológicamente**. En este escueto libro intenta probar que los actuales judíos inmigrantes procedentes sobre todo de la antigua URSS no desciendenlos judíos de la diáspora del año 135 de C. (era romana) y por lo tanto tampoco descienden de los judíos de la Torah, lo que confirma que en el año anterior-

mente mencionado se termina para siempre la relación política y de población entre judíos y palestinos. Himdan ofrece en este libro un estudio de carácter antropológico en el que concluye por confirmar una mezcla mosaica de los judíos, que revela la falta de unidad étnica entre ellos y que sólo pueden ser determinados, en tanto que grupo social, por la marca de su religión.

Gamal Himdan tampoco permanece al margen de la política internacional. Desde la geografía política y como especialista en la materia, trató de explicar las posiciones del Occidente imperialista hacia un país del mundo islámico claramente determinado por su geografía.

En el último capítulo de su libro dedicado a la política en el mundo islámico, Gamal Himdan confirma que la historia se ve con frecuencia abrumada por determinados movimientos y maniobras políticas que utilizaron la religión como tapadera, ocultándose bajo su bandera. Gamal Himdan declaró que el denominado Egipto contemporáneo no podrá cambiar, ni progresar, ni convertirse en un estado moderno, en un pueblo libre, sin antes enterrar su pasado político y los restos de una civilización magnánima como lo fue la farónica.

Gamal Himdan será recordado mientras exista un solo egipcio que ame a su patria, seguirá siendo recordado mientras su **Shajṣiyāt Miṣr** sea una escuela para los hijos de este pueblo que pulen la personalidad de su pueblo: Egipto. Este ha sido siempre en todas sus obras el mensaje de Gamal Himdan.

Dr. Gamal Abdel-Karim

VIVIR AISLADO, MORIR ENSALZADO

Refiriéndose al amplio movimiento de publicación de varios de sus libros y escritos diversos, con importante y garantizada aceptación pública y venta, que siguió de inmediato a su repentina muerte en oscuras y no definitivamente aclaradas circunstancias, un conocido periodista afirmó, con tanto acierto como capacidad de síntesis, que Ŷamāl Ḥamdān era tan festejado después de muerto como había sido olvidado en su vida (1). Nadie podía poner en duda esta dolorosa y vergonzante realidad, esta cruel paradoja, menos inusitada y excepcional seguramente de lo que cabe suponer, y para la cual parece que están particularmente dotadas o predispuestas determinadas sociedades. En todo caso, el impacto y convulsión de conciencia colectiva que su fatal desaparición produjo fueron, en todos los sentidos, tremendos; extensísimo y muy variado el panorama de reacciones, noticias, comentarios, opiniones sobre su personalidad y su obra, trágicamente rescatadas así de la marginación y el olvido en que vivían desde hacía muchos años. La presunta conciencia colectiva, como en tantas otras ocasiones análogas de alcance universal, despertaba tarde, a rastras del suceso inevitable, y sintiéndose parcialmente cómplice y culpable. Con su sensibilidad viva, esponjosa y honesta, y con total fundamento además, el poeta Aḥmad 'Abd al-Mu'ṭī Ḥiŷāzī se preguntaba si esa muerte no era, al fin y al cabo, sino el final esperado, coherente con la decisión que el propio Ḥamdān había tomado al aislarse de la sociedad, en una especie de «suicidio civil» **(al-intiḥār al-madanī)** que le llevó a encerrarse en su concha y del que no se volvió atrás, hasta la muerte (2).

---

(1) Véase la colaboración de 'Abd-Allāh Imām, con el título genérico de **Afkār arabiyya**, en el periódico **Al-Arab**, fecha 16 de julio de 1993, p. 6.

(2) Sumamente sugerente resulta la lectura de este texto de Ḥiŷāzī, especialmente entrecruzado y acumulado en el material de ideas que suscita: «Madā law māta Ŷamāl Ḥamdān muntaḥiran?», publicado en el semanario **Al-Wasat**, Londres, núm. 77, 19 de julio de 1993, p. 66.

Bastante más que un geógrafo

Ḥamdān fue uno de esos talentos privilegiados, una de esas vocaciones científicas dinámicas y abiertas, incansables en su afanosa búsqueda de enseñanzas y explicaciones, que rechazan por naturaleza y por convicción cualquier reduccionismo de conocimientos y caulquier sistematización angosta y forzosamente disciplinar y disciplinada del saber. Ḥamdān pertenecía a la polifacética y compleja alcurnia del humanista, caracterizada por poseer tantas coincidencias de fondo y de objetivos finales como variedades de forma y diferencias de dedicación y comportamiento, y en la cual individualismo y colectivismo no aciertan a encontrar, con frecuencia, los deseables ensamblajes o acoplamientos fluidos, equitativos y compensados, funcionales. Siendo un gran geógrafo, de sólida y amplia formación académica, como lo fue, su quehacer científico e intelectual no podía quedar reducido al saber geográfico (siendo además como éste es, inevitablemente, tan diverso y extenso) ni a una concepción y aplicación estrictamente unívocas o parceladas, especializadas, del mismo. La personalidad y la obra de Ḥamdān resultan un excelente ejemplo del inevitable riesgo de grandeza y miseria compartidas y entreveradas que acecha a todo proyecto de saber de vocación plural e integradora, tanto a partir de sus estímulos y preferencias de origen como en sus objetivos y realizaciones finales. Lo que desde un principio y hasta el final se propone Ḥamdān es, sencilla y llanamente, lo que caracteriza, define y es consustancial a la actividad intelectual humana: aunar ideas y conocimientos. Lo que no resulta, sin embargo, nada fácil ni siquiera, en no pocas ocasiones, simplemente factible; en especial, en situaciones de larga, profunda y controvertida crisis. Como aquella en que se encuentra sin ir más lejos, por ejemplo, el mundo árabe islámico contemporáneo y, congruentemente, el pensamiento que en él se produce. En este aspecto, la obra de Ḥamdān es también un claro y muy representativo exponente, como tantos otros ejemplos parecidos que cabría traer a colación, de esa situación.

Una clave del pensamiento ḥamdānī es la visión no sólo complementaria e interactiva, sino también estructuralmente fraternal —cabe afirmar sin ninguna clase de reparos— que tenía de la geografía y de la historia. Estaba profundamente convencido

de que «no existe geografía sin historia, ni tampoco historia sin geografía», para remachar que «si las ciencias sociales o las humanidades son como hermanas uterinas, la geografía y la historia son como gemelas» (3). Otro destacado y no menos ejemplar intelectual egipcio de nuestro tiempo, Maḥmūd Amīn al-'Ālim, ha insitido en algo absolutamente esencial para entender y valorar adecuadamente la obra de Ḥamdān: ésta no tiene nada que ver con un objetivo estrictamente descriptivo y externo (particularmente y ante todo cuando de Egipto se trata) y en este punto concreto está por consiguiente muy lejos, según Amīn al-'Ālim, de la conocida y enciclopédica obra —por otra parte, extraordinariamente útil, añadimos nosotros— que a la descripción de Egipto dedicaron los sabios franceses a raíz de la campaña napoleónica (4). Conviene recordar que Amīn al-'Ālim era bibliotecario en la sección de Geografía de la Facultad de Letras de la Universidad de El Cairo cuando Ḥamdān ejercía en ella la docencia (5), y puede contar con suficientes experiencias personales, por consiguiente, para opinar como lo hace y ensalzar las innovadoras concepciones de «este recio (**ḍalī'**) sabio geógrafo» (6). En todo caso, ese interés armónico y fundido por la geografía y la historia presente siempre en Ḥamdān tenía viejas y profundas raíces, se manifestó ya en su época de estudiante universitario, como recuerda su compañero de estudios Maḥmūd Ṣāliḥ Mansī, quien luego sería a su vez profesor de Historia en el mismo centro (7).

---

(3) Tomo esta frase del trabajo que, en recuerdo de los cuarenta días de su muerte (**arba'iniyya**), escribió Maŷdī Ḥasanayn, y que se publicó en el diario **Al-Quds Al-Arabi**, Londres, núm. 1257, 2 de junio de 1993. p. 6. Se trata de un buen trabajo informativo, que recoge una amplia y significativa cantidad de testimonios sobre el autor de figuras destacadas de la cultura, la intelectualidad y la universidad egipcias.

(4) Leí en su día este artículo del gran ensayista egipcio en el suplemento cultural del periódico palestino **Al-Ittiḥād**, Haifa, 14 de mayo de 1993, p. 10. Como se precisa en el mismo periódico, está reproducido del semanario egipcio **Al-Ahālī**.

(5) Tomado del artículo que, desde El Cairo, escribe para el periódico **Al-Hayat**, que se publica en Londres (núm. 11033, 28 de abril de 1993, p. 20) Ŷamāl al Ŷamal.

(6) Véase el artículo de Maḥmūd Amīn al-'Ālim citado en nota anterior.

(7) Véase el artículo de Ŷamāl al-Ŷamal citado en nota anterior.

Egipto, en su ámbito natural

La conjunción de lo geográfico y de lo histórico, del factor espacial y del factor temporal, por consiguiente, vertebran la obra de Ḥamdān. No se trata, evidentemente, de una forma original o decididamente personal en origen, pues han sido innumerables —y seguirán siéndolo— los individuos que han asumido esta forma suprema y genuina de expresión de la más profunda inquieud, sentimiento y reflexión de la Humanidad, pero sí es susceptible de concretarse en expresiones originales y personales en cada uno de los innumerables casos y ejemplos en que se ha ido produciendo. Así lo aprecia 'Ādil Ḥusayn al caracterizar la obra del autor: «Ŷamāl Ḥamdān expresó su compromiso investigando y pensando, y no fue imitativo (**muqallidan**) en su obra, sino que fue renovador y creativo (**mubdi'an**) en cada palabra que escribió. Su especialidad era «la geografía», pero no pienso que el mundo haya contemplado otro escritor que le hiciera parir a esta geografía lo que Ŷamāl Ḥamdān fue capaz de hacerle crear» (8). Esa superación tuvo un objeto y un destinatario concreto y único: Egipto.

La ocupación y preocupación fundamentales del pensamiento, de la literatura y del arte egipcios contemporáneos, ha sido la cuestión nacional: precisamente, Egipto. Ha constitutido el tema esencial y permanente de debate cultural, académico, intelectual. Conforma la obra de historiadores de formaciones y tendencias no sólo en buena medida tan diferentes, sino también tan divergentes o contrarias, como Šafīq Gurbāl, Ḥusayn Mu'nis, Muḥammad Anīs o 'Abd al-'Aẓīm Ramaḍān, de ensayistas y escritores tan personales como Ṭāhā Ḥusayn, Tawfīq al-Ḥakīm, Yaḥyà Ḥaqqī, Naŷib Maḥfūẓ, Yūsuf Idrīs o Luwīs 'Awaḍ, de preclaros filológos, como 'Abd al-'Azīz al-Ahwānī. La producción egipcia brinda al respecto una espléndida continuidad y una no menos espléndida tensión de discusión y altura en el debate, tal vez sorprendentes o inesperadas para muchos, que actúan preferentemente y se manifiestan bajo los imperativos de la ignorancia, el mimetismo o

(8) Véase el periódico **Al-Shaab**, El Cairo, núm. 734, 20 de abril de 1993, p. 22. Agradezco a Luz Gómez García, muy apreciada discípula, que me diera a conocer este texto.

el estereotipo. En ese soberbio elenco patrimonial nacional queda incluido con brillo, con rango absolutamente sobresaliente y por abundantes motivos incomparables, el nombre de Ŷamāl Ḥamdān.

La producción escrita de Ḥamdān es, indudablemente, extensa y variada, pero la dimensión desbordante de su obra cumbre sobre «la personalidad de Egipto» (en su versión definitiva, la publicada en cuatro volúmenes entre 1980 y 1984, unas tres mil quinientas páginas de escritura apretada) (9) hace que con frecuencia se le recuerde solamente como autor de este libro enciclopédico y monumental. En última instancia, el autor tenía plena conciencia de esta servidumbre y la aceptaba finalmente: «Pienso que **La personalidad de Egipto** me ha perjudicado, y a mis otros trabajos, lo mismo que **El candil de Umm Hāšim** perjudicó a Yaḥyá Ḥaqqī y a sus otros trabajos literarios, quemándose con el candil que él había encendido... **La personalidad de Egipto** es, evidentemente, la mayor de mis obras. Aunque no haga distinciones entre la totalidad de mis escritos, mi libro sobre la geografía de las ciudades es uno de los libros que quiero, pero, para ser sincero conmigo mismo, mi libro **La personalida de Egipto** me resulta el más querido y el más cercano... Se trata de mi patria y de mi gente, y me tuvo sumido durante casi diez años de mi vida» (10).

Pero el gigantesco esfuerzo bien que mereció la pena, como es de unánime reconocimiento. Ya en la temprana reseña que le dedicó el crítico Fārūq 'Abd al-Qādir se reflejaba con claridad el asombro y el elogio que produce esa magna reflexión nacio-

---

(9) Conscientemente, he renunciado en este escrito a suscitar cualquier apunte o sugerencia de carácter comparatista entre la obra de Ḥamdān y la de algunos pensadores españoles contemporáneos. Correría el riesgo de no ser correctamente entendido, aunque lo planteara en términos de simple indicación o como interrogante de inquietud. Pienso, sin embargo, que esta cuestión, como tantas otras similares, habrá de plantearse objetiva, documentada y objetivamente, científicamente, algún día, y que resultará provechosa e instructiva. El primer nombre que se me viene a las mientes es, inevitable y justificadamente, el de Américo Castro. Y me pregunto al respecto: los procesos mismos de formación, y de ampliación gradual y orgánica, de las obras cumbres de Castro y de Ḥamdān, ¿no brindan algún que otro rasgo de parcial paralelismo, a pesar de las evidentes y estructurales diferencias que entre ambas existen y son fácilmente comparables.

(10) Véase el trabajo de Maŷdī Ḥasanayn citado en la nota anterior.

nal (11). La calidad, la originalidad, la novedad y profundidad de la misma no admiten discusión, y buena prueba de ello son las frases del ya mencionado Maḥmūd Amīn al-'Ālim, por citar testimonios significativos y cualificados: «No escribió [Ŷamāl Ḥamdān] sobre Egipto como don del Nilo, sino Egipto como don del hombre básicamente. No escribió sobre el Egipto del agua, del desierto, de las rocas y basta, sino, y fundamentalmente, sobre el Egipto del verdor, del pueblo y de la historia, el Egipto del obrero, del campesino, del intelectual, del político, del economista y del administrativo, el Egipto de la autoridad y las masas, el Egipto de la especificidad árabe e islámica, el Egipto que influye en el mundo y es influido por él» (12).

Ḥamdān tenía una conciencia clara de la particularidad regional de Egipto, y fue uno de los más valiosos fomentadores de esta clase de estudios en la bibliografía árabe actual (13). Pero, aunque imbuido de egipcianidad, veía también con no menor claridad el sitio que su país ocupa y la función que le corresponde: «Egipto está condenado a la arabidad (**al-'urūba**) y condenado también al liderazgo árabe. Porque Egipto, medio del libro de la geografía, se ha convertido en introducción del libro de la historia», afirmó, y también: «No hay unidad de los árabes sin el liderazgo de Egipto, ni liderazgo de Egipto sin la recuperación de Palestina. Porque no hay unidad de los árabes sin Palestina». Este entendimiento protagonista y conductor de Egipto inscrito en su ámbito natural árabe islámico, no coarta ni restringe el ejercicio de su propia y particular personalidad, en la concepción fundamentalmente integradora y complementaria, como he puesto de relieve desde un principio, característica de Ḥamdān. Más aún cuando esa personalidad particular egipcia carece de veleidades o capri-

---

(11) Esta reseña se publicó en la revista **Al-Karmel**, Beirut, 2, primavera de 1981, pp. 276-282.

(12) Véase el trabajo de Maḥmūd Amīn al-'Ālim citado en nota anterior.

(13) Como simple muestra de referencia y contraste, me permito remitir al reciente artículo del sociólogo y economista kuwaití Muḥammad al-Rumayḥī, «'Arab... wa-'aŷam... wa-amīrikān... ṯumma māḏā?», incluido en el núm. 11773, 17 de mayo de 1995, p. 17, del periódico **Al-Hayat**. Esta personal reflexión sobre la actual situación política de la zona del Golfo (**Al-Jalīy**), y en concreto de la confrontación iraní-«americana», se inicia precisamente a partir de un aspecto de la visión regional de de Egipto que tenía Ḥamdān.

chos separatistas, como recuerda Fārūq 'Abd al-Qādir (14). Al suscitar la discusión de toda esta compleja e intrincada problemática hondamente subyacente y acumulada, lo más fácil, y habitualmente también lo que más se practica, es recurrir a presuntuosas interpretaciones simplistas, tanto en un sentido como en otro, tanto a favor como en contra, para la aceptación o el rechazo totales y carentes de la necesaria ponderación. Aplicar este juego esquemático a la honda reflexión que acomete Ŷamāl Ḥamdān no es sino una expresión clara de incomprensión y de incapacidad absoluta para poner en práctica lo que principalmente exige: la serena actividad intelectual, el riguroso esfuerzo teorizador.

Es evidente, como recuerda Ḥiŷāzī en el artículo citado, que el formidable proyecto interpretativo de Ḥamdān (el propio autor lo definía como epopeya científica intelectual ante todo, y no como enciclopedia escolar de estudio) corrió paralelo al proyecto naserista panárabe (**qawmī**), «considerándolo como un nuevo resurgir de Egipto y de los árabes todos». Tal caraceterística absolutamente estructural y de fondo resulta innegable, pero en modo alguno hay que deducir de ello que el esfuerzo intelectual de Ḥamdān surgiera y se desarrollara como aportación supeditada al programa y al ideario naseristas, ni que Ḥamdān fuera un simple ideólogo orgánico del proyecto naserista. Ambos se sustentan y explican, sencillamente, en lo que fue fuerza y móvil predominantes en un tiempo y en un lugar determinados, tanto en lo material como en lo espiritual. Lo que sí parece indudable es que, como algún tratadista ha dicho, «la ideología política no se fundió en los escritos científicos geográficos como se fundió en los trabajos compuestos por el fallecido geógrafo académico egipcio doctor Ŷamāl Ḥamdān» (15). Ese titánico esfuerzo interpretativo, por consiguiente, refleja también en gran medida el

---

(14) Véase la reseña de Fārūq 'Abd al-Qādir al libro del autor citada en nota anterior. En realidad, el comentarista amplía esta característica a cualquier otro país árabe: Siria, por ejemplo, que reivindique también su personalidad política dentro del ámbito natural árabe.

(15) Véase el artículo de Ṣubḥī Ḥusayn 'Abd al-Wahhāb al-Hindī, «Ŷamāl Ḥamdān wa-l-'ilm al-ŷugrāfī: inṣihār al-īdiyūlūŷiya al-siyāsiyya», publicado en el periódico **Al-Hayat**, núm. 11225, 7 de noviembre de 1993, en la página cuarta del suplemento **Āfāq**.

proceso nacional que cristaliza en el naserismo y se prolonga, convulsa y contradictoriamente, en los regímenes que lo suceden y que, con pequeños matices diferenciales según períodos, circunstancias y personalidades, dan al traste con los principios y los objetivos fundamentales que conformaron ese proyecto. No es de extrañar por ello que un intelectual como Maḥmūd Amīn al-'Ālim, que aun cuando no se identificara plenamente con el mismo sí lo hizo seguramente con su parte más central y sustantiva, «no sepa, al hacer la elegía de Ŷamāl Ḥamdān, el intelectual innovador y el hombre espléndido y singular, autor de **La personalidad de Egipto**, si hacía en realidad con él la elegía de la personalidad de Egipto, a punto de desaparecer también por estos mismos días» (16). Sin menoscabo alguno de su eminente cualidad científica, la obra de Ŷamāl Ḥamdān es una pieza clave y especialmente valiosa, una referencia imprescindible y esencial, en el planteamiento del debate nacional de mayor enjundia y significado, absolutamente crucial, que obsesiona al Egipto de nuestro tiempo. Posiblemente no abordado todavía, sin embargo, a pesar de su trascendencia, en todas sus dimensiones y con la envergadura y rigor exigibles.

Un estilo de escritura y de vida

Ŷamāl Ḥamdān es también uno de tantos ejemplos de sabio, de intelectual, en que alienta un poderoso escritor, un espléndido ensayista, dueño de un lenguaje, dominador de unos recursos expresivos que encauzan acertadamente todo un universo conceptual, de una fascinantes capacidad de combinación de elementos pasionales y racionales. Estos casos no son quizá abundantes, pero resultan menos infrecuentes y excepcionales de lo que muchos suponen. Esta cualidad ha sido oportunamente elogiada y recordada por quienes se han ocupado de su obra. Ya lo expresaba así Fārūq 'Abd al-Qādir, al reconocer sinceramente el asombro que experimenta el lector ante «la forma de elaboración (**al-ṣiyāga**) de sus pensamientos, a pesar de lo seco de su temá-

(16) Véase el artículo de Maḥmūd Amīn al-Ālim ya citado.

tica: una elaboración fina y delimitada, en uno de los más excelsos estilos de escritura de la lengua árabe culta contemporánea» (17). Kāmil Zuhayrī, por su parte, pondera en los escritos de Ḥamdān «el valor de la contextualidad (**al-taḍmīn**) civilizadora y la densidad lingüística, pues la frase que escribe abarca profundos significados, que quizá otro escritor tendría que formular en varias páginas» (18). Para Ḥiŷāzī, gran poeta él mismo, «Ḥamdān fue un pensador y un poeta en la misma medida que fue un sabio y un político», y en su lengua, en sus ideas, hasta en su comportamiento y en sus maneras de actuar, encontramos el lirismo y lo épico que tienen su raíz en el proyecto naserista, en el que el pasado retoña con las albricias del futuro (19). Hay como una especie de profundo caudal profético subyacente al pensamiento de Ḥamdān, que lo empapa y sublima. No es extraño, por ello, que también los poetas se muestren especialmente sensibles a la lectura y valoración de su obra: otro ejemplo conspicuo puede ser el poemita que, con el título de **Nār al-āliha** («El fuego de los dioses»), el iraquí 'Alī Ŷa'far al-'Allāq le dedicó como emocionada y serena elegía (20). El mismo Ḥamdān afirmó, no lo olvidemos, «que la imaginación (**al-jayāl**) no está totalmente alejada de la ciencia, sino que es quizá su principio».

Yo escribía en el sencillo homenaje que le dediqué con motivo de su muerte (21): ¿Qué le pudo ocurrir a este brillante profesor de geografía en la Universidad de El Cairo, doctor por la Universidad británica, para dejar definitivamente la docencia en 1963, con treinta y cinco años, y dedicarse en exclusividad, cada vez más encerrado en sí mismo y desvinculado de la vida social, a investigar y escribir? ¿Se sintió absolutamente decep-

---

(17) **Véase el artículo ya citado de 'Abd al-Qādir, p. 282.**

(18) Véase el texto de Zuhayrī en el periódico **Al-Hayat**, núm. 11033, 28 de abril de 1993, p. 20.

(19) Véase el artículo ya citado de Ḥiŷāzī.

(20) Este poema se publicó en el periódico **Al-Quds Al-Arabi**, núm. 1310, 3 de agosto de 1993, p. 5.

(21) Este escrito mío apareció en su día en el periódico madrileño **El Mundo**, y se reproduce en mi reciente libro **Pensando en la historia de los árabes**, Madrid, CantArabia, 1995, pp. 636-7. El profesor Maḥmūd 'Alī Makkī, gran hispanista —entre otras muchas dedicaciones— y dilecto amigo, tuvo conmigo la deferencia —que mucho le agradezco— de traducirlo al árabe, publicándose en el primer número, 18 de julio de 1993, de la revista semanal cairí **Ajbār al-adab**, tan sabiamente conducida por el conocido novelista y periodista Ŷamāl al-Giṭānī.

cionado de una institución que le parecía ingrata y carente de sentido, mezquina en su condición científica y humana? ¿Le arrastró a ello su extrema hipersensibilidad, quizá una potencial misantropía, tal vez un amor propio desproporcionado, o un radical sentido de la ética, la honradez y la justicia? Quizá empezó a percibir, sencillamente, que un hombre como él tenía tan sólo un lugar en este mundo: el que sus propios y simples límites le marcaban. Sólo ascéticamente podría quizá reflexionar sobre su sociedad. Sólo ascéticamente podría quizá ésta entenderle también y respetarlo».

Los testimonios muy diversos que aquí he recogido manifiestan la conmoción que su muerte produjo, reflejan algo del turbión de sentimientos que agitó y removió. Y adquieren no sólo alcance y significado individuales, sino también colectivos y nacionales, en toda la compleja y taraceada extensión que tienen estos términos cuando nos referimos a eso que llamamos el mundo árabe islámico. El drama de este excepcional hombre de Egipto, de este excepcional intelectual, es un ejemplo transparente de la cruel e injusta paradoja que se recoge en el título de mi escrito. Que, para mayor desgracia aún, no se ha producido, ni se produce, ni se producirá, como caso único o excepcional. Y que se ensaña seguramente de manera particular con los individuos que defienden, junto a la indiscutible primacía y necesidad del saber, la trabazón de compromiso y de libertad, el respeto total que ambos principios fundamentales merecen. Si es que los hombres quieren, realmente, propiciar una existencia que responda en verdad al calificativo de humana.

PEDRO MARTINEZ MONTAVEZ

LA PERSONALIDAD DE EGIPTO, UN TEMA PARA HISTORIADORES
(Homenaje a Gamal Hamdán) (*)

«El mar de olas de zinc y espumas
de cal, nos sitia
con su inmensa desolación.
... ...
¡No es posible salir de este castillo
abatido del ánimo!
Hacia cualquiera parte —al oeste,
al sur, al este, al norte—,
un mar de zinc y yeso,
un cielo, igual que el mar, de yeso y zinc,
—ingastables tesoros de tristeza—,
sin naciente ni ocaso...»

(De «Monotonía», de Juan Ramón Jiménez)

Un hombre dedicado toda su vida a reflexionar sobre el genio del lugar, el poder de la geografía y la estrategia, a partir de Egipto, le ofreció todo su esfuerzo racional y científico. Pero el castillo de su ánimo quedó abatido por un cambio de espacio. Norte, sur, este y oeste perdieron sus significados habituales y se abatieron sobre un hombre de ciencia con sensibilidad de literato.

¿Era Egipto el que cambiaba? ¿Es tan triste la personalidad egipcia?, o también ¿es que en el proceso de cambio el ánimo de Gamal Hamdán tendía a percibir el espacio desvitalizado? No pretendo esta tarde adentrarme por el alma egipcia como lo hacen los literatos, sino recordar que la labor de los ensayistas y pensadores sociólogos les compromete personalmente, les somete a peligros, les coloca junto al riesgo de asumir y dar voz a

(*) Texto presentado el día 21 de marzo de 1995 en el IEEIM, en las Jornadas de Homenaje a Gamal Hamdán.

la consciencia colectiva. Y a veces su propio espacio personal ya no resiste el peso:

> **«¡Qué peso aquí en el corazón inquieto**
> **—peso de mar o tierra—,**
> **de arriba y de abajo!**
>
> **¿Qué corazón, en el que esté yo vivo,**
> **estarán enterrando o ahogando?»**
>
> **(De «Hastío», de J. R. J.)**

Mas sí deseo recordar que este sentir histórico, personal y literario se da en otros escritores egipcios. Y que desbordaba en la década de los años ochenta. No es fortuito que en 1989 el novelista Gamal al-Gaytani, eligiera en Bolonia como tema preferido y personal de exposición, en un taller literario, pronunciar un breve ensayo sobre la tristeza, en donde se percibían reunidas la sensibilidad personal y artística del escritor y la experiencia y percepción objetiva del cronista. Y no es coincidencia inexplicable, sino concatenada, que un arabista como Pedro Martínez Montávez, asimismo mostrándonos cómo concitar sensibilidad y experiencia, hace años analizara en esta misma sala el sentimiento —y con él, la tristeza— de la tarde en los poetas egipcios, y luego fuera el autor de un texto-homenaje hispánico a Gamal Hamdán (1), a su muerte, en el que creo percibir parciales atisbos de identificación. Afirmaba entonces nuestro maestro: **«Quizá empezó a percibir, sencillamente, que un hombre como él tenía tan sólo un lugar en este mundo: el que sus propios y simples límites le marcaban. Sólo ascéticamente podría quizá reflexionar sobre su sociedad. Sólo ascéticamente podría ésta entenderle también y respetarlo. Gamal Hamdán no tenía seguramente nada de manipulador pigmalionizante; no podía por ello quedar reducido a uno de tantos practicantes en boga de las ciencias sociales, osados, caducos, impostores».**

El cambio estratégico egipcio, ¿afecta a la personalidad de Egipto?

En 1983 aparecía el libro **Istrātīŷīyat al-isti'mār wal-l-taḥrīr (La estrategia del colonialismo y la liberación)**, de Gamal Ham-

---

(1) En el Diario **El Mundo**, 19-1-1995, y recogida en su libro **Pensando en la historia de los árabes**, Madrid: CantArabia, 1995, pp. 636-637.

dán (2). En él se encuentran afirmaciones que dan cuenta claramente del gran cambio estratégico operado con Egipto: «**La conclusión neta, en resumen, es que el centro de peso geopolítico, la atracción estratégica y la lucha política se han trasladado desde el Mediterráneo al océano Indico, y del Canal de Suez al Golfo Arábigo** [Pérsico, en nuestra terminología], **y de Egipto y la región Siria hacia el este de la Península Arábiga y el Maxrik árabe, y desde el norte del Mar Rojo hacia su sur. En suma, desde el centro de Oriente Medio hacia su oriente, o dicho mejor, con aproximación: desde el Cercano Oriente hacia el Oriente Medio. Una de las manifestaciones y muestras más destacadas de este deslizamiento o traslado hacia el este es el hecho de que el lugar donde se dan las guerras en la zona, recientemente, especialmente tras la paz egipcio-israelí [al-miṣrā'īlī], se ha trasladado del pilar Egipto-Israel-Siria al de Irak-Irán-Afganistán.**

»**Tomemos, por ejemplo, la guerra Irak-Irán. Esta guerra es, inevitablemente, un indicio parcial del movimiento del centro de peso estratégico, geopolítico y regional desde Suez hacia el Golfo, y de Egipto hacia el Maxrik**» (3).

Al final de esta sección de su libro, aparecen unas frases que producen en mí, como arabista que aprecia el insustituible y crucial papel de Egipto, una cierta melancolía. He vacilado en traducirlas y pronunciarlas, y me inclino más a darlas por escrito, ya que no quiero públicamente levantar la tristeza de quienes son egipcios o aman a Egipto como propio. Concluye el doctor Hamdán afirmando (y recuerdo que se trata de 1983, para que se pueda sopesar su valor de prospección) que «**Egipto se ha transformado en un mero camino, en un paso marginal hacia el nuevo centro eje, que es el Golfo, lo mismo que ha sucedido con Omán, o Somalia, o incluso Israel, o como sucedió con Chipre, anteriormente, en relación con Egipto. Eso significa, en pocas palabras, que estratégicamente Egipto, así como su Canal, se ha convertido en un lugar marginal al servicio del Golfo vital, que**

---

(2) El Cairo-Beirut: Dārk al-Šurūq, 1.ª ed., 1983, 438 páginas.

(3) **Obra citada**, pp. 414-415. Los párrafos que siguen son, también, de gran interés. Trazan un paralelo entre el conflicto en el Estrecho de Ormuz con el de Suez, hace un siglo, recuerdan el «discurso» acerca del vacío de poder, en ambos casos, y las acciones emprendidas, tanto en la instalación de tropas como en la configuración de una Sociedad de «beneficiarios».

gobierna y se gobierna en todo, sin que esto lo cambie la declaración de Egipto de que está dispuesto a enviar sus tropas al Golfo para contribuir a protegerlo» (4).

Indudablemente éste es un cambio de gran magnitud, que se inscribe en la Era Atómica. Todo el libro del geógrafo egipcio es un intento de enmarcar este importante cambio con el devenir histórico total, de explicarlo y relacionarlo de alguna manera con la historia conocida anterior. Es más que posible que, como geógrafo, Gamal Hamdán viera corroborada esa afirmación, que él suscribía, de que «**la historia, como alguien expresó, no es sino geografía en movimiento, en tanto que la geografía es la historia que se detiene. Y ambas juntas son como una veleta: cuando la rueda está quieta, es de varios colores, y cuando gira y se mueve, se vuelve de un solo color nuevo**» (5).

El cambio de siutación egipcia, sin embargo, aparece como un cambio de mayores implicaciones si se tienen en cuenta perspectivas de largo alcance. Según grandes magnitudes geográfico-históricas, Egipto constituye uno de los bordes de ese «eslabón feliz», de ese «**círculo continuo o casi continuo formado por tierras agrícolas fértiles y ricas que forman "como un remiendo con bordes recamados de oro": el Creciente Fértil, al norte, con dos partes, Irak y la región Siria, y otro Creciente Fértil menos rico cualitativamente, al sur, formado por Etiopía, Omán, Hadramawt, el Yemen y el Hiyaz. Cierra el círculo, luego, el valle del Nilo en Egipto**» (6). Y añade: «**En cuanto que el corazón muerto pone la mano en este eslabón que lo rodea, se garantiza una base territorial amplia y un potencial de civilización denso que le garantizan todos los elementos de fuerza**» (7). Esta perspectiva se refiere, concretamente, a los tiempos de la primera expansión árabe.

Este traslado de eje desde Suez hacia el Golfo podría quizá ser interpretado, hoy en día, como un traslado geográfico, desde un centro hacia un oriente de una misma zona. O también podría ser descrito como creación de un nuevo centro (el que llamó «cora-

(4) **Ibídem**, p. 415.
(5) **Ibídem**, p. 8.
(6) **Ibídem**, pp. 27-28. Aquí el autor cita su obra **Dirāsa fi-l-'ālam al-'arabi**, página 14.
(7) **Ibídem**, p. 28.

zón muerto») de un semieslabón al que se intentan añadir por lo menos dos eslabones más, uno al oeste (el Magreb) y el otro al noreste-este (con Turquía e Irán), dejando entre ambos dos zonas de «tierra quemada» (Libia-Argelia, Irak), para que no constituya el conjunto un área continua. Es decir, se trataría de mantener y destruir al mismo tiempo un gran potencial.

Los países anfibios

Hamdán seguía una línea de pensamiento muy próxima al gran geógrafo Mackinder en cuanto a que creía en el combate entre tres grandes fuerzas: los países marítimos, los países de tierra, y los países anfibios, que igual se movían por ambos terrenos. El área árabe, para él, pertenece tradicionalmente a la de los anfibios.

¿Ha desaparecido esta divisoria? En las grandes magnitudes ha aparecido la de los pueblos o países voladores, cruzada con las categorías anteriores. Pero en la actualidad las categorías de las que también habla Hamdán son las de los pueblos «de ideología» y los pueblos «de tecnología».

Reaparece aquí un tema de otro orden: la contraposición entre técnica y pensamiento. Para más de un historiador y pensador árabe la historia está repleta de enfrentamientos entre los extremos, y las etapas de civilización se logran mediante fórmulas combinatorias, medias, «anfibias» entre ambos. Europa y los países árabes se encuentran situados en zonas medias. Y Europa, en este caso y respecto a la confrontación entre ideología y tecnología, también se encuentra en esta posición dentro de la «geoideología» o «ideografía» (p. 437). En la misma medida en que pueden aportar soluciones y en que la paz del mundo depende de lo que suceda en este tipo de países, se puede prever que en ellos se desencadenen guerras: **«Europa, y Europa occidental en particular, es candidata actualmente a ser campo de combate y terreno de confrontación de cualquier guerra mundial próxima, aunque por el contrario, se puede convertir en tierra de aproximación...»** (p. 437).

El diseño estratégico a corto plazo, por otra parte, en 1983, era para el profesor egipcio que los EEUU se convirtieran en «di-

rector de orquesta», y que Europa «llevara el ritmo», o, dicho de otro modo, que aquél fuese «primer violín», y ésta «segundo violín». Sugerimos que se compare este análisis con las opiniones expresadas por Jorge Dezcallar (8) en 1911: «La música la ponen los norteamericanos, las partes las ponen los bailarines y a nosotros nos han pedido que pongamos el salón».

En cierto sentido la aspiración egipcia, que Hamdán expresaba, de no ser un mero pasillo militar, y la del profesor español Martínez Montávez, de no contentarnos con poner el salón, tienen puntos en común. Vienen a expresar la tensión y desposesión de un papel que ambos pueblos pueden desempeñar en favor de la paz, sin que haya por qué rebajarlos. Historiadores, geógrafos, arabistas, literatos, nos contentaremos con movernos en el terreno científico. Señalando la crisis (9). Dejando un espacio, en ella, para nuestras propias vidas, y rindiendo homenaje al que ofreció siempre la suya.

—Madre lejana,
tierra dormida,
de brazos firmes y constantes,
de igual regazo quieto,
—tumba de vida eterna
con el mismo ornamento renovado—;
¡tierra madre que, siempre
aguardas en tu sola
verdad el mirar triste
de los errantes ojos!—

(De «Nocturno», de J. R. C.)

CARMEN RUIZ BRAVO-VILLASANTE

(8) Es muy adecuado comparar el análisis con la descripción que en 1991 ofrece el diplomático español de la situación en la Conferencia de Paz de Madrid. La cita la recoge y comenta Pedro Martínez Montávez casi inmediatamente, también en la prensa. V. **Pensando en la historia de los árabes**, p. 725.

(9) Véase mi artículo: «La crisis de los intelectuales árabes», en **Temas árabes**, 3, 1987, pp. 75-95.

CONSIDERACIONES EN EL PENSAMIENTO DE GAMAL HIMDAN: EGIPTO COMO POLO NATURAL DE CULTURA

Está claro que Egipto es un oasis; una cubeta en la que confluyen los cauces secos de las viejas vaguadas del desierto, la vegetación, los animales y los hombres. Es una concentración de recursos, un asiento de estabilidad alimentaria, un cruce de caminos, y, como consecuencia de todo, un polo de pensamiento y polo religioso.

Polo absorbente. Polo irradiante.

Las afluencias exteriores han llegado a Egipto gota a gota a lo largo de milenios; pero también se han presentado en espacios cortos de tiempo, por oleadas, y han tenido períodos enfebrecidos o de crisis. Unas y otras han terminado por ajustarse a unos mismos ordenamientos, a unos mismos esquemas de actitud. Egipto termina por «egipcianizar» todo lo que penetra en él.

Esas afluencias han procedido siempre: del este, con un componente fundamentalmente semítico; del sur, con una configuración y un componente africanos; del oeste, con un componente de sustrato beréber; y del norte, con una mezcla de componentes en la que lo helénico ha predominado siempre. El este, el norte y el oeste se han interferido y sumado varias veces en sus componentes y aportaciones; no así el sur, cuya aportación constituye el propio entramado de Egipto, siendo Egipto, por su propia raíz, una creación africana.

El Nilo es el único río vivo que comunica, de manera espléndida, al Africa profunda con el Mediterráneo y con las grandes zonas inmediatas de cultura, comercio y pujanza humanos. Todos los demás ríos africanos, o son corrientes locales que descienden de las montañas del Magrib, o son los grandes cursos de agua que van a desembocar «horizontalmente» en los dos océanos laterales. El Nilo es el río vertical de Africa, la columna vertebral de energía que rompe el desierto y que mantiene la comu-

nicación fluida norte-sur a través de su eje; un eje de crecidas periódicas africanas cuyo resultado se ve en el Mediterráneo.

Esas crecidas son, precisamente, las que han provocado el ordenamiento y el esquema típicamente egipcios. Desde la prehistoria, los egipcios han aprendido a redefinir las lindes de sus campos después de las crecidas, y esta redefinición les ha supuesto el invento de la geometría, el uso de las matemáticas y el almacenamiento de las cosechas. Y, en consecuencia, el control de todo esto, o sea la alfarería, la arquitectura, la escritura; la estructura social, la jerarquía y la autoridad: igual que ha ocurrido en las demás sociedades agrícolas, pero con más intensidad y persistencia.

La personalidad del país pasa por la desecación prehistórica de las actuales ramblas del desierto, que eran afluentes del Nilo; ríos locales sin las crecidas periódicas procedentes del Africa profunda. Una desecación que supuso la concentración de animales, plantas y hombres, a la que me refería al principio, sobre un sólo curso de agua, el del Nilo. Y, por lo tanto, el desarrollo de la agricultura y del riego, la fijación de las lindes en las tierras cultivadas, la propiedad, las leyes, el poder, el control subsiguiente, la ciencia para resolver cuanto ello significa, y el estado para gobernarlo.

Y, al hablar del estado, de las leyes y del control, hablo de su práctica inmediata, o sea de la administración. En el Egipto faraónico, y en todas las etapas egipcias posteriores con personalidad propia, la administración ha terminado siendo un verdadero sustrato caracterológico, casi un genes. Todo ha pasado por la administración, incluso las invasiones. La norma, el orden, y el antecedente y el equilibrio, que son la esencia de la administración, han asimilado todas las influencias y las aportaciones exteriores transformándolas en egipcias. Lo extranjero que ha ido llegando a Egipto se ha asimilado al medio, y se ha sujetado a la norma adiministrativa en relativamente poco tiempo, ya sea histórico o personal, y ha sido después como producto egipcio, total o parcialmente, como ha vuelto a proyectarse al exterior.

A lo largo de su prehistoria y de su historia, Egipto ha incorporado las afluencias originarias del este, que han sido en su mayor parte de componente semítico; semítico-occidental (cana-

neos, fenicios, hebreos, sirios, sheshu), o semítico-oriental (árabes, ante todo); a los que hay que añadir los componentes indoeuropeos que pudieron llegar con los hyksos, la influencia hurrita, y las invasiones persa y otomana. Del oeste ha absorbido principalmente a los lebu, y a muchos beréberes, siendo beréberes también los lebu casi con toda seguridad. Pero por el oeste parecen haber venido, asimismo, parte de los llamados «pueblos del mar», mezcla de indoeuropeos y de otras razas, amalgamados en el movimiento; y del oeste han procedido los franceses y los ingleses, cuyas interveciones coloniales y culturales son determinantes en la historia moderna del país. Del norte han recibido lo cretense, lo micénico y lo griego, el helenismo, lo macedonio más tarde lo balcánico integrado en el imperio otomano. Afluencias, e influencias, que también le han llegado por el este y el oeste incorporadas a los reinos helenísticos locales, a Roma y a Bizancio. Y del sur han seguido subiendo, y suben siempre de alguna manera, junto con el agua, que es la verdadera protagonista, los componentes nubio y sudanés con todas sus ramificaciones.

Como momentos señalados y conocidos de la asimilación colectiva, y de la elaboración final de un producto cultural transmitido al mundo con personalidad egipcia, podríamos recorrer algunos ejemplos históricos, aunque sólo sea de un modo necesariamente especulativo.

Y empecemos por los hyksos, esa época en la que Egipto experimenta la primera invasión estructurada que conozcamos en su historia.

El período hykso, que en sí mismo es corto, recae sobre los de las dinastías inmediatamente posteriores, que a su vez representan la eclosión del poderío egipcio faraónico y algunos de sus momentos culturales más serios y trascendentales. A mi juicio, cabría unir el período de los hyksos y el de las dinastías ulteriores en uno sólo, grande y profundo, determinado por la influencia semita y el mestizaje, de un lado, y por la reacción egipcia castiza —sin abandonar el mestizaje— de otro. Sería una época en la que el equilibrio pendular de siempre, entre el Bajo y el Alto Egipto, oscila, además, entre la absorción que de lo circundante, de lo extranjero, hace el Bajo Egipto, y el refugio que, en

las «propias esencias nacionales», se va encerrando el Alto Egipto.

En el Bajo Egipto, con los hyksos y después de ellos, la nueva situación de mayor apertura al exterior del Nilo se polariza en la región actual de Qantir, sobre la entrada al Sinaí, en la ciudad-fortaleza de Avaris, Silé o Pi-Ramsís, una sóla o de emplazamientos muy próximos entre sí. Y en el Alto Egipto el recogimiento se centra en Tebas y zonas adyacentes. Lo primero da lugar a unas dinastías nacionales progresivamente transformadas casi en extranjeras, y a unas revoluciones religiosas de carácter universal; a una revolución del arte, también. Y lo segundo aboca a la toma parcial del poder temporal por una determinada jerarquía eclesiástica, que cree representar los valores tradicionales y que finalmente se africaniza.

Recordemos que los hyksos, o «jeques pastores», fueron probablemente una alianza de tribus transhumantes semitas, quizá con mezcla indoeuropea, que invadieron Egipto al final del Imperio Medio y que fundaron un reino militarmente preponderante en el norte del país, con capital en Avaris. En el sur, mientras tanto, se constituía en torno a Tebas un reino marcadamente más egipcio que, finalmente, expulsó a los hyksos y que devolvió la unidad al valle del Río, inaugurando el Imperio Nuevo.

Pero es evidente que todo esto se produjo habiendo, de entrada, una influencia egipcia en los propios hyksos, que de inmediato parecen haberse «egipcianizado» orgánicamente con entera facilidad. Lo mismo que hay una semitización mayor en las clases dirigentes egipcias que, a partir de la victoria sobre los hyksos y de su aparente y total expulsión, abren por completo su política al exterior y toman costumbres y modos de hacer asiáticos. En Egipto se produce una mezcla de actitudes que repercute de lleno en todo él, pero que se centra en el Delta y en la zona intermedia cercana al Sinaí. Los faraones conquistadores operan a partir de esta zona intentando crear un imperio asiático y universal. Una religión de tipo igualmente universal, la de Atón, tiene quizá su área de propagación mayor en este territorio y adyacentes (aunque su base estuviera en el Egipto Medio). Otra religión, que también se pretende universal, la de Amón, sirve de instrumento a alguno de los soberanos conquistadores. En determinados momentos parece haber semitas en los más altos

cargos de la Doble Corona. Y un determinado período, el que va de Amenhotep IV a Ay, puede considerarse casi el de una familia o dinastía semita.

Y, sin embargo, estamos hablando de unos personajes, de una política, una religión y un arte, que con toda verosimilitud son de los más conocidos como muestra y ejemplo de lo genuinamente egipcio antiguo, a nivel mundial. Dos de los faraones de esta última dinastía son el propio Amenhotep IV Ajenatón, y su hijo Tuthanjamón; el primero, famoso por su revolución religiosa y social, y por su esposa Nefertiti, el segundo por su tumba y su fabuloso tesoro artístico. Las campañas asiáticas de Tuthmes III, unos ochenta años antes de Ajenatón, y las de Ramsés II y Ramsés III, unos setenta y ciento setenta años después de Ajenatón (por tomar a este soberano místico como punto central de ese macroperíodo), significan la cúspide del poder político y militar egipcio, junto con la derrota de los «pueblos del mar» a manos de Merenptah, soberano intermedio entre los dos anteriores. La religión de Atón es la primera organizada como tal en torno al concepto de la unicidad de un Dios, tal vez íntimamente ligada en su origen con la religión mosaica hebrea. De esta época es la salida de los hebreos de Egipto, según la Biblia. De esta época es el asombroso arte de Tell el Amarna; que, en parte, junto con el poder y la riqueza de un estado, se reflejan en el mismo tesoro de Tutanjamón. Un arte y una forma de concebir la representación plástica que influirían de manera decisiva en los tiempos inmediatamente posteriores. Son, aproximadamente, tres siglos y medio —desde Hatsepsut hasta los sucesores de Ramsés III— en los que Egipto brilla con luz propia hasta nuestros días y en todos los terrenos, siendo aquellos, sin embargo, unos siglos de intenso mestizaje cultural y étnico.

Otro ejemplo es el período tolomeico. La Alejandría helenística de los tolomeos y de Roma ha pasado a la historia de la cultura como uno de los faros de la Humanidad. Alejandría fue el lugar del reencuentro de lo griego con lo asiático y lo egipcio —con mucho contenido previo los unos de los otros— esta vez al nivel del mundo de la época. Y aunque es verdad que lo alejandrino y lo helenístico no penetran en el tejido profundo de Egipto, también es cierto que una parte del pensamiento egipcio se extiende por el mundo por mediación suya, y que pasa a for-

mar parte de la civilización en general. Son muchísimas cosas las que hemos recibido de Egipto, a través de la difusión helenística, tanto en la cultura islámica como en la judeo-cristiana; y, antes que ellas, a la par que en otros hechos, en los cultos a Isis que impregnaron la cuenca mediterránea y buena parte de Europa, sirviendo luego para simbolizar procedimientos y filosofías, como la alquimia, atribuidos cierta o falsamente a los egipcios. Lo alejandrino, inevitablemente, se cubre con el tinte y el «misterio» de lo egipcio, ya desde época romana. Egipto fija a lo griego y a lo helenístico sobre su propia personalidad, como antes fijó a lo semita dentro de ella.

Ejemplo posible es, también, el del período de los fatimíes, pasados los años. Como todos sabemos, la de los fatimíes es una de las épocas más sobresalientes de la Edad Media islámica en general, egipcia en particular; y es un tiempo de esplendor para la Historia del Mediterráneo. Los fatimíes empiezan en el Magrib, donde crean su ímpetu y ambición, prolongándolos hacia al-Andalus y Sicilia, al mismo tiempo que intentan un par de veces conquistar Egipto. Cohartados, finalmente, en el Magrib occidental por los andalusíes y sus aliados, trasladan su ímpetu a Egipto y montan un estado que ha de durar mucho tiempo, en donde la construcción de ciudades, las artes, el pensamiento y el comercio, entre otras actividades humanas, tienen su máxima vigencia. Lo fatimí que, en principio comienza siendo magrebí y particularmente beréber —independientemente del origen de la dinastía— termina por ser completamente egipcio y pasar a la posteridad como tal. El último soberano fatimí es sustitutido por un sultán kurdo, Salah al-Din (Saladino), que pasa a representar ante la Historia, tanto islámica como cristiana, el papel de gran oponente egipcio frente a la Cruzadas, reconquistador de Tierra Santa, buen militar y político internacional. Un hombre para la Historia. Pero asimismo un héroe, novelesco y cinematográfico; al que también Egipto ha absorbido y hecho suyo como representante de las últimas grandezas del ímpetu fatimí. Es posible que si el imperio fatimí fue un gran estado, fue porque el genes administrativo egipcio, su vocación reguladora de fuerzas móviles (las aguas, las ideas), lo fijó como tal.

Un penúltimo ejemplo sería el del período de Muhammad 'Ali, que, indudablemente, va precedido por el de los mamelucos.

Los mamelucos no eran unos egipcios de origen étnico, y, sin embargo, han pasado a la Historia como protagonistas de uno de los capítulos característicos de la cultura, gobierno, arte arquitectónico y arte militar egipcios. Muhammad 'Ali tampoco es un egipcio, ni de cuna ni de formación; y, no obstante su ambición de sustitutir a la decadente dinastía otomana en Estambul, lo que verdaderamente creó fue el Egipto moderno; un estado y una dinámica transformadores del país y de otros países en vías de renovación, a modo de plantilla. Muhammad 'Ali, sus hijos y su entorno inmediato transformaron una nación medieval y dormida en una nación del siglo XIX, impaciente. Crearon una economía, crearon un ejército, potenciaron los estudios modernos, crearon una marina, intervinieron activamente en la política mundial, empezaron a racionalizar la agricultura, levantaron ciudades y fábricas, etc. Bajo uno de sus inmediatos sucesores se construyó el Canal de Suez. De provincia otomana subyugada, Egipto volvió a entrar en el mundo como protagonista.

Y es Egipto el que entra como protagonista, no los albaneses, franceses, italianos y demás, que constituyen el núcleo inicial del nuevo dinamismo: y lo es, no tanto por razones de distancia ni de maquillaje históricos, sino porque Egipto absorbe sus ímpetus y sus intenciones y los hace egipcios, una vez más. Aquellos hombres se sintieron, incluso en vida, como participantes de una empresa egipcia. Y así han trascendido sus propios designios y sus propias existencias.

La **nahda**, que no es un fenómeno egipcio en sus comienzos, sino más bien sirolibanés, se potencia evidentemente con la renovación egipcia de Muhammad 'Ali y sus sucesores. La **nahda** es el renacimiento árabe, particularmente el cultural e idiomático, también el político, que surge tras de unos siglos de decadencia debidos, sobre todo, a la dominación otomana. Las figuras de proa de este renacimiento, además de las sirolibanesas dentro de sus propios países y en la emigración americana, son las que se manifiestan en Egipto —en bastantes casos libanesas, sobre todo en la Prensa— contribuyendo en forma decisiva al despertar de las nuevas clases intelectuales, que son, casi en paralelo, las nuevas clases políticas, económicas y militares. Y lo que estas nuevas clases consignan, sobre todo durante poco más de la primera mitad del siglo XX, será un modelo para los otros países

árabes; habiéndose vuelto a producir el fenómeno de la absorción de unas ideas y unas personas hacia un polo, y su irradiación como producto elaborado del mismo.

Ultimos ejemplos podría haber muchos. Son todos ellos contemporáneos y son extremadamente visibles tanto en el campo cultural como en los ideológicos y de posicionamiento político. Pero yo creo que basta con los señalados para comentar, de algún modo, la idea de Gamal Himdan sobre la profunda personalidad de Egipto respecto a su entorno que lo convierte en una especie de piedra imán y faro al mismo tiempo. Como dije al principio, creo que todo obedece a la extraordinaria capacidad egipcia de ordenar jerarquizar y redefinir, replantear; condiciones inmejorables para la organización de una sociedad y de un estado.

RODOLFO GIL GRIMAU

SEMBLANZA GEOGRAFICA COMPARADA DE EGIPTO Y ESPAÑA. UN ANALISIS FISICO-NATURAL

En las páginas que siguen intentaremos hacer una semblanza de las afinidades que sugieren los estudios geográficos de España y Egipto, especialmente en lo que atañe a la Geografía Física o natural.

Si cabe afirmar que los estudios filológicos pueden considerarse acabados cuando se encuentra bien definida una palabra, en las posibles múltiples acepciones con que ha sido utilizada, todo estudio geográfico comienza señalando los límites del territorio que pasa a describir. Definir es tan difícil como delimitar, y, sin tal constricción, no debiera hablarse de una auténtica «concepción» o aprehensión del concepto. En el caso geográfico los límites pueden obedecer a un sinnúmero de causas. En ciertas ocasiones responden a la presencia de la línea de costa, un límite aparentemente fácil de identificar, pero que sólo es discernible allí donde la variación de las mareas es relativamente baja, lo que es el caso de la mayor parte de la costa mediterránea. La costa no sólo delimita, sino que impone unas —a veces— poco evidentes condiciones de relación con el exterior. Dada la localización de la capital de un estado en la costa o en el interior, se podría escribir todo un tratado de las pulsaciones centrípetas y centrífugas de las naciones y de cómo en tales etapas las costas han funcionado ayudando a abrir o a cerrar el estado. La dicotomía entre las ciudades centrales de Madrid y El Cairo y los puertos marítimos como Barcelona y Alejandría constituyen hoy un buen ejemplo de este doble comportamiento. Pero, a otra escala, durante los últimos momentos del reino de Granada también se produjeron tensiones entre la centralidad más o menos cerrada, representada por Granada, y la apertura significada por la capitalidad de Málaga.

En otras ocasiones la delimitación se debe a la presencia de

los otrora llamados «accidentes geográficos», de entre los que destacan los ríos —que actúan disparmente—, pues unas veces unen y otras separan. El Nilo, por ejemplo, es ante todo una arteria que vertebra la unidad del pueblo egipcio, y ha servido antes para unir que para apartar pueblos. Pero recordemos que el enfrentamiento entre el Alto y Bajo Egipto es una constante de la historia del vetusto país, pues la unidad que otorga este río no era tan clara para los habitantes del delta, en comparación con los asentados en las reducidas márgenes del encallejonado tramo entre Asuán y El Cairo.

La frontera natural puede apoyarse en los desiertos, que se respetan por su esterilidad biológica. La frontera puede deberse a la ocupación del territorio por un determinado grupo de individuos, o bien ser fruto de la historia, esto es el sinfín de avatares por los que pasa una comunidad a lo largo de un tiempo suficientemente dilatado...

Y, sin embargo, todo intento de hacer Geografía pasa ineludiblemente por la previa delimitación. A esta dificultad se añade que ciertos límites no están todo lo claro fijados que uno desearía: conocidas son las conflagraciones que por su culpa se desatan cada cierto tiempo, o los necesarios arbitrajes de terceras partes o aún de personas de prestigio en los numerosos contenciosos fronterizos internacionales.

España y Egipto, Egipto y España

La delimitación de la primera es obvia en las costas y más discutible en el istmo, aunque aquí se dispone de la cordillera Pirenaica. En ésta, y como se sabe, unas veces el criterio fue el de la divisoria de aguas, de tal modo que la unidad venía sugerida por la totalidad de las cuencas hidrográficas, pero en algunos pocos casos se prefirió la línea de cumbres. Dicha delimitación puede resultar más evidente para los profanos que sólo se asoman a las más altas cumbres con ánimo de demarcar sobre unos pocos puntos, los picos más prominentes. La experiencia, no obstante, indica cuán problemática resulta esta delimitación, aparentemente mucho más cómoda y rápida. Con estas pautas puede explicarse que el Garona, arteria esencial en el país

galo, nazca en España, así como que el Segre, río eminentemente catalán, lo haga en Francia. La raya portuguesa es mucho más discutible, pues unas veces aprovecha el apoyo de los cauces fluviales (último tramo del Miño, tramos medios del Duero y Tajo, y final del Guadiana fundamentalmente), como otras se asienta en criterios aparentemente injustificables.

Por su parte, Egipto posee los diáfanos confines de sus costas mediterránea y del mar Rojo. En ambos casos se trata de costas que son bañadas por mares casi cerrados con pequeñas fluctuaciones mareales. No obstante, la extensión en crecimiento del delta del Nilo ha hecho retroceder la línea de costa en el Mediterráneo. Pero la frontera sur y occidental recuerdan en su trazado mucho más a las delimitaciones astronómicas, por seguir respectivamente el paralelo 22 Norte que la separa de Sudán, aunque apoyándose en la segunda catarata, y el meridiano 25 Este al sur del oasis de Siwah. Hemos defendido en otras palestras que lo importante en la delimitación no es tanto la naturalidad o artificialidad de los límites, sobre lo que se podría opinar de muy diferente manera, sino la claridad, por muy arbitraria que pueda parecer dicha delimitación. No se trata de hacer aquí un tratado apologético de las fronteras, sino de abogar por la comodidad y nitidez que resulta de la utilización de los llamados límites astronómicos. Ello no mengua unidad a la República Arabe de Egipto sino que, por el contrario, entronca los límites con la partición grecorromana de la esfera terrestre, de cuya argumentación es deudor el mundo civilizado actual.

Es lugar común hablar de la masividad de la Península Ibérica, esa piel de toro que constituye un tópico tan repetido para el caso español, como la genial idea de Herodoto de que Egipto es un don del Nilo. Por su parte, Egipto también resulta básicamente cuadrangular. Efectivamente carecen ambos estados de costas recortadas, lo que no es sino el efecto esperado de unos viejos territorios de geología precámbrica y herciniana respectivamente. Para el caso español la masividad está puesta todavía más de manifiesto por ser los límites debidos a la línea de costa. En Egipto, sin embargo, las fronteras naturales vienen impuestas por el desierto líbico u occidental al W así como por las cataratas nilóticas al sur, en los confines del desierto nubio. Pero los

desiertos no constituyen un límite claramente marcado, salvo que se tome su borde o sahel, y aún así se encuentra cortado en numerosos fragmentos en función de los pasos que se dirigen hacia los pozos y los oasis, los enclaves más apreciados en estos territorios. Los desiertos siempre han desempeñado el papel de anecúmenes, o «no man's lands», que separaban la identidad egipcia del resto de los territorios aledaños. Debe recalcarse aquí y ahora que estos desiertos —en el sentido literal de la palabra—, esto es, lugares deshabitados o abandonados («desertus» es el participio del pasado del verbo latino «deserere»), han marcado y marcan los límites claros con el «oikumene» nilótico, la franja estrecha, pero fértil y copiosamente poblada que constituye la onológica columna vertebral de Egipto.

Posición y lugar

España y Egipto deben mucho a su peculiar situación, en las proximidades del estrecho de Gibraltar (el Yebel Tarik meridional) y del istmo de Suez (As Suways) respectivamente. Tan estrecho es éste último que el hombre moderno ha logrado separar lo que la Naturaleza, a pesar de los intentos geológicos de desgarre, todavía mantenía unido. Esta posición junto a los grandes pasos marítimos estrechos, las mangas, ha ayudado a la consideración conjunta y semejante de las tres conocidas penínsulas limítrofes de Europa, Africa y Asia: así el Maghreb es conocido como **Africa Menor**, Anatolia como **Asia Menor** y la Península Ibérica como **Europa Menor**. Pero en aras de hacerle justicia a Egipto, localizado en el núcleo de las tierras emergidas del Viejo Mundo, a la vez que a orillas de dos mares de marcadas diferencias, se le debería llamar **Eurafrasia Mayor**. Efectivamente las distancias a las que se encuentran los extremos de los tres continentes que desmembran el Viejo Mundo son aproximadamente iguales si se toma como centro la ciudad de El Cairo: 8.552 kilómetros a Vladivostok, el «Lejano Oriente» de la Rusia integrada en la CEI, 7.235 kilómetros a la Ciudad de El Cabo, y 5.269 kilómetros a la capital islándica, Reykjavik.

Contexto marítimo y continental

Entre el Mediterráneo y el Atlántico se extiende la Península Ibérica, con las diferencias que de ello se pueden extraer: la oceaneidad supone la influencia atlántica, un océano bravío, inmenso, y en el camino por el que han de transcurrir las masas de aire del W que chocan con las elevaciones orográficas de la Península. Por el contrario, el Mediterráneo es un mar prácticamente cerrado, de alta salinidad por estar confinado y desarrollarse latitudinalmente a los grados que dominan las altas presiones subtropicales que le confieren una elevadísima evaporación, apenas compensada por los parcos aportes de unos exiguos ríos, si se hace excepción del caudaloso Nilo.

Egipto ocupa, por su parte, una posición entre el Mediterráneo, en cuyas riberas o en cuya cercanía se favoreció el nacimiento y desarrollo de todas las culturas y civilizaciones de la Antigüedad en el Viejo Mundo, y el mar Rojo, mar aún más cerrado que el Mediterráneo, cancelado por su particular Bab el Mandeb respecto del golfo de Adén, en el que las condiciones de alta salinidad del mar Mediterráneo se elevan hasta los máximos alcanzados entre todos los mares del mundo, con tales caracteres de tropicalidad que, en el presente, se generan las dolomías y sus parientes las carniolas, rocas de ámbitos hipersalinos, en las que también entran como constituyentes los yesos. Esta circunstancia le permitió otrosí asistir a la hecatombe de cantidades indegentes de peces en el Pliocuaternario, que dieron lugar posteriormente a los depósittos de fosfatos. Este es el origen de los magníficos yacimientos que hoy en día se explotan.

El mar Rojo que se abrió cuando se desgarró la Península Arábiga del resto del continente africano durante el Neógeno, provocando entornos propicios para la génesis y entrampamiento del petróleo, de feliz explotación en la actualidad. Un mar, en fin, conocido por la extraordinaria riqueza de sus fondos, ricos en sulfuros metálicos de aprovechamiento económico, sin olvidar las nacaradas perlas... Los cielos totalmente límpidos de las poblaciones a sus orillas, la inexistencia de contaminación y la tranquilidad de sus costas le ha granjeado hoy un destacado papel entre los lugares turísticos mundiales.

Una geomorfología de parecida evolución

Por ello mismo, la morfología es pareja a ambos lados de la profunda hendidura que se abrió en tiempos geológicos recientes. Las costas occidental de la Península Arábiga y las orientalles de Egipto mantienen unas señas de identidad muy parejas: son altas, abruptas, ceñidas por apuntamientos volcánicos y las acompañantes y masivas mesetas de apilamiento lávico. En estos materiales es donde se alzan las más cimeras alturas del territorio egipcio, tanto en la Península del Sinaí con el Yebel Katrina de 2.637 metros, como en su región contienental de Itbay en el Shayib el Banat, que culmina a 2.187 metros. La ancestral apertura de los opuestos labios arábigo y egipcio es responsable de la delicada pérdida de altitud del desierto arábigo hasta el surco ocupado por el Nilo. Técnicamente se han descrito estas tres unidades como una tafrogenia —el mar Rojo—, una anteclisa —el desierto arábigo— y una sineclisa— el valle del Gran Río.

Por su parte, y salvando ciertas diferencias, la Península Ibérica posee una evolución geológica semejante a la esquina egipcia, por ocupar un extremo de la placa o del conjunto de placas europeas. Durante el período medio de la historia de la Tierra, el mesozoico, pasó de estar unida a Terranova y a la Bretaña francesa, a separarse del continente americano a lo largo de las profundas fallas corticales, que interesaban hasta el manto. Puede decirse, pues, sin incurrir en fantasías imaginarias, que Norteamérica es a España, lo que Arabia a Egipto: el labio contrario de una herida que, en el caso del Atlántico septentrional, ha producido un distanciamiento mayor, hasta el punto de que este océano sigue agrandándose...

La contemplación de los fenómenos geomorfológicos a esta escala regional en un contexto global marca también ciertas semejanzas entre los dos países objeto de esta comparación. Egipto es básicamente la cuenca baja del Nilo, geotectónicamente una sineclisa, un acubetamiento por el que discurre una de las más acabadas arterias fluviales del mundo. Esta es la razón de que su disposición geológica sea relativamente sencilla con un basamento completo, constituido por rocas precámbricas del escudo africano, basamento que sirve de apoyo a calizas y areniscas carboníferas, sobre las que yacen otras calizas jurásicas que

dan paso a las conocidas areniscas núbicas de edad controvertida al ser azoicas, sin fósiles, habiéndose datado tentativamente entre el final del Paleozoico, más concretamente desde el Carbonífero, y el Cretácico, si bien hoy se asignan a una edad cretácica inferior. Pero como habremos de ver más tarde el papel que han de interpretar en la seca tierra egipcia es de primera estrella. Sobre las areniscas núbicas hallan acogida las arenas, areniscas y calizas prácticamente horizontales de la transgresión cretácica superior, las que han dado nombre al ejemplar paisaje del desierto líbico, las «hammadas». Y, finalmente, en esa cubeta que acogió las sucesivas inundaciones marinas o transgresiones se se depositaron las calizas con sílex de la formación Tebas, de edad eoceno inferior, las calizas puras de la formación Minya (Eoceno medio) y las calizas nummulíticas eocénicas superiores que penetraron hasta el paralelo de Asyut. Sin éstas y las calizas cretácicas no es imaginable el espléndido legado artístico egipcio, pues las pirámides, mastabas, templos, estatuas colosales y demás ejemplares fueron talladas en tal roquedo. Restan unos pequeños afloramientos miocénicos (las formaciones Moghra —areniscas— y Marmarica —calizas—) y de lechos fosilíferos pliocénicos en las inmediaciones de la costa Mediterránea, que dan paso a los depósitos de aluvión cuaternario acarreados por el vasto río.

Repetimos que **Misr** es una unidad geotécnica negativa, por la subsidencia padecida en los tiempos mesozoicos y cenozoicos. Esta disposción recuerda el comportamiento que poseyó la Península Ibérica cuando, tras el abombamiento inicial del geotumor protoatlántico durante los inicios del Mesozoico, las aguas del mar de Tethys bañaron en sucesivas oleadas el interior de la placa hespérica (transgresiones triásicas, jurásicas, cretácicas). Como remanente de tal historia ha quedado la que hoy conocemos como cuenca del Ebro, el río que dio nombre a la Península, pero no es difícil imaginar en esa época otros «Ebros» paralelos al actual desaguando en las cálidas aguas del Tethys a latitudes más meridionales. La desigual evolución del Plioceno en las dos subcuencas mediterráneas, la occidental, donde radica la Península Ibérica, y la oriental, en la que se engasta Egipto, es la responsable de que mientras que se mantuvieron las condiciones en la rama oriental, la occidental produjera un vuel-

co hacia el Atlántico de la masa ibérica. Así, en la actualidad, los ríos más numerosos de la Península (Miño, Duero, Tajo, Guadiana y Guadalquivir) aportan sus aguas al Atlántico. La disparidad entre las cuencas hidrográficas que avenan al Mediterráneo (36,87 % de la superficie peninsular) y al Atlántico (63,13 por % del total peninsular) es buena prueba de lo que se acaba de escribir.

Contrastes propios de un continente

La Península Hispánica posee al menos tres áreas climáticas bien diferenciadas: una templado húmeda al norte y NW, en tránsito paulatino a la subtropical mediterránea del resto, y una degradación semiárida en las secas tierras del Sudeste. Egipto muestra características mediterráneas en la costa homónima y un súbito paso a las condiciones desérticas, solamente amortiguadas por la acción benéfica e inigualable de su río por excelencia. **Nahr an Nil**. Esta presencia permite el adentramiento de las plantas típicamente mediterráneas, como el olivo, el árbol que según la mitología griega regalara Atenea al Hélade. Así el oasis Siwah posee hoy una rica y exportadora industria de almazaras. Esta situación tiene una clara implicación con la disposición de los materiales geológicos que dan forma y asiento al territorio egipcio. Las areniscas nubias y cretácicas infrayacentes afloran en el fondo de los oasis aportando su singular líquido, el agua vivificante. La fosa tectónica que desde el oasis de Siwah surca en sentido SE la mayor parte del territorio egipcio es responsable de los restantes oasis de Farafrah, **wahat ad Dailah** y **wahat al Jaryah**. Este hecho pone de manifiesto como ninguno la interacción de sucesivos elementos para explicar la localización de los fenómenos geográficos.

En lo referente a la biogeografía el contraste también se produce con enorme importancia: si el Norte egipcio puede asignarse a la provincia mediterránea de la región paleártica, el mediodía entra de lleno en la provincia etiópica del reino paleotropical. Exactamente igual se conciben dos mundos deferenciados entre el Norte y el Sur si los objetos de atención se vuelven las áreas de distribución zoogeográficas: el reino paleártico domina

al Norte, frente al reino etiópico al Sur. Pero faltaríamos a la verdad si omitiéramos la dificultad de delimitación en esta área de transición que ha sido puesta de manifiesto por innumerables zoogeógrafos.

Costas bravas y arenosas

Las costas mediterráneas egipcias están salpicadas de albuferas de tanto renombre como la alejandrina de Maryut, o la de El Manzalah en Bur Said (Port Said). Son tal vez las más conocidas aunque a ellas pueden y deben agregarse las de Idku, Burulus o la sinaítica de El Bardawil. No resulta difícil buscar parangones en las costas levantinas españolas donde los grandes arcos de playales encierran las albuferas de Valencia, los marjales de Castellón o Sagunto y lagunas costeras como la de Pego-Oliva. La explicación a esta similitud hay que buscarla en la repetición de las condiciones que conducen a su génesis: unos importantes aportes de caudal sólido de los ríos que en estas costas desembocan, unas notabilísimas corrientes de deriva, que reproducen en gran parte los vientos dominantes —aunque acomodándose a la disposición de la costa—, la carencia de notables oscilaciones mareales, propias del Mediterráneo, etc.

Frente a estas suaves pendientes, la costa del mar Rojo se alza desafiante con sus farallones tan pronunciados que, a pesar de albergar en sus entrañas preciados minerales de inestimable valor en la Edad del Cobre y Bronce egipcia, fue escogida como destino de destierros, ejemplarmentes puestos de relieve en la novela histórica del finlandés Mika Waltari «Sinuhé el egipcio». Es igualmente el destino de los exilios de ciertos oficiales rebeldes a las tropas británicas en época reciente. Esta auténtica costa brava egipcia posee numerosas similitudes con la homónima catalana.

Egipto, tan nilótico como España Ibérica

Los filólogos estudiosos de los topónimos han reconocido con cierta unanimidad que los nombres de los ríos probablemente

sean las expresiones más antiguas de la cultura de un país, y que por ello se mantienen a lo largo de generaciones y generaciones, sin sufrir apenas transformaciones de consideración. Para el caso español los hidrónimos o potamónimos se han querido relacionar con vetustísimas raíces prerromanas. Sorprende además ver cómo los nombres con que aparecen citados los ríos en las obras griegas y romanas no son sino las transcripciones literales de unos originales anteriores. Tampoco la irrupción de las lenguas árabe y beréber supusieron cambios importantes, salvo en el mediodía hispano.

La Península Ibérica es la sede territorial principal, a la que hay que agregar los archipiélagos y las plazas norteafricanas, del estado llamado Reino de España. Dicha península, según numerosos autores, ha recibido su apelativo del Iberus, el río Ebro, y sus habitantes fueron llamados íberos. El eminente helenista García Bellido ha ligado este nombre a un río Hiberus que posiblemente pueda identificarse como el Tinto u Odiel, en el centro del interés minero de los colonizadores griegos del momento. Se supone que más adelante daría nombre a toda la costa mediterránea española, para fijarse finalmente como topónimo de toda la Península.

De un modo semejante el Nilo ha significado Egipto, y se ha tomado con frecuencia el todo por la parte. Suele admitirse que el nombre faraónico de Egipto era el de Kemi o Jemi, por clara referencia a las tierras negras que en cada crecida eran aportadas por los afluentes como el Atbara, desde las mesetas volcánicas etíopes. El terreno circundante, abrasado por el sol y sin los acarreos fluviales es rojo, amarillento, ceniciento y blanquecino. Los helenos denominaron **Aígyptos** indistintamente al río como al territorio adyacente. Si el Nilo se ha considerado desde antiguo «padre de las aguas», es justo reconocerle igualmente el papel de «madre de las tierras». Debemos ponernos en la mentalidad de los cronistas griegos, mediterráneos, acostumbrados a un verano sahariano, carente de lluvias, la característica que define en exclusiva el clima mediterráneo. Estos cronistas se asombrarían, como nosotros ahora, de la llegada de aguas por parte del río en un momento en que la sequedad del ambiente, la sequía atmósférica y meteorológica, era más patente. No resulta aventurada la imaginación de fantásticas hipótesis incomparables sobre tal fe-

nómeno, que se verían revestidas de un profundo halo mítico, en tanta medida como su adscripción al sistema de creencias totémico.

España es al conejo lo que Egipto al buitre

Para ciertos estudiosos el nombre de España está emparentado con la raíz púnica «span», que significa conejo, en atención a los innumerables roedores que debieron poblar estas tierras. Egipto, hoy llamada en lengua árabe Misr, fue denominada por los griegos **he Aígyptos**, la tierra de Egipto, por ser conquistada esta feraz franja de tierra por el homónimo hijo de Belo y Anquinoe, a quien su padre dejara en herencia Arabia. Haciendo una breve incursión en la mitología griega nos referiremos al padre de Egipto, Belo o Belos que, a su vez era hijo de Poseidón y Libia, nombre con el que en la antigüedad clásica era conocida toda Africa. Vemos pues como se entrelazan en el mito la realidad y la fantasía. Item más: Libia era hija de Epafo y Menfis, a su vez hija del dios fluvial Nilo y nieta de Zeus... Hay, además, quien opina que el nombre de Egipto se aplicó a la figura grecificada de Setosis, hermano de Arnait, los dos últimos nombres de faraones que cita Manetón en su larguísimo registro de dinastías. Setosis se convirtió en Egipto y su hermano Arnait en Dánao, que en la fábula fue gemelo de Egipto. Pero el Reino del Sur, el Alto Egipto siempre rindió culto a la diosa Buitre, como al lirio como planta protectora. En los atributos propios de la dignidad faraónica destacaron desde antaño la corona, blanca y campiforme del Alto Egipto, así como la corona roja y abarquillada del Bajo Egipto. Pero la indumentaria se completaba con la cabeza de cobra del Bajo Egipto y la cabeza de buitre del Alto. No es de extrañar que de **aigypiés**, el buitre, derivará **Aígyptos**, Egipto.

A modo de epílogo

Egipto y España: ambas unidas por ser el lugar de tránsito de toda una larga serie de culturas, en su trasiego en ambos sentidos: afro-asiático y asio-africano para Egipto, y euro-africano y

afro-europeo para nuestro país. Citar sólo las culturas neolíticas, argárica, megalítica, griega, fenicia, romana, la inclusión germánica vándala, la invasión árabo-maghrebí y la subsiguiente islamización española... En territorio egipcio también se han sucedido los movimientos de nubios, hicsos o hititas, pueblos del mar, asirios, libios, griegos, romanos, persas, islam, y señoríos por kurdos, mamelucos, turcos..., sin olvidar las ingerencias francesas e inglesas, buenos conocedores de la situación geoestratégica de Egipto.

De todo ello cabe esperar, ante todo, que Egipto y España, guardianes de los estrechos, desempeñen un papel predominante en cuanto que puente y nexo cultural en un mundo sin fronteras, un mundo cada vez más reducido en su realidad física, ya no multiestatal, sino verdadera y genuinamente transcontinental.

JUAN JOSE SANZ DONAIRE

EL NACIMIENTO DE LA EGIPTOLOGIA

La ciencia histórica que estudia el mundo del antiguo Egipto tiene un origen relativamente reciente que coincide con el inicio de nuestra edad contemporánea. A finales de agosto del año 1797, mientras se negociaba el Tratado de Campo-Formio, Napoleón Bonaparte pensaba ya en la conquista de Egipto. Este proyecto, que había sido expuesto antes por Leibnitz al rey Luis XIV en 1672, siendo reconsiderado por sus sucesores, Luis XV y Luis VXI, parecía, no obstante, predestinado a ser llevado a cabo por el insigne corso. El 16 de agosto de 1797, escribía Napoleón una carta al Directorio, en la que, entre otras cosas, decía: **«No están lejanos los tiempos en que nos convenceremos de que para destruir verdaderamente a Inglaterra, nos es necesario apropiarnos de Egipto. El inmenso Imperio Otomano, que diariamente se deshace, nos pone en la obligación de pensar rápidamente en poner los medios para conservar nuestro comercio del Levante**...» (1). De este modo, el futuro Emperador decidió después de un viaje de inspección a diversos puertos franceses, que muy pronto estaría en El Cairo.

Aprovechando los detallados informes que recientemente se habían recibido de París procedentes de Egipto, enviados por el cónsul francés M. Magallon, Bonaparte redactó y elevó una memoria al Directorio, y tras una fuerte oposción de algunos de sus miembros, el 5 de marzo de 1798, la expedición francesa a Egipto fue resuelta y aprobada. El día 2 de abril Napoleón enviaba una carta a Monge en la que le anunciaba que, junto con el ejército y la flota: **«Llevaremos con nosotros a un tercio del Instituto**...» (2). En efecto, había dado las instrucciones necesarias para organizar un cuerpo de artistas, literatos e investigadores

(1) Lacroix, D.: «Bonaparte en Egypte (1798-1799)». París, 1899, 7.
(2) Lacroix, D. Op. Cit., 1899, 29.

que componían la célebre Comisión des Sciences et des Arts. Este organismo sería integrado por los académicos Monge, Berthollet, Dolomieu y Denon. Además, formaban parte de la Comisión astrónomos, naturalistas, químicos, dibujantes, arquitectos y una veintena de alumnos de las prestigiosas escuelas Politécnica y de Minas. La Comisión llevaba consigo como valiosos instrumentos de trabajo varias bibliotecas e imprentas con tipógrafos para los idiomas francés, turco, árabe y griego. En total, cerca de ciento setenta sabios representantes de todas las ramas del saber de la época se integraron en la Comisión con el encargo de recopilar la documentación e informes necesarios para elaborar un amplísimo y exhaustivo estudio sobre todos los aspectos de Egipto. El día 19 de mayo de 1798, L'Armée D'Orient zarpaba de puerto de Tolón, y el día 1 de julio del mismo año, la flota anclaba frente al puerto de Alejandría.

Sin duda el nacimiento de la Egiptología estaba muy cercano. El común de nuestros autores conviene en admitir que el arranque de nuestra ciencia se produce con la colaboración y publicación de la monumental **Description de L'Egypte**, sobre la que volveremos más adelante en detalle. Esta sería la gran aportación de los hombres de la Comisión al redescubrimiento por Occidente del Egipto de los faraones.

No obstante, parece conveniente volver la mirada atrás en el tiempo para tratar de recomponer el puente perdido que unía el pasado de Egipto con el momento histórico de su increíble revelación al mundo actual. Ello nos obliga a retroceder aproximadamente hacia los años 1298-1243, a. de C., en plena Dinastía XIX, durante el Imperio Nuevo egipcio.

Jaemuaset. El que aparece radiante en Tebas

El cuarto hijo de Ramsés II (segundo habido de su esposa Isis-Nefert) fue visir del Norte y sumo sacerdote del dios Ptah de Menfis, a la vez que heredero del trono de las Dos Tierras aunque nunca accedió al mismo, puesto que moriría durante el año cincuenta y cinco del reinado de su padre. Jaemuaset fue, al parecer, un sabio afamado, experto en ciencias mágicas, según se desprende de la inscripción existente en la base de una estatua

suya que hoy se conserva en el Museo Británico (B. M. número 947) (3). Este hombre que vivió en Egipto hacia la primera mitad del siglo XIII antes de Cristo, y cuya fama trascendería hasta la Baja Epoca a través del cuento de **Satne-Jamuas**, desarrolló una intensa actividad de investigador de la historia de su país, consultando antiquísimos escritos, que ya lo eran en su época, y restaurando inscripciones en egipcio del Imperio Antiguo, lengua que ya no se hablaba ni se escribía como el neoegipcio de la época ramésida en que vivió. En suma, el trabajo de este restaurador de monumentos bien podría considerarse semejante al de los modernos egiptólogos. Sus actividades en este campo se orientaron hacia la investigación y conservación de los monumentos antiguos, ya entonces, de su país. De este modo, siguiendo las instrucciones de su padre, se encargó de recomponer los textos inscritos en las pirámides reales de las dinastías V y VI. En la cara sur de la pirámide de Unas, se descubrió una inscripción (4) con la titulatura del rey Ramsés II, seguida del siguiente texto: «...**Su Majestad ordenó que se encargase al Sumo Sacerdote de Ptah, el sacerdote Sem, el Hijo Real Jaemuaset, restablecer el nombre del Rey del Alto y del Bajo Egipto, Unas, pues se había perdido su nombre delante de la pirámide (se le ordenó), convertir en duraderos los monumentos de los reyes del Alto Egipto y los de los reyes del Bajo Egipto, y de hacer de tal manera que fuesen restaurados los que habían caído en ruinas**...» (5). Semejantes inscripciones fueron esculpidas con el motivo de la ejecución de trabajos parecidos llevados a cabo por Jaemuaset en las pirámides de los reyes Netcheryjet (Dyeser) de la Dinastía III, Shepseskaf de la IV y Userkaf, Sahure y Niuserre de la V.

Otros muchos monumentos faraónicos, ya antiguos en su época, llevaron sus inscripciones. Así, sobre una de las numerosas estatuas del príncipe Kauab (6), hijo del rey Keops de la Dinastía IV, se puede leer todavía la inscripción original antigua en la

---

(3) Kitchen, K. A.: «Ramesside Inscriptions, Historical and iBographical», II, 889-890. Oxford, 1979.

(4) Lauer, J. Ph., en A. S. A. E. (1957), Fig. 3; 114-116.

(5) Kitchen, K. A., Op. Cit., 1979, II, 874.

(6) Gomaà, F.: «Chaemwese-Sohn Ramses' II und Hoher Priester von Memphis». En Āgyptologische Abhandlungen (Wiesbaden), 27 (1973), 67, lám. 4 a. Ver también Kitchen, K. A., Op. Cit., 1979, II, 872-873.

parte delantera del asiento, en tanto que en otros lugares del monumento se lee el nombre de su restaurador, Jaemuaset. Esta práctica de cuidar y conservar los monumentos antiguos no fue un caso aislado en la persona del hijo de Ramsés II. En realidad, a lo largo de toda la historia, los egipcios volvían, una y otra vez, a investigar en sus antiguos archivos, en los templos, para documentarse e instruirse en los escritos y sabiduría de sus antepasados. De igual modo en las épocas de reafirmación nacional, como en el llamado renacimiento saíta, en la Dinastía XXVI, se produjo una intensa labor de reacondicionmiento y conservación de monumentos, ya milenarios (7), lo que supondría, sin duda, una auténtica labor de campo en arqueología, en la propia época de los últimos faraones de Egipto.

Los Ecos del Crepúsculo

Cuando Egipto se encontraba viviendo los últimos momentos de su ciclo histórico civilizador, a partir del siglo V antes de Cristo, viajeros griegos, y más tarde, romanos, recogieron una serie de informaciones de carácter histórico, religioso, geográfico y antropológico, que durante siglos serían las únicas accesibles para Occidente en relación con el mundo del antiguo Egipto. Hombres como Heródoto de Halicarnaso, Estrabón, Plinio el Joven, Diodoro de Sicilia y Plutarco de Queronea, da rían la oportunidad a través de sus escritos, y en la medida en que han llegado completos hasta nosotros, de conocer por referencia directa, aunque en ocasiones distorsionada, el Egipto, vivo aún, que daba culto a sus antiguos dioses y era para sus habitantes la tierra más sagrada del mundo. Por esta razón, estas crónicas elaboradas de cerca, han sido, y siguen siendo, todavía hoy, de suma importancia como fuente histórica directa en el trabajo de los actuales estudiosos e investigadores.

De otra parte, dentro del propio Egipto, debieron existir cronistas e historiadores que investigaron en las fuentes documen-

---

(7) Veánse a título de ejemplo las restauraciones de época saíta realizadas en el conjunto de Horus Netcheryjet (Deyeser). Lauer, J. Ph. «Les Pyramides de Sakkara». I. F. A. O. (El Cairo, 1991), sexta ed., 33-34.

tales de los templos egipcios. Por lo que sabemos, el más conocido de ellos fue un personaje que vivió durante el siglo III antes de Cristo, llamado Manetón (8). Este hombre que era originario de la ciudad de Sebennytos (la actual Sammanud), situada sobre la orilla oeste del brazo del Nilo que desemboca en el mar en Damietta, fue sacerdote en Heliópolis durante el reinado de los primeros Ptolomeos. Su obra comprendía entre otros títulos los **Aegyptiaca**, o historia de Egipto (dedicada al faraón Ptolomeo II Filadelfo), y dividida en tres tomos o libros, en los que los reyes de Egipto aparecían clasificados en XXXI dinastías, designadas, cada una de ellas por un epíteto geográfico, según su origen. Además, incluía una tabla sincrónica comprensiva de los monarcas de los demás pueblos orientales. Esta importantísima obra de historiografía se perdió para la posteridad, habiéndonos llegado tan sólo parte de la misma a través de los escritos de otros autores que la consultaron y manejaron, dejando referencias de su contenido en el contexto de sus propias obras. Así conocemos ciertos fragmentos a través de los escritos de Flavio oJsefo en su «Contra Apionem»; también se nos ha conservado el llamado «Epitome», especie de resumen de los Aegyptiaca, a través de los cronógrafos cristianos Sexto Julio «El Africano», Eusebio de Cesarea y Jorge «El Sincelo».

Manetón escribió además manuales sobre doctrinas religiosas, rituales y festividades. Es muy probable que Plutarco de Queronea se inspirase en gran medida en la obra manetoniana para redactar su gran tratado religioso **De Iside et Osiride** sobre el mito religioso del dios Osiris. La pérdida de la «Historia de Egipto», de Manetón, constituyó un daño irreparable para la cultura universal, pero más aún lo fueron el incendio de la Biblioteca de Alejandría en el 47 antes de Cristo, y la destrucción del templo de Serapis con su biblioteca en el año 391 de nuestra era.

En todo caso, con el advenimiento del cristianismo como religión oficial del Imperio de Roma, y al dictarse el Decreto del Emperador Teodosio, en el año 383, por el que se ordenaba el cierre de los templos dedicados al culto pagano en Egipto, se produce el término del lento languidecer de la civilización faraónica. Co-

(8) Vidal Manzanares, C.: «Manetón: Historia de Egipto». Traducción, introducción y notas. Madrid, 1993.

mo ya se ha dicho, Egipto es conquistado para el Islam por los árabes en el año 639 de nuestra era, y a partir de este momento en Occidente también se extiende un espeso manto de barbarie que hará olvidar la existencia del Egipto milenario y su gran civilización (9).

Esto no quiere decir que dentro del propio Islam, sus sabios y científicos no se interesasen por el pasado faraónico de la tierra de Egipto, tal y como nos consta, por ejemplo, a través de la obra del viajero árabe Ibn Battuta, quien visitó el país del Nilo en el siglo XIII, y que al hablar de las pirámides y templos de Egipto, nos dice: **«Las pirámides y los templos se encuentran entre las maravillas dignas de mención a lo largo de la Historia. Mucho han hablado las gentes sobre ellos, tratando de descifrar su objeto y antigüedad. Hay quienes pretenden que todas las ciencias aparecidas antes del Diluvio procedían de Hermes, el Primero, que residía en los confines del Alto Egipto... y que sería el primero en hablar del movimeinto de los astros y de las distancias superiores y en elevar altares glorificando a Dios el Altísimo. También advirtió a los hombres del advenimiento del Diluvio y temiendo la desaparición de la ciencia y la pérdida de la técnica construyó pirámides y templos en los que grabó la totalidad de las artes y artilugios, dibujando las ciencias para perpetuarlas. Se dice que la sede de la ciencia y el poder de Egipto era la ciudad de Manuf (Menfis), situada a doce millas de El Cairo. Al construirse Alejandría, los habitantes se trasladaron a ella convirtiéndola en centro de las ciencias y el poder hasta la venida del Islam, cuando Amr Ben El As, fundó la ciudad de Fostat, haciéndla capital de Egipto, como lo es hasta hoy día»** (10).

Durante la Edad Media, tan sólo llegan los ecos lejanos de Egipto, transmitidos a través de viajeros, comerciantes, peregrinos de los Santos Lugares o expedicionarios de las Cruzadas. Se hace preciso esperar hasta el siglo XVII para obtener noticias más explícitas de lo que Egipto revelaba a los viajeros italianos y franceses que esporádicamente recorrían las orillas del Nilo. El Renacimiento sacaría a la luz entre las viejas representacio-

(9) Marcel, J. J.: «Egypte, depuis la Conquète des Arabes jusqu'a la Domination Française». París, 1848, 18.

(10) Ibn Battuta: «A través del Islam». Madrid, 1981, 138.

nes iconográficas paganas de Grecia y Roma, aquéllas otras que se ha dado en llamar «egipcierías», productos artísticos de gusto egiptizante.

El descubrimiento de los restos egipcios de la Villa de Adriano en Tívoli, en el año 1460, las esculturas del Iseum Campense, o la llamada «Tavola Bambo», o «Mensa Isiaca» en 1552, todo ello en Roma, hacen volver los ojos de los artistas y mecenas de la época hacia el valle del Nilo. Las colecciones de arqueología y arte del Renacimiento abundaban en los palacios de los nobles y de los príncipes de las iglesias; allí se veían piezas auténticas junto a obras de gusto egiptizante. El papa Sixto V, mandaría volver a erigir en diversos lugares de Roma, los obeliscos que los emperadores habían hecho traer desde Egipto. Para entonces era más que evidente que el interés de Occidente hacia el antiguo mundo de los faraones, no hacía más que crecer.

De este modo, la conciencia cultural de la Europa de la época se encuentra sensibilizada y preparada para la recuperación del mundo faraónico y dispuesta a llenar un importantísimo vacío en el conocimiento de sus propias raíces culturales.

Los grandes viajeros en Egipto durante los siglos XVII y XVIII

A finales de la centuria de 1600, los capuchinos Protasio y Francisco, y el padre Vansleb, visitaron el Alto Egipto (11). Este último, un alemán al servicio de Francia, contratado por Colbert en 1670 para realizar por cuenta del monarca francés Luis XIV un viaje a Egipto, que se llevó a cabo en 1671, repite dicha aventura en 1672 y remonta el Nilo hasta Guirgueh, llevando su exploración hacia eli Sur, mucho más lejos que ningún otro viajero conocido entonces. A través de los relatos que le fueron entregados a Vansleb por los padres capuchinos citados, nos llega la primera descripción moderna de las ruinas de los templos de Karnak, aunque la paradoja quiera que ellos no supieran, cuan-

(11) P. P. Protais et Charles François (D'Orléans): «Relation du Voyage Sayd ou de la Thébayde fait en 1668».
Abbé A. Pougeois: «Vansleb, savant orientaliste et voyageur, sa vie et ses oeuvres». París, 1869.

do lo describían, de qué se trataba realmente (12). Se hará preciso esperar a que el padre Sicard, un jesuita francés, visite Luxor para interpretar correctamente e identificar dichas ruinas con la antigua Tebas, lo que sucederá en pleno siglo XVII.

En 1704, aparece publicada en París la obra **«Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant»,** con la siguiente mención explicatoria: **«Se encontrará aquí, entre otras cosas, la descripción del Alto Egipto, siguiendo el curso del Nilo, desde El Cairo hasta las cataratas, con un mapa de este río que nadie había hecho (antes)».** Su obra, cargada en ciertos pasajes de fantasías no resulta muy adecuada para obtener datos concretos y fiables sobre el Egipto faraónico, pero, no obstante, parece que vio el templo de Armant, después destruido para hacer una fábrica de azúcar, y describió con todo lujo de detalles el pórtico del templo de Denderah, lo que parece adverar la realidad de su viaje a lo más profundo del Alto Egipto.

En el año 1707, el padre Sicard fija su residencia en El Cairo, dónde viviría hasta su fallecimiento en 1726, víctima de una epidemia de peste. Encargado por sus superiores de establecer relaciones con las comunidades coptas de Egipto, investiga los restos cristianos del valle y los oasis, las grutas de los anacoretas de la Tebaida y los conventos del Uadi Hammamat y del Mar Rojo, pero pronto se despierta en él un marcado interés arqueológico y sus relatos se enriquecen con apreciaciones sobre los parajes de los sitios antiguos. Sus obras**«Lettre à Monseigneur le Comte de Toulouse» (1721), «Lette au Père Fleuriau sur le voyage du Sinaï»**, y su **«Discours sur L'Egypte»**, junto con su mapa manuscrito del Egipto (13) antiguo, y el índice de materias de su gran obra inacabada y perdida tras de su fallecimiento **«Obra sobre el Antiguo y Moderno Egipto en trece capítulos, etc**...», resultan todas ellas de un valor incalculable. En sus escritos describe el pórtico de Hermópolis en el Ashmunein, cerca de Mallaui, que sería alabado veinte años después por el viajero inglés Pococke y por el propio Vivant Denon, para ser destruido más tarde bajo el reinado de Mohamed Ali. Pero su gran aportación a la egipto-

---

(12) E. de Salles: «Perégrines en Orient». París, 1840, 143.

(13) «Cartas edificantes y curiosas escritas de las misiones estranjeras de Levante». Madrid, 1754, tomo VI, 85.

logía fue, como decíamos más arriba, el reconocimiento e indentificación del lugar donde se encontraban los restos de la antigua Tebas. Al contrario que sus predecesores, Sicard no dudó cuando al llegar a Luxor recordó inmeditamente las lecturas que había hecho de las obras de Estrabón y Diodoro de Sicilia. Su gran logro queda descrito en la siguiente cita tomada del capítulo VII de su «Discurso sobre Egipto», dedicado a Tebas: **«Qué elogios no ha dado la antigüedad a Tebas, llamada en otro tiempo Diópspolis Magna. No hay autor que no hable de ella como de una ciudad cuya grandeza y hermosura excedía a toda ponderación. Pretende Diodoro que su circunferencia era de ciento cuarenta estadios, o de casi seis leguas. Estrabón la dá ochenta estadios de largo. Lo que hay de seguro es que era preciso que fuera de una extensión inmensa porque se llamaba la ciudad de cien puertas; no solamente fue capital de Egipto, más bien en tiempo de Sesostris, de todo el Oriente. Su situación era muy cómoda, y a propósito para sustentar tantos millares de habitantes porque todo el terreno de su contorno es admirable y pasa por ella el Nilo. Esta ciudad, pues, tan soberbia ha tenido la misma suerte que Alejandría y Menfis, y se conoce solamente por sus ruinas; pero hay ésta diferencia, que a pesar de las desgracias que ha padecido y de los esfuerzos de los cartagineses, el rey Cambises, y los romanos (bajo Cornelio Gallo) para no dejar en ella piedra sobre piedra, saqueándola, y robando cuanto en ella podían, no hay con todo ello paraje alguno en Egipto donde se encuentran tan hermosos monumentos y tantas cosas dignas de nuestra curiosidad. Pondré algún ejemplo: Al Este del Nilo se ven seis puertas enteras del castillo en que estaba el palacio de los Reyes de Tebas (14): son otros tantos esmeros de la más perfecta arquitectura. Al salir por cada puerta se encuentra una calle larga de esfinges y de todas especies de estatuas de mármol que mostraban el camino a palacio. Nada es ello, en comparación con el salón grande del palacio (15). Lo sostenían ciento doce columnas de setenta y dos pies de alto, y de doce pies y un tercio de diámetro, pintadas y cubiertas todas ellas de figuras en relieve. Fuera del**

(14) Se refiere, muy probablemente, a seis de los diez pilonos del templo de Karnak.

(15) Se refiere a la gran sala Hipóstila, entre el segundo y tercer pilonos.

salón están también pintadas las murallas y el techo en diferentes peristilos. Se pueden contar hasta mil las columnas, cuatro colosos de mármol y muchos obeliscos, de éstos, dos son de pórfido y cuatro de granito.

Un poco más lejos está el castillo y el sepulcro del rey Osimandias del cual habla Diodoro. El cuarto sepulcral está entero, pero el castillo está reducido a dos antecámaras casi en forma de media luna (16), en las cuales están representados los combates y triunfos de este príncipe. Por ambos lados se hallan columnas, las unas con bajo relieves y las otras sin estar esculpidas; muchos templos medio arruinados y las reliquias de la biblioteca» (17).

De igual modo reconoció en sus inspecciones sobre el terreno al otro lado del río, en la orilla Oeste, el Valle de los Reyes, el Ramesseum y los Colosos de Memnón. Identificó diez de las cuarenta y siete tumbas reales que Diodoro de Sicilia cita en sus obras y describió su estructura y decoración por primera vez en la historia moderna: **«Están los sepulcros de Thebas abiertos en la roca y de una profundidad pasmosa: se entra en ellos por una abertura más alta, y más ancha, que las más grandes puertas cocheras. Una bóveda soterránea, ancha de diez a doce pies, conduce a los quartos, y en uno de ellos hay un Túmulo de granito, alto de quatro pies, y encima hay una Imperial, o Cielo que lo cubre, y dá un ayre de grandeza á todos los adornos que lo acompañan.**

Salas y quartos, y todo lo demás, está pintado de alto a baxo. La variedad de todos los colores tan vivos, como el primer día hacen un efecto admirable: quantas cosas y figuras de animales son allí pintadas, son otros tantos Geroglyphicos, lo que dá lugar para conjeturar, que es la historia de la vida, virtudes, acciones, combates, y victorias de los príncipes, que están allí enterrados; pero los Geroglyphicos Egypcios son como los caracteres de algunos pueblos antiguos: quiero decir, imposibles de ser descifrados. Si algún día se logra su inteligencia, tendremos la historia

---

(16) Probablemente estuviera describiendo la capilla de la barca de Philippos Arrhydeos y las capillas del Norte y del Sur de Hatshepsut y Thutmosis IIII.

(17) Sicard, C.: «Discurso sobre el Egypto». Madrid, 1754, 320-322.

hasta ahora no conocida de aquéllos tiempos, la qual, según toda apariencia jamás ha sido escrita» (18).

Durante el invierno de 1721-1722 remonta el Nilo más allá de Tebas y llega hasta Asuán y a pesar de la animosidad de los nubios consigue llegar hasta el templo de Filé, donde copia relieves. También visita la isla Elefantina y el templo de Kom Ombo. A todo lo anterior hay que añadir una extensa catalogación de veinticuatro templos enteros entre los cuales el de Thot de Hermópolis, o el de Osiris en Abidos, más de cincuenta grutas sepulcrales pintadas y esculpidas, sobre todo en Beni-Hassan, dónde también identifica el Speos Artémidos de la reina Hatshepsut, dieciocho obeliscos y veinte grandes pirámides. En suma, el padre Sicard lleva a cabo una labor de estudio e investigación durante su estancia en Egipto que le convierte, sin duda, en un auténtico pionero de la moderna egiptología.

El devenir de los acontecimientos revela ya, que, a mediados del siglo XVIII, un cierto número de viajeros europeos, circulan, unos tras otros, o varios al mismo tiempo por las márgenes del Nilo (Granger, otro francés, coincide en el Fayum con Paul Lucas). Tras el padre Sicard, sin duda el más célebre viajero que visitó Egipto, y cuya obra merece ser citada en este lugar por su importancia, fue el danés Fréderic-Luis Norden (19), quie recorrió el río Nilo y sus monumentos en dos etapas. Nos dice haber llegado a El Cairo el 7 de julio de 1737, dónde «...**fue obligado a permanecer... más de dos meses...**» (20) sin que nos indique cuando se produjo su desembarco en Alejandría. Durante la primera parte de su estancia, hasta el 18 de noviembre de 1737, recorrió el delta y las principales ciudades hasta El Cairo inclusive. Después, y durante poco más de cuatro meses, subió y bajó por el Nilo, yendo en su asceno por el río hasta Derr, en la baja Nubia, entre la primera y segunda cataratas; esta segunda parte del viaje la reflejó en un diario que, en principio no aporta datos muy especiales, puesto que, dado el ambiente de guerra e inseguridad que, al parecer, existía en Egipto en estos momentos, Nor-

---

(18) Sicard, C. Op. Cit., 322-323.

(19) Norden era capitán de la Marina de Guerra danesa y había sido enviado a Egipto por el rey Christian VI de Dinamarca con la misión de elaborar un preciso informe sobre el país del Nilo.

(20) Norden, F. L.: «Voyage D'Egypte et de Nubie». París, año VIII, II, 1-2.

den debía hacer muy cortas excursiones, sin alejarse demasiado de la orilla, contentándose la mayor parte del tiempo en dibujar los monumentos desde su embarcación en medio del río. No obstante, su mayor aportación es la hermosa colección de láminas que acompaña a su obra, dónde se recogen una gran cantidad de monumentos arqueológicos en una labor precursora de la que más tarde emprenderían los sabios de la expedición francesa. En los años inmediatamente siguientes, el inglés Richard Pococke, publica su obra **«A Description of the East and some other Countries»**, aparecida en e laño 1743. En este caso se trata de la descripción del viaje del autor por Grecia, Egipto y Arabia, en el que se recogen las investigaciones arqueológicas que llevó a cabo. Entre ellas destacan sus hallazgos en el Valle de los Reyes, dónde localiza doce tumbas, de las que, nueve, dice, **«eran accesibles y otras cuatro estaban bloqueadas»**. Su estancia en Egipto debió coincidir con la de Norden, y sus apreciaciones y mediciones arqueológicas fueron, y son, aún en día, de gran interés, sobre todo respecto de monumentos que han desaparecido o de aquéllos cuyo rastro y ubicación se han perdido actualmente. A título de ejemplo mencionaremos el detalle referente a la situación de las tumbas reales, cuya existencia fue recogida en un mapa que se publicó unido a los dos volúmenes de su obra; pues bien, hoy se han identificado casi todas las que el reverendo Pococke nos describe, pero, en cambio, hay alguna otra de las por él reseñadas, cuya localización sigue siendo un misterio.

Otro viajero célebre de estos años fue el escocés James Bruce de Kinnald, quien visitó el Valle de los Reyes en 1768 con motivo de su marcha, remontando el Nilo, camino de Abisinia (21), descubriendo allí la tumba de Ramsés III, que ha pasado a la posteridad bajo el nombre de «Tumba de los Arpistas» o «Tumba de Bruce», puesto que fue él, el primer viajero que la describe reproduciendo sus pinturas en láminas que acompañan a su obra.

Como auténticos precursores del futuro de Egipto, al que más tarde haremos referencia detallada, figuran en estos años los franceses C. F. Volney y C. E. Savary. El primero de ellos publica su obra **«Voyage en Syrie et en Egypte»** en París en el año 1789. En esta obra describe las experiencias y observaciones obtenidas

(21) Bruce, J.: «Travels to Discover the Source of the Nile». Edimburgo, 1790.

durante su viaje realizado en los años 1783-1785. En cuanto a Savary se refiere, su obra, **«Lettres sur L'Egypte»**, recogerá semejantes cuestiones en relación con su periplo por el valle del Nilo durante los años 1785-1786. No obstante, Savary, hay que decirlo, comete la deslealtad de describir en sus escritos los templos del Alto Egipto que, se sabe, nunca visitó. Volney, en cambio, aunque nos transmite noticias respecto de los lugares que realmente ha visitado, se nota, está bastante menos interesado por la arqueología que su compatriota. Por ejemplo, se limita al describir la Gran Pirámide de Guizeh, a hacer una serie de reconsideraciones sobre las mediciones ya hechas por otros viajeros antes que él, que ciertamente no aportan nada sobre el tema.

A pesar de todo lo anterior, la importancia que poseen los relatos de estos viajeros franceses, reside en el nuevo espíritu que les anima y que constituye un claro anuncio de los futuros acontecimientos que traerán consigo el nacimiento de la Egiptología. Ambos autores son muy certeros en un mismo tema: el desciframiento de los jeroglíficos. Mientras Savary sugiere ya, la conveniencia de estudiar el Copto y utilizarlo como clave para comprender la escritura jeroglífica (22), Volney vaticina que el tiempo del desciframiento no está tan lejos como en aquéllos momentos se piensa; además, intuye que las arenas del desierto circundante de Egipto reservan grandes tesoros arqueológicos para ser descubiertos en el futuro (23). Por o tra parte, tampoco debemos ser en exceso severos con estos viajeros, pues si no aportan nada esencialmente sustancioso en sus escritos en materia de Egiptología es por una sencilla y comprensible razón: la situación en el valle del Nilo era, en aquellos momentos, de total anarquía, por lo que no se podía ir más allá de la llanura de Guizeh, sin peligro para la vida. Las guerras intestinas entre los beys mamelucos rivales, impedían cualquier labor exploratoria en profundidad. Sonnini y otros viajeros, al igual que Norden años antes, se limitaban a contemplar los monumentos desde el río sin comprometer excesivamente su propia seguridad personal.

En este ambiente inestable, sólo un equipo científico numero-

---

(22) Savary, C. E.: «Lettres sur L'Egypte...». París, 1786, III, 20-21.
(23) Volney, C. F.: «Voyage en Syrie et en Egypte, pendant les Années 1783, 1784 et 1785». París, 1789, I, 257.

so y debidamente pertrechado y adecuadamente protegido por una poderosa fuerza armada podría llevar a cabo la ya imprescindible labor de una exhaustiva y minuciosa investigación de los restos arqueológicos del pasado faraónico sobre el propio terreno: copiar las inscripciones, realizar las mediciones precisas, levantar planos, alzados y perspectivas, actualizar la cartografía del valle del Nilo, en suma, abordar el inicio de las tareas precisas para el nacimiento de una nueva ciencia: La Egiptología.

La Comisión de las Ciencias y de las Artes. El Instituto de Egipto

Cuando el Directorio aprobó el proyecto de expedición a Egipto, determinó igualmente, la creación de una Comisión, la llamada «Commission des Sciences et des Arts», que, incluida dentro del Ejército de Oriente iría con él para llevar a cabo una titánica labor: elaborar un amplísimo estudio sobre todos los aspectos de Egipto. El 16 de marzo de 1798, el Directorio remitía al ministro del Interior la siguiente Orden: **«El Directorio ejecutivo, ciudadano Ministro, os encarga poner a disposición del General Bonaparte, los ingenieros, artistas y otros subordinados de vuestro ministerio, así como los diferentes objetos que él os solicite para servir a la expedición de la que ha sido encargado»** (24). Una vez que el ejército francés entró en El Cairo y los integrantes de la Comisión estuvieron alojados más confortablemente, éstos últimos se dedicaron a poner en marcha sus trabajos de estudio e investigación. El día 22 de agosto de 1798, se fundó «El Instituto de Egipto», a imitación del Instituto Nacional de París.

Con la promulgación del Decreto que le daba vida, Napoleón cumplía la promesa hecha a los sabios de la Comisión de dotarles del instrumento jurídico e institucional que les permitiría realizar su trabajo con efectividad. Nunca una disposición legal tan corta como la que nos ocupa, con tan sólo veintiséis artículos, habrá dado de sí tan fructíferos resultados. Su artículo primero determinaba: **«Habrá en Egipto un Instituto para las Ciencias y**

(24) Beaucour, F., et alii: «La Découverte de L'Egypte». París, 1989, 69.

las Artes, el cual será establecido en El Cairo» (25). Así comenzaba la vida de una institución que sería de suma trascendencia para el nacimiento de la egiptología. Sus cuatro Secciones, dedicadas a Matemáticas, Física, Economía Política y Literatura y Artes, se nutren con la élite de los componentes de la Comisión. Bajo la presidencia de Monge, con el propio Napoleón Bonaparte como vicepresidente, Fourier como secretario perpetuo y Costaz en el cargo de secretario adjunto, el Instituto de Egipto, sería decisivo para dar a conocer a la Europa del siglo XIX la historia y los monumentos del país de los faraones. En noviembre de 1798, un ilustre miembro del Instituto, Dominique Denon, inició un viaje por el Alto Egipto, como precursor a título personal e individual de los trabajos posteriores de la Comisión. Destinado en la 21 Semi-Brigada del General Desaix, que partía en persecución de Murad Bey hacia el Sur, Vivant Denon visitaría los principales monumentos del Alto Egipto hasta Assuán. El resultado de sus trabajos fue publicado en 1802, bajo el título **«Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les compagnes du Général Bonaparte»**, en forma de texto con álbum de grabados. De algún modo, Denon fue el precursor de los trabajos de los miembros del Instituto, y su obra tienen el carácter de un verdadero anticipo de lo que posteriormente se conocería a través de la descripción de Egipto (26). Vivant Denon visitó Hermópolis, cerca de Mallaui, donde admiraría el célebre pórtico, luego destruido, escribiendo su famosa frase: «...**Así pues, no puedo dudar desde el primer instante que vi este edificio, que los griegos no habían inventado nada ni habían hecho nada que tuviera más importancia**...» (27). Exploró después, acompañado del Ejército, la ciudad y el templo de Hathor de Denderah, Tebas, el templo de Esnah, la ciudad y el recinto de Nejen, la antigua Hieracónpolis, el templo de Horus en Edfú y la isla Elefantina. De regreso hacia el norte realiza una estancia más detallada de la región tebana. Vé Karnak, visita el Valle de los Reyes y la necrópolis de Sheij Abd el Gurnah. El templo de Ramsés III en Medinet Habu tendrá para él una especial

(25) Lacroix, O. Op. Cit., 162.

(26) Gauthier, H.: «Vivant Denon en Egypte (Juilliet 1798-Août 1799)». **Bulletin de l'Institut d'Egypte** (1922-1923).

(27) Vivant Denon, D.: «Voyage dens la Basse et la Haute Egypte...», Vol. I, página 182.

importancia. Allí encuentra un papiro antiguo y esta experiencia le emociona de modo comprensible, pues probablmente fuese ésta la primera vez desde la Alta Edad Media, o quizá antes, que se descubría un papiro escrito. «...**el famoso Thot, era pues, un libro y no paneles de inscripciones esculpidas sobre las murallas, como había quedado en la duda. No podía evitar sentirme orgulloso soñando que era el primero que hacía un descubrimiento tan importante; pero fui provisto de la prueba de mi descubrimiento por la posesión de un manuscrito que encontré en la mano de una soberbia momia que se me trajo... sentía palidecer... y la voz me faltaba... no sabía qué hacer con mi tesoro; tenía tanto miedo de destruirlo, que no osaba tocar este libro, el más antiguo de los libros conocidos hasta este día...»** (28).

A la vuelta de su viaje, que concluiría en El Cairo, en julio de 1799, los miembros del Instituto examinaron con detenimiento sus croquis y dibujos para plantear el gran trabajo que deberían llevar a cabo con los monumentos faraónicos del valle del Nilo. En el mes de marzo de 1799, habían salido desde El Cairo tres grupos de miembros del Instituto y de la Comisión con la tarea de llevar a cabo una profunda investigación del Alto Egipto sobre el propio terreno. La expedición duró hasta octubre del mismo año. La Comisión remontó el Nilo hasta Siut, donde, en realidad debían comenzar sus trabajos. Desde allí fueron visitando los diferentes lugares con la tarea de estudiar el arte, la historia, el comercio, la agricultura y el régimen del Nilo, sus sistemas de irrigación y su crecida. Pero fue inevitable para sus integrantes de esta expedició no verse inmediatamente atraídos por los restos arqueológicos de los antiguos egipcios. Por ejemplo, Jollois y De Villiers, se interesaron más acerca del estudio de las antigüedades que del de los sistemas de irrigación, que era la tarea que en realidad se les había encargado desempeñar. Ellos serían los primeros en dibujar con precisión el Zodíaco de Denderah, e igualmente fueron los descubridores de la tumba del rey Amenhotep III. En efecto, cuando los expedicionarios llegaron a la ciudad de Assiut, ellos se dirigirían unos kilómetros más al sur, hasta Denderah, y el 28 de junio llegan al templo de Karnak, dónde

(28) Vivant Denon, D. Op. Cit., II, 53.

permanecen más de cuatro horas en medio de sus ruinas admirando y dibujando cuanto les rodea. Después visitarán el templo de Khnum en la ciudad de Esnah, que también dibujan. Más al sur llegaron hasta Antinoópolis. Visitaron también las islas de Filé y Elefantina. A su vuelta, explorarían el templo de Edfú enterrado entre cascotes y escombros. El 20 de septiembre, Costaz, otro miembro de la expedición penetra en las tumbas de El Kab, cuyo descubrimiento le resulta sumamente interesante, ya que, por primera vez observa la vida cotidiana de los antiguos egipcios a través de los relieves de las tumbas. Poco a poco todos los templos del Alto Egipto fueron siendo sistemáticamente estudiados. En la orilla derecha del río, Luxor, Karnak y Medamud; en la orilla izquierda, el Ramesseum, Medinet Habu y Gurnah concitan sus estudios y dibujos. El Valle de los Reyes se explora por primera vez en forma metódica. Visitan once sepulturas reales que en aquél momento estaban accesibles, y descubren la duodécima, la perteneciente a Amenhotep III, en el Valle Occidental.

También exploraron Abidos describiendo brevemente el templo de Sethi I. A su vuelta a El Cairo resumen su trabajo de inspección en un artículo que sería publicado en «Le Courier de L'Egypte». Apenas dos años después volverían a Francia, con el fruto de sus trabajos que pudo haber caído en manos de los británicos al firmarse la capitulación de las tropas francesas por el general Menou. Es en este momento cuando la piedra de Rosetta, importantísimo monumento en la historia de la propia egiptología, pasa a poder de los ingleses junto con otras piezas arqueológicas egipcias que hoy forman parte de las colecciones del Museo Británico.

De retorno a Francia, tras la capitulación de Abukir, Fourier es llamado en París a presencia del primer cónsul Bonaparte, de quien recibe la orden de reunir a los miembros de la Comisión (Monge, Berthollet y Laplace) responsables de los trabajos, para que procedan a la publicación completa de lo que será **«La Description de L'Egypte, ou recueil des Observation et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française»**.

Comenzaba la elaboración de este auténtico monumento en

el año 1803 (29), no se concluiría hasta 1828, es decir, veinticinco años después, sufriendo por razones políticas, unas veces, y otras, por motivos económicos, cinco interrupciones en su plan de publicación. Su verdadera importancia reside en haber levantado definitivamente el velo que oscurecía la visión de Egipto hasta ese momento. En el corto período de un año se revelan a Europa los vestigios de un misterioso pasado. Egipto se convierte en objetivo de un intenso estudio por su parte de investigadores y eruditos de toda procedencia. Pero ésto no es todo; del descubrimiento de monumentos como la piedra de Rosetta y del conjunto de información que se desprende de los dibujos, calcos y descripciones minuciosas aportadas por los componentes de la Comisión surgirá un movimiento investigador con metodología propia, cuya proyección y desarrollo no harán más que perfeccionarse en el futuro para dar lugar al nacimiento de una nueva ciencia: la Egiptología.

La Egiptología después de la expedición francesa en Egipto

Jean-François Champollion tenía diecisiete años cuando, en 1807, sometió a la «Société des Arts et des Sciences» de Grenoble, su trabajo sobre la geografía copta de Egipto. A los veinticuatro años publicó su **«Egypte sous les Pharaons, ou recherches sur la geographie, la langue, les écritures et l'histoire de l'Egypte avant l'invasion de Cambyse»**, y a los treinta y dos, comunicó su sistema para la interpretación y desciframiento de la escritura jeroglífica. El 20 de septiembre de 1882 dio lectura a su famosa **«Lettre à M. Dacier... relative a l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques employes par les Egyptiens... etc...»** (30). En este documento se estractaban por Champollion los principios básicos del desciframiento de los jeroglíficos que aún hoy siguen siendo los mismos utilizados por los filológos. De esta manera los libros de

(29) La obra completa supone nueve volúmenes de texto, doce láminas y uno más de atlas geográfico. Está sistemáticamente dividida en tres grandes apartados: Antigüedades, Estado Moderno e Historia Natural.

(30) Un estudio exhaustivo sobre la obra de Champollion y la bibliografía existente sobre esteasunto se encontrará en Kettel, J. «Jean-François Champollion Le Jeune-Répertoire de bibliographie analytique». Institut de France. París, 1990.

los templos, las inscripciones de todo tipo, en suma, la boca y la lengua del Egipto faraónico se abrieron para volver a transmitir su antiguo mensaje. En el centro de todo este proceso de investigación se encontraba un hallazgo realizado en julio de 1799 por un oficial del ejército francés. Se trataba de la llamada «Piedra de Rosetta», una copia en basalto de un decerto dictado por Ptolomeo V Epifanes (196 a. de C.), en favor de los templos. La inscripción contenía un t exto en escrituras jeroglífica y demótica y su correspondiente traducción al griego. Champollion (que nunca tuvo a la vista el original de esta inscripción, pues como vimos más arriba, el bloque de basalto que contenía la inscripción fue confiscado por los ingleses al ejército francés), trabajó sobre reproducciones en forma de grabados. Pero antes de que él diera con la clave para descifrar la escritura jeroglífica, otros muchos investigadores intentaron encontrar la solución al problema. Sylvestre de Sacy y el sueco Akerblad comenzaron su trabajos a partir del texto en escritura demótica, y se puede afirmar que en alguna medida descubrieron también el sistema de esta escritura. El inglés Thomas Young intentó algo semejante, esta vez con el texto jeroglífico incompleto. Sus esfuerzos resultaron inútiles, aunque dedujo, entre otras cuestiones de interés, que las inscripciones encerradas dentro de lazos ovalados (ver fig. 1), que luego recibirían el nombre de «Cartuchos» o «Cartelas», entre los egiptólogos, eran nombres de reyes (31).



Figura 1

Champollion, apoyado en una gran tenacidad que le era característica consiguió el éxito con la ayuda de la lengua copta que conocía a la perfección. Estableció el valor, la función y el sentido de cada signo; distinguió los grupos que formaban palabras, y una vez hecho ésto, descifró las frases. Pero veamos cuál pudo ser el desarrollo de las investigaciones de los pioneros de

(31) **Encyclopaedia Britanica**, Suplemento, IV (1819), láminas 74 a 77. Ver también Young, Th. «Miscellaneous Works», III, láminas 1 a 4 (1814). Esta idea habría sido ya avanzada por Akerblad y Zoega.

la Egiptología para conseguir llegar a la meta que alcanzó el primero, Champollion.

En principio, el origen de los conocimientos occidentales sobre la lengua egipcia, debería remontarse al momento en que se adquirieron y trajeron a Europa los primeros manuscritos que contenían gramáticas y diccionarios de la lengua copta, escritos en árabe. Esto sucede con Pietro della Valle durante el siglo XVII. Estos preciosos documentos, junto con traducciones coptas de la Biblia, convirtieron a esta última lengua, casi al borde de la desaparición, en un instrumento de trabajo asequible que permitió a investigadores como el padre Atanasio Kircher, profundizar en el camino que conduciría a la solución final del problema. El padre Korcher, profundamente interesado en esta variante de la lengua egipcia antigua, publicó una serie de obras en latín, entre las que se encuentra la «**Lingua Aegyptiaca Restituta**», publicada en Roma, en el año 1643. En esta obra se dá a conocer el contenido de los manuscritos, citados más arriba, que hoy forman parte de los fondos de la Biblioteca aVticana. El camino iniciado por el jesuita era, en principio, el adecuado. Pero al intentar abordar la traducción propiamente dicha de los jeroglíficos, apoyándose para ello en los célebres «Hieroglyphica», de Horapollon, escritos en el siglo IV de nuestra era, cayó en la equivocación de suponer que la escritura egipcia de sistema jeroglífico, era de carácter exclusivamente simbólico. A título de ejemplo mencionaremos la traducción propuesta por Kircher para el contenido del cartucho (Autocrator) (ver fig. 2), siguiendo su equivocado sistema, que era el siguiente: «**El creador de la fertilidad y de toda vegetación es Osiris, cuya fuerza generadora el sagrado Mophta lleva desde el cielo a su imperio**» (32).

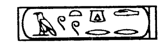


Figura 2

Tras estas desviaciones, algunas obras, como, por ejemplo, la llamada «Gramática de Tuki», que recogía los textos coptos

(32) Düminchen, J.: «Geografía del Antiguo Egipto». Historia Universal, I, 189. Barcelona, 1917.

de Mingarelli (1778), o la del danés Zoega, que «...**tuvo el mérito de señalar aquél de entre los obeliscos de Roma que más se acercaban al célebre texto de Hermapion**» (33) (lo que sería en suma de utilidad para Champollion en sus investigaciones), ayudaron a avanzar en el camino del conocimiento de la lengua copta, aportando importantes logros para el futuro inmediato que en esta materia se avecinaba. En resumen, el gran error en el que caían invariablemente tdos los investigadores era el no considerar que la genuina estructura de la escritura jeroglífica era de carácter ideográfico, pero con grandes proporciones de elementos fonéticos. En efecto, los signos jeroglíficos estaban constituidos por tres grupos fundamentales: los figurativos o ideográficos, que representaban directamente a los objetos; los fonéticos o fonogramas, que recogían el sonido de la palabra, y, por fin, los determinativos que, colocados al final de la palabra propiamente dicha, servían para expresar la categoría o grupo al que pertenecía el objeto a que la palabra se refería.

Por estas razones, sólo una persona provista de unas dotes de sagacidad e intuición fuera de lo común, y con una extraordinaria formación en el dominio y conocimiento de la lengua copta podría conseguir alcanzar con éxito la meta del desciframiento. Cuando, una vez descubierta la piedra de Rosetta, se hicieron reproducciones litográficas y calcográficas de sus inscripciones, distribuyéndose por toda Europa, comenzaron a producirse los primeros resultados en el buen camino. Sylvestre de Sacy y el investigador sueco Akerblad fueron los primeros en estudiar el documento. Al trabajar exclusivamente sobre el texto demótico (34), en la creencia de que se trataba de una simple escritura alfabética, elaborararon hipótesis que les conducirían al fracaso. Como ya dijimos más arriba, el médico británico Thomas Young, fue el investigador que más se acercó a la solución definitiva del problema, aunque si nconseguir resolverlo. El propio Champollion reconoció en una carta que escribió a Young el 23 de noviembre de 1882, que éste último había identificado, antes que él mismo el nombre de Thutmosis. Pero volvamos ahora al 27 de septiem-

(33) Sottas, H.: «Préface de l'édition du Centenaire». (Lettre à M. Dacier), 9-10. París, 1922.

(34) Akerblad, J. D.: «Lettre à M. Sacy», 1802.

bre del mismo año, fecha en que se hace pública la ya tan comentada «Lettre à M. Dacier...» (35). En dicho documento explicaba Champollion que esta escritura «...**era similar a la de los antiguos fenicios, a las llamadas escrituras hebraica, siríaca, samaritana, al árabe cúfico, y al árabe actual, escrituras que se podrían llamar semi-alfabtéicas, porque no ofrecen, de alguna manera, a la vista más que el esqueleto de las palabras, las consonantes y las vocales largas, dejando al conocimiento del lector el cuidado de suplir las vocales breves»** (36). Los nombres pierden la mayor parte de sus vocales y, de otra parte, ciertos signos no se deben leer, porque tan sólo sirven para determinar o fijar las categorías (de este modo definía el uso de los determinativos). En su carta incluía además, un alfabeto de signos fonéticos y los nombres en cartuchos de Alejandro, Autocrator, Caesaros, Tiberio, Domiciano, Augusto, Vespasiano, Nerva, Trajano, Adriano, Sabino y Antonino. Aún le quedaba a Champollion la duda acerca de si la escritura fonética no habría sido introducida en Egipto en tiempo de los Ptolomeos con la única finalidad de poder transcribir los nombres extranjeros al egipcio. Según esta idea los jeroglíficos utilizados antes de la conquista persa de Egipto por Cambises habrían sido sólo ideográficos. Era éste el mismo error en que habían caído sus predecesores. Probablemente le hubiera costado gran esfuerzo rectificarlo, de no ser gracias a la ayuda recibida de un buen amigo suyo, M. Huyot, de quien recibió en el mes de septiembre de 1822 un paquete de documentos procedentes de Egipto. Entre las inscripcions encontró el cartucho del rey Ramsés II (R'm s s) (fig. 3).



Figura 3

(35) El 27 de septiembre de 1822 se leyó un resumen o extracto de dicho documento ante **l'Académie Royal des Inscrpitions et Belles-Lettres**, en París.

(36) Champollion, J. F.: «Lettre à M. Dacier, etc...», 34, París, 1822.

Champollion reconoció inmediatamente el nombre del célebre rey, y sabía que los dos últimos signos del cartucho, eran dos eses. El primer signo, representaba al sol, en copto Ra.



Figura 4

En cuanto al jeroglífico (ms) lo había identificado en la piedra de Rosetta en una expresión que en su traducción griega significaba aniversario. En copto el significado de la palabra en cuestión era «poner en el mundo» (dar la vida). De este modo no sólo identificó el nombre de uno de los más famosos faraones del Imperio Nuevo, sino que, además descifró su significado: «Ra (le) ha puesto en en mundo». De la misma manera tradujo el nombre de Thutmosis. Ambos reyes estaban, además, identificados en las listas de Manetón. Dos años después de la aparición de la «Lettre à M. Dacier», Champollion publicó el **«Précis du Système Hiéroglyphe des Anciens Egyptiens»**, se trataba de la redacción definitiva de su sistema para la traducción de los jeroglíficos. En dicha obra demostraba cómo se leían los nombres de los reyes persas y de los faraones indígenas. Exponía una teoría completa y coherente del empleo de los signos jeroglíficos, hieráticos y demóticos, y distinguía cuidadosamente los signos fonéticos, que expresaban sonidos, de los iedográficos que representan ideas u objetos, y de los determinativos, indicaciones semánticas no legibles. Tras estas consideraciones, sólo quedaría para sus seguidores la tarea de distinguir las tres clases de signos fonéticos: monolíteros, bilíteros y trilíteros. El resto de su actividad de estudio e investigación en el mundo de la Egiptología, incluido su viaje a Egipto durante los años 1828-1829, fue una intentísima labor que le extenuó, poniéndole al borde de la muerte. Poco antes de su fallecimiento y concluido el manuscrito de su gramática jeroglífica, lo remitió a su hermano advirtiéndole que lo custodiase con sumo cuidado, porque «...**Creía que sería su tarjeta de visita**

para la posteridad...». El día 4 de marzo de 1832 fallecía en París, llevándose consigo gran parte de sus conocimientos.

Su hermano mayor, Champollion Figeac, se encargó de publicar póstumamente gran parte de la obra inédita del gran genio: **«Grammaire Egyptiénne» (París, 1836-1841); «Dictionnaire Egyptiénne» (París, 1841-1844); «Les Monuments de l'Egypte et de la Nubie» (París, 1835-1845; «Notices Descriptives» (París, 1864-1879); y «Lettres écrites d'Egypte et de Nubie» (1833).**

Tras la desaparición de Jean-François Champollion, que había sido encargado de atender la primera cátedra de Egiptología en el Collège de France, sin que hubiera tenido tiempo de crear su propia escuela con alumnos que prosiguiesen su misión, se produjo un vacío aparentemente imposible de ser llenado, que amenazaba con cercenar los incipientes balbuceos de la Egiptología. No obstante, la ciencia de la Egiptología había nacido. Afortunadamente, en el año 1837, apenas cinco años después de la muerte de Champollion, un arquitecto alemán apasionado por la historia antigua, llamado Karl Richard Lepsius, escribía y hacía pública su **«Lettre à M. Le Professeur Rosellini sur l'Alphabet Hièroglyphique»**, en la que, el primero comunicaba al segundo (que fue colaborador de Champollion en la última época de su vida), sus hallazgos y conclusiones sobre la escritura jeroglífica. Así pues, la continuidad de nuestra ciencia estaba felizmente asegurada.

FRANCISCO J. MARTIN VALENTIN